رواية

نبيل الملحم

خمّارة جبرا



المتوسط

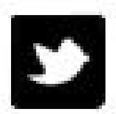
منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

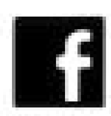
e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

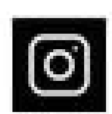
تابعونا على



Almutawassitit@



منشورات المتوسط



Almutawassit

بحثاً عن مغفرةٍ ما، أو ورطةُ تكثيف لذاكرةٍ غارقةٍ في قمرٍ، لم يكتمل، يَجز عنوة إلى أرض خربة.. إنها قوارب بلا مجاديف، تبحث في عاصفة.

مع بداياتِ نهايةٍ موشكة، أروي ما حدث، وما لم يَحدث، وإذا وقع تشابه ما بين أبطال هذا العمل وأشخاص من الواقع، فلا يتعدى الأمر مُجرّد صُدفة، مع أنني غالباً ما أتقصد صناعة الصُدَف.

إلى ليندا على الدوام

ما ستقرؤه تسجيل غير أمين، لحياة رجل، يبدو أنه ما يزال حياً.

هذا الرجل لم يقطع وعداً، ولم يكن يصدق أنه ثمرة جسدين بشريين، كان مولود الشبق، نعم، الشبق وحده، وكان على يقين من أن الشبق يتكاثر تكاثراً ذاتياً صرفاً دون أن يتطلّب تذوق فاكهتين من جسدين فرميين بعين القذر.. كان يذهب إلى حدود الاعتقاد أنه وليد الخطيئة، وأكثر من ذلك، طالما باغتته منامات، وقدماه مثقلتان بالحديد، وهو يسبح في بركة سبخة، ولأن اسمه جاد الحق جاد الله، كان يتردد بالتعريف بنفسه، ويتلعثم حين يُطلّب منه نطق هذا الاسم، أو حتى مجزد التلفظ به، كان اسم "جاد الحق جاد الله" - بالنسبة له - يتسبب بالغثيان ذاته الذي تتسبب به كلمة "فضيلة"، وفوق ذلك، كان يغلق دروب الله، إذا ما حدث، وفُتحت له.

لم يكن ليتساءل إن كان الله موجوداً، أو إذا ما كان خشبة نجاة لمن ضلّلتهم الحياة، وأعيتهم وعودها.

هو يقول:"ليس من ضرورة لانتظار النجاة، الغرق وحده يتكفّل بخلاصنا"، وكانت راحتاه تتضوعان برائحة بعيدة، فللذاكرة رائحتها.

- أيّ بنفسج حملت معها؟

بعد قرابة عشرين عاماً من إحالته على المعاش، انزلقت قدمه، فوقع؛ لينتج عن وقوعه كسرٌ متصالب في ساقه اليمنى.. في حقيقة الأمر، لم تكن المسافة التي وقع منها كفيلة بإحداث كسور دارسة، وعلى هذا النحو من الشدة والتوخش، غير أنّ ما أفلت عظامه من عقالها، هو أنها لم تكن عظاماً شابة، صلبة، متوهجة، لتحتمل أياً من الصدمات المتأتية من انزلاقه فوق بلاط منزله، فجاد الحق جاد الله، انزلق من على مسند مقعده، حين كان يعاود الجلوس إثر انفعال باغته، دفعه للوقوف ملوحاً بذراعيه وقامته، وهو رجل قلّما لاحظ أيّ من المحيطين به، سواء في المنزل، أو في العمل، أنه قابل للإصابة بعدوى الانفعالات التي تجتاح رجالاً نزقين، تعوزهم كوابح الإرادة، بعد مشاهدات نشرات الأخبار، وهي تحكي خرافة القتل اليومي، وقد اجتاح البلاد طولاً وعرضاً، لكنه حدث، وانزلق، وهو

يتابع وقائع القتل بعين لا تخلو من بعض الإشراقات، وقد حملها من نصفه الثاني، وهو رجل عاش بنصفين، بدءاً من طفولته مروراً بربيع عمره، ولم يكن يعلم على وجه اليقين، أية وقائع ستحل به بعد غروب شمسه.

كنزة - وقد أحيط بجبيرة من الجيبس، في مشفى المجتهد الوطني، دون عناية طبية تُذكر - اختفى تحت جلده، تاركاً عظامه، كما لو كانت مسحوق فلفل، ولم يكن لفجبر كسوره أدنى أمل في أن تُمسك جبيرته بعظام جاد الحق جاد الله، أو أن تحفظها من التفتت، كما يمكن لجبيرة أن تفعل في عظام شاب يافع، حدثت كسوره في عمر مُبكر، لقد أصيب جاد الحق بهشاشة العظام، بعد أن خطى خطوات ممتدة نحو العقد الثامن من العمر، وبسبب هشاشة عظامه، كان عليه أن يُداري حركته ومشيته، كما كان عليه أن ينام مُسجى، وكأنه متدرب على اتخاذ وضعية ميت، مغمض العينين، مصالباً كفيه فوق صدره، ولم يكن ليهب نفسه للحياة، تماماً كما لم تكن شهية الموت فيه طيبة.

لم يكن قد اكتشف - بعد - ما هي حقيقة الموت، أ هو إهانة يواجهها البشري؟ أم مكافأة نهاية خدمة؟

في يقظته، حتى وهو ممدد في مهده، ثابر جاد الحق جاد الله على تناول بيضة نيئة مخفوقة بالنشاء، مخلوطة بحليب طازج، مصحوباً بدعاء متصل من أنفاس ياسمينة، زوجته، وقد واظبت على الإمساك بيد زوجها، وهو يتجه إلى الاستحمام، مُرددة مخاوفها من أن ينزلق، ويتحول إلى كيس محشو برذاذ رجل عاجز عن خدمة نفسه، وكانت ياسمينة مدفوعة على الدوام، بُحفى عاطفية، قلّما تسنى لرجل أن يعثر عليها من زوجة، مضى على زواجه منها سنين من الصعب تذكر بدايتها، بالنظر إلى ولوغها في القدم.

ما حدث، هو أن جاد الحق جاد الله، وهو الرجل الذي عاش حياته ضابطاً أعصابه، كما لو كانت دزة تاج بين أصابعه، حدث أن أفلتت من زمامها، وهو يهتف:

- الشعب يريد إسقاط الرئيس.

ردد جاد الحق جاد الله هتافه، رافعاً قبضتيه أمام شاشة التلفاز، وكانت المحطة تبث مشاهد قتل مروعة، وكانت علبة الـ (بوناماكس)، قد أفلتت من يده أيضاً، ولم يكن يعلم أن الـ (بوناماكس) مُرمم العظام هذا، ليس

أكثر من خدعة دوائية، لن تُعيد إليه عظامه التي تآكلت بفعل التقادم والزمن، كما لم يكن ليُصدّق أن شيخوخة العظام، هي حقيقة من حقائق جسد، أصيب بالملل، وبأن عظامه ضاقت بحمله طيلة سنوات من عمره، وبأنها ستفكّك نفسها بنفسها، متجاوزة إرادة حاملها، اعترافاً منها بأنها باتت عظام عتيقة، وهو اعتراف لن يتسنى للمخلوقات العاقلة الاعتراف به، وكان على ثقة بأن عظامه ستسوقه بيدها إلى المقبرة، كما أعمى يسوق صاحبه الأعمى على إيقاع عكازه، وتعثره، ولم يكن جاد الحق جاد الله يكلّ عن مخاطبة عظامه بالشتائم التي تتحلّى بها لغته حين يكون غارقاً في العزلة.

كان يبتكر الشتيمة، مصحوبة ببصاق تبغه، ثم يصوّبها إلى الأعلى، وكأنما يبصق على سراب الوقت، ولم يشهد أحد من عارفيه، أو أولئك الذين عبرهم حقيقة تبريراً لاعتقاده بأن التاريخ ابتدأ بالبصقة، ثم دُوّن على هيئة بطولات شاهقة.

ربّما كانت المرّة الأولى في حياته، التي يتجرّأ فيها جاد الحق جاد الله على البوح برغبته في إسقاط النظام السياسي للبلاد، فقد أمضى ما يزيد عن الأربعين عاماً، وهو يكتب الخطابات الطويلة لعزّ الدين الحكيم، رئيس اتّحاد عمال الدولة، وكانت معظم خطاباته تُركّز على جمل، لم يَخلُ خطابٌ من ذِكْرِها، كان يراها جزءاً من سراب التاريخ، ومن بينها، كان شعار:"إلى الأبد"، شعاراً انطلق من رذاذ لعاب جاد الحق جاد الله؛ ليتحوّل الشعار مع شدّة التكرار والوقت إلى يافطات فوق أقواس النصر، ويتناثر على أقواس نصر المُدن، ومطالع الأبنية، وفي حالات ليست نادرة، يحطّ فوق جدران المطابخ المنزلية، وغرف نوم المتزوّجين حديثاً، ولابد أن لغة جاد الحق العربية، لم تقع ولو لمرّة واحدة في أيٍّ من هفوات الأخطاء الشائعة التي تتقبّلها الصحافة اليومية، والتي باتت لغة معمولاً بها، حتى صار الخطأ الشائع حقيقة لغوية، لا تستفزّ سوى اللغويين المرضى، فقد كانت عثرات اللغة تستفزّ جاد الحق جاد الله، لكنه كتم غيظه منها طيلة عمر، تجوّل فيه بين معاجم اللغة.

- ما الذي حدا بك أن تفعل ذلك؟

ما إن حاول الإجابة عن سؤال ياسمينة حتى غصّ بدموعه، وهو يثابر على نزع الجبيرة عن فخذه، اعتقاداً منه أنه قادر على اتخاذ قرار موته بيده، بعد أن عجز طيلة الثمانين عاماً من عمره الفائت أن يتخذ قراراً

واحداً متصلاً بحياته، فليكن:

- من حقي أن أكسّر عظامي كما أشاء.. لقد نبتت بإرادته، وسأكسرها بإرداتي.

قال ذلك لياسمينة، وكان على وشك أن يداعب شعرها، ثم أكّد لها أن حظّه لن يُسعفه في أن يعيش أكثر، وأنه يُمنّي نفسه بالموت بحثاً عن منفى آخر، وأنني:

- وُلدتُ ميتاً، و:

أخرجتني من بطنها دون أن تتساءل الولادة إن كان من حقي أن أكون، أو لا أكون. ثم كرّر قول وليم شكسبير الأكثر شهرة، وربّما الأكثر ابتذالاً تبعاً لتواتر استخدامه من مثقّفي بلاده الذين طالما تحاشى استخدام لغتهم:

To be or not to be that's a question

كانت شكوك ياسمينة بهذيانات زوجها ما تزال تطاردها، وهي المرأة التي دفنت قلبها طيلة عمر؛ كي لا يُقتل بسكّين السفالات النسوية التي خزّنها هذا الرجل في بقايا عظامه المتآكلة.

كانت تندفع في هذه اللحظة من ثقوب نزاعه، باحثة عن تقشير عظامه، نعم، لا انتقاماً من رجل صاغها كامرأة منسية في ظلّه، وإنما، فقط؛ كي تعرف ما لم يكن متاحاً لها أن تعرفه قبل أن يخيّم الموت على رجل يحتضر.

كان عليها أن تبحث في هذا الصندوق الأسود الذي يغرق في لجّة الموت.

نزعت ياسمينة سواراً فضياً من يدها، وناولته للممرّضة، على أمل أن تعقد صفقةً مع تلك الحمامة البيضاء، وبموجب الصفقة، تُترجم الممرضة ما يقوله جاد الحق باللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية، وقالت للممرضة بما يشبه الإغراء ممزوجاً بالرجاء، إن هذا السوار من مقتنيات سيدة من العائلات السورية الوارفة التي امتلكت حقول مشمش، وأشجار جوز، وكروم عنب لا تُحدّ، وإن هذا السوار يعود إلى خمسينيات القرن الفائت، غير أن الممرضة المثقلة بهمومها في مشفى المجتهد، كانت عاجزة عن الاستجابة لطلب ياسمينة في ترجمة ما يقوله جاد الحق جاد الله، وهو

يغفو على السرير الأبيض، وقد عملت عوامل الزمن فوق بياض السرير ما عملت، حتى بات لونه أقرب إلى مسحوق الكفون، ولابد أن الممرضة المتجوّلة بين أسِرّة مرضى كسور العظام، كانت تعلم حقيقة أن هشاشة عظام هذا الرجل، جعلت مُجرّد الإمساك بيده مخاطرة غير محسوبة العواقب، وسيضاف إلى مشاعرها تلك ضغط مرضى الإصابات الحربية التي تصل بالتتابع إلى المشفى، بما أحال المشفى الحكومي هذا إلى مشفى حربي أكثر منه مشفى مدنياً، يستقبل أمراض بيئية مستوطنة.

أجابت الممرضة عن سؤال ياسمينة باقتضاب، دون أن تنسى انتزاع السوار من يدها؛ لتتفحصه، وتدوّره بين أصابعها:

- زوجكِ يبكي باللغة الإنكليزية.. قالت الممرضة.

ثم استدركت:

- يقول إنه يرغب بالتبوّل.

وهو يبكي، كان جاد الحق جاد الله طفوليّ المظهر، خلافاً لحاله ما قبل البكاء، فالبكاء يقلّص المسافة ما بين الشيخ والطفل، ويُسقط أسرار العمر فوق المناديل المبلّلة، هو البكاء كذلك، مطر الذاكرة الذي يسقي أسرارنا.

ولم يكن جاد الحق يعرف أو يُدرك معنى أن يبكي الرجل، أو دلالة أن يبكي، أو سحر البكاء المُعلَن، وعذوبته وقوّته، أو ذلك التأثير الذي يمكن أن تمارسه دموع الرجل، أقلّه، لأن الوقت لم يكن أسعفه أن يبكي أمّه الميتة، وهي تحتضر في مخاض ولادته، أو يبكي موت أبيه، وقد قضى حزناً على زوجته، وكان جاد الحق كما كلّ الأطفال الأيتام مُجفّف الدمع، فلكي تبكي عليك أن تبحث عن من تبكي بحضرته؛ ليهدهد دمعتك، أو يذهب في رحلة البكاء معك، وبعدها؛ لتحمل مناديلك بقية حياتك، وأنت تُجفّفها.. نعم، كان هذا حال البكاء الذي يهطل بحثاً عن شريك يحتضنه.

كان ممرض رثّ الهيئة يجرّ كرسياً مدولباً نحو جاد الحق جاد الله، وكان الكرسي متهالكاً، كما لو كان مُستأجراً من حطام أثاث مستودعات هالكة، من تلك المستودعات التي تدّخر بقايا أثاث منزلي، مات أصحابها، وتركها وارثوها إلى ممرّات المشفى السئمة هبة مَنسية، يمنحها الموتى المَنسيون لأحياء عازمين على اللحاق بهم.

حين نظرت ياسمينة إلى جاد الحق جاد الله، بدت - بدورها - غارقة في

دموعها، لكنها حرصت على لملمة حبات دمعها، كما لو أنها تلملم حبات لؤلؤ، تقع من عينيها السوداوين الواسعتين، وكانت الترجمة المقتضبة التي قدّمتها الممرّضة صادمةً لياسمينة التي اختبرت عواطف زوجها منذ كانت في الثالثة عشر من عمرها، عندما كانت شغوفة بالصبي جاد، دون أن يعترض أحدٌ شغفها به، وهي بنتٌ، لا عائلة لها، وليس ثمة من يعرف حقيقة حياتها في هذا الحي، ولا كيف وُلدت، ولا من أي مكان أتت، كلّ ما كان يمكن معرفته عنها أنها البنت اليتيمة التي ما إن تغيب حتى تحضر، ولم يكن لأيٍّ من السكان معرفة حقيقة موت والديها، أو ضياعهما، كلّ ما كان يقيناً بالنسبة للفضوليين المتسائلين عن حقيقتها، أنها بنتُ نُذار بوشوشة التوقّعات والعناية الإلهية، في حيٍّ لا يتوقّف عن تلقيح حكاياته بحكايات جديدة، لابد، وأن تتناسل مع تتالي الهجرات إلى هذا الحي، ومن ثم؛ هجره، ومع كلّ وافد جديد، ستولد حكاية جديدة، لا تستقرّ في ذاكرة الحي حتى تزيلها هجرة لاحقة، وليس ثمة أحدٌ من الرواة، أو مستهلكي الرواية، سيحمل أدنى فكرة عن حدود حقائق ما تنتجه خيالات نساء حكّاءات، يفترشْنَ بوّابات بيوتهن، تختلط حكاياتهنّ بتعسّف الغبار، وروائح النفايات المكدّسة في العراء، مع اختلاطات موت، ليس من اليسير أن يكون موتاً طبيعياً، فقد بدأت حكايات الموت الأكثر إثارة للسؤال، بموت عجوز بمرض الحصبة، وكانت تجاوزت العقد التاسع بثمانية سنين، فيما مات رجلان في الأربعينات من العمر برقصة الديكة، وهو احتضارٌ قد يكون وليد انسداد في مجرى التنفس، أمّا أكثر الميتات توليداً لخيالات غرائب الموت؛ فهي ميتة نايف الحلاّل، حين دخل مراهنة قاسية، أكل فيها ألف غرام من الفحم، مقابل حصوله على ألف غرام من البقلاوة المتيبسة، دون أن يجدي حقنه بالماء والصابون في إزالة الفحم من جوفه بعد أن بات هباب الفحم يخرج من منخريه.

هواجس الموت هذا، وتواتر الحكايات المنقولة عنه، لا بد وأن تلغي هواجس السؤال عن أصل ياسمينة وعائلتها، دون أن ينسى أحدٌ من السكان دائمي الإقامة إطلاق مجموعة من الأسماء على ياسمينة، من بينها ورد الشام، وحبقة، وغزالة، وسمية، وسمسمية؛ لتستقرّ على اسمها الجديد: ياسمينة، مروراً بأسماء، ليست من اللغة العربية، كاسم بكسيمة، وثمة من يحيل الاسم إلى (بقسما)، وهي خليط من ندف الثلج مع دبس العنب، ابتكار فلاحين، يتوهون في عواصف ثلجية، تعقبها سنوات جمر من جفاف طبيعة، لا تعرف الرحمة، كان لياسمينة أسماء لا تُحصى، مما أتاح الفرصة لأيّ من سكّان الحي أن يناديها بالاسم الذي يختاره لها، ولم تكن لتتردّد في

الالتفات إلى من يناديها مبتسمة، كما لو كانت تتساءل:

- ما الذي يمنع؟! قد يكون هذا هو اسمي.

- حتى وهو يبكي، يبكي بلغة، لا أفهمها.. قالت ياسمينة للممرّضة.

ما إن لامست ياسمينة سرير جاد الحق بيدها، متتبعة تفاصيله؛ لتتأكد من سلامة السرير، حتى قالت لنفسها، إنها أضاعت عمرها، وهي تنتظر خروج جاد الحق من وراء جدران تكتّمه، وبدت في هذه اللحظة مقبلة على التصرّف بعناد وحزم؛ لتقف في وجهه، وتقول له ناهرة:

- احكِ، يارجل، والله، إنك أشد صمتاً من موتى العالم كلّهم.

حكت ياسمينة بلغة بعيدة الغور والعمق، عن المكاشفات الضرورية التي يمكن أن يرتكبها الأحياء لحظات احتضارهم، واستخدمت في كلامها سعة الأمثال الشعبية الدارجة، في محاولة حثيثة لفهم شيء ما من حياة زوجها الملتبسة، حكتْ له عن ضرورة أن يترك مودعو الحياة قِطَعاً من حياتهم في ذاكرة الأحياء المؤقّتين الذين سيلحقون بالأموات آجلاً أم عاجلاً، نعم، ليس من حق الموتى ولا من خصالهم أن يموتوا، ثم يُميتوا ماضيهم كله معهم.

كان جاد الحق جاد الله ما قبل كسور فخذه يُكابد معركة مع جسدٍ قد تذرر، ولابد أن حلفاء خياله استسلموا، كما استسلم، وباتوا يُقزون يوماً بعد يوم أن هذا الجسد فقد أهليته، وحلفاء خياله الذين نعنيهم هنا، هم كومة كبيرة من لفافات السجائر، وزجاجات النبيذ الأقرب إلى الخلّ منه إلى النبيذ المصنع منزلياً، وستُضاف ياسمينة إلى هؤلاء، وهي امرأة قلّما رفعت عينيها عن زوجها سوى لتؤكد إعجابها به، حتى وهو في أشد حالاته انطفاءً واستسلاماً للحظات الضعف، لم تكن ثُرثر أبداً، كانت تكتفي بالنظر إليه، لكن جاد الحق جاد الله لم يكن يتنبه إلى كَمِّ الحب الذي تحمله ياسمينة في قلبها، ولم يكن يكف عن قراءة الكُتب، ما دفع ياسمينة أن تقوم بإخفاء كُتبه عن وجهه على الدوام، وذات يوم، بلغَ حنقها من كُتبه، أنْ تسلّلت بصمت وحذر، ووضعت كفاً كبيراً من صفحات كُتبه في قدر شورباء العدس، وغلتها مع الشورباء آملة أن يبتلع زوجها حصاد المعرفة دفعة واحدة، علّه يكف عن القراءة، ويلتفت إليها، وينطق ولو بكلمة ترفع الغبار عن خفايا حياته الفائتة.

الكسر المتصالب، زاد من كساد جسده، وبات، وهو مُلقىً فوق سرير

المشفى أقلّ مقدرةً على إدامة حربه مع جسدٍ، لم يعد يستجيب إلى أيّ من أوامر دماغ ساكنه، هو الأمر كذلك، فالجسد بيت، يسكنه الأحياء، يغلق نوافذه، أو يفتحها، يفتك بساكنه، أو يعلي من خزيه، وكلّ ما تبقّى من الأفعال الحيوية لجاد الحق جاد الله، هو قدرةٌ مضاعفة على الإصغاء، وسماع الأصوات، كما طاقة مضاعفة على التحديق فيمن يحيط به، كما أن الأصوات باتت تصله مضاعفة، وهذا صوت الطبيب المتدرّب الشاب، يصله، وهو يهمس للممرّضة:

- كسورٌ في عظم الفخذ.. إنها لن تُجبر.

سمع صوت الطبيب متكرّراً، ولكن؛ بصفاء ودقّة، وكانت عيناه تلتقطان ضوء القمر، وهو ينظر إلى سقف غرفته في المشفى متجاوزاً طبقات الخرسانة الكثيفة الصدئة... كان ضوء القمر مضاعفاً، واضحاً، وكان القمر دائرياً، ممتداً على نصف سماء الليلة، وكان يُحدّق بخرافة قمره مخترقاً طبقات خرسانة متعددة.

- القمر؟

لعنة جاد الحق جاد الله تاريخٌ مسجّل على صفحة دير الغزال منذ عام ١٩٤٠ حسب السجلات التالفة لدائرة إحصاء السكّان المعمول بها في القيود الحكومية الرسمية، وكان القمر ليلة ولادة جاد الحق كما حاله اللحظة... مدوّراً وواسعاً، أضاء مساحات هائلة من ليلة مولده، لتبدو أجساد قاطفات الحشيش أشباحاً مضاعفة، وهي تهرع صوبه، في سباق مع ظلالها.

كانت حشيشة الكيف قد أينعت، وكان زارعوها قد ضربوا موعداً مع برد العاصفة، إنه الوقت الأنسب لإعمال مناجلهم في قطافها، بعدما تدنّت درجات الحرارة، وباتت المادة الصمغية الزيتية متماسكة أكثر ما يسهل جمعها، والإفادة منها، غير أن عاصفة الليل هدأت، وتبدّد برد الليل، كما لم يكن بالوسع أن يفهم، وكان القمر مضاء أبيض، وكأنه طفل في السادسة من عمره، وكانت فاطمة تلفّ ذراعيها متوسلة؛ كي ينزلق جنينها من بطنها.

بدا جاد الحق، وهو فوق كرسيه المدولب مستغرقاً بما لا يسعه إدراك سرّه، فقد أتى حَبل أمه فاطمة، من قرار لايحمل أيّ تبصر، ولم يكن أيّ من سكّان دير الغزال قادراً على التعرّف عن كثب، إلى ماسيصير إليه الجنين المحشو في بطن فاطمة بعد أيام من لقاح، أضاء عيون السكّان المسفرين بانتظار قيامة، لا ريب آتية، وكانت عقائدهم قد اتّخذت من فم مولانا

الولي أبو عقار منصة لإطلاقها، ودون ريب، ما يزال جاد الحق جاد الله، يُصغي إلى قرعات دفوف، تتقدم صوبه قاطعة ليلاً ممتداً، ومنازلَ مقفرةً، وفوانيس تلوح من فوق أسطح، ونساء يقرعنَ الدفوف، بانتظار أن تُفتح الأبواب الأرضية رتاجاتها لمخلّصين، أولياء صالحين، معصومين، قادمين من وراء سور سدّ الصين المنيع، والصهيل يحفر الريح تحت سنابك خيولهم، فاتحاً بوابات الحق الموعودة، من أنفة بالغي القِدَم، وصلوا الكرة الأرضية لإعادة رسم المغفرة لتائبيها، فيما لن تكون التوبة ممكنة لبشر آخرين منتمين إلى مذاهب دينية أخرى، وكان أبو عقار حريصاً على توزيع النساء على بوابات القيامة؛ لتكون البنت "نجمة" حارسة بوابة خدمها، و"زهر الهيل" غزالة الجنة، و"ورد الشام" حمامتها، ولتكون فاطمة تفاحة الجنة، فيما ستؤجل تسمية زمزدة، وكان مولانا اختير نساء جنّته ما قبل حدوث زلزال سيف الحق الذي سيأتي، كما الريح العاصفة فوق رقاب عبيد الدنيا.

زمزدة؟ كانت تطلب العزم.. العزم على الأرجح، وكانت من بين حاملات المناجل اللواتي لم يغرقنَ في فم أبي عقار، وكانت تتطلّع إلى القمر، وهو ينزلق من بطن فاطمة، ومن خلفها، بدت أصوات الفجيعة، وهي تختلط بضحكات متهتكة منهكة، وكانت تدعو فاطمة للصمود، وهي تردد:

- اضغطي.. اضغطي، يا أختي.

ليس من أحد في دير الغزال، إلاّ وكان يَعلَم تمام العلم بأن مولانا يتمدد مع أسرار الفجر الأولى مع نساء جنته، وكنّ يغرقن في فمه الشهواني، وبين قبضتيه اللتين تصرعان ثوراً بضربة هائجة، وكنّ يرسمنَ نهايات ذرواتهنّ أنيناً طفولياً، ينتهي بكاء، مع أن بعضهنّ من الجدّات والكنّات والبنات اللبونات اللواتي ما تزال أثداؤهن غارقةً في صدورهنّ العارية، وقبل أن يبدأنَ بالنضوج، كان يُحفلهنّ أجلة، ستتدحرج - لاحقاً - في أزقّة الفذن، باعتبارها من أولاد الزنى.. كنّ يخرجنَ نتوءات أثدائهن إلى فمه، ثم لا يلبث بعد ملامسات سريعة أن يحوّل حبات النهد إلى أثداء كاملة مبرهناً على سحر أصابعه؛ ليخرجنَ من مخدعه سمينات وموزدات، لا يتوقّفن عن التمو بعدها.

في البداية، كان ثمة سرّ غريب لولادة جاد الحق جاد الله، فلم تكن فاطمة قد أدركت حبلَها، وكانت ترى أن انتفاخ بطنها وتورمه، لا يعدو أن يكون مُجرّد ورم إلهي، زحف إليها من مولانا، وأنها لابد ستنجو منه، لم

تكن فاطمة التي لم تبلغ الخامسة عشر بعد، تدرك أن مولانا الكهل أبا عفار، وسيط الله في دير الغزال، قد رمى حيواناته فيها، وأن زوجها مصطفى، المنقطع عن معاشرتها، سيلحق بها فور موتها.

قالت زمزدة لفاطمة، وكانت فاطمة في طلق المخاض:

- عضي ذراعي، عضيه، وإلا ستتحطم أسنانك، عضي.

لفّت زمزدة ذراعها بقماش فستانها، فيما الحصادون الرجال يتابعون حصاد الحشيشة في موسم، بدا الأسوأ في تاريخ دير الغزال، كان الحشيش آثماً، أثمر أوراقاً أقرب إلى التبن منها إلى روح، ستأخذ طريقها؛ لتكون حشيشة كيف، بزيت مُعطن، ولم يكن لقاطفيه، سوى رجاءات لا تنقطع، بأن لا يجعلوا ورقة حية واحدة، تفلت من بين أصابعهم، وكانت أدعيتهم لا تنم عن رضى عميق، وهم يزرعون أصواتهم فوق أكفهم متضرّعين إلى الله.. كانت رجاءاتهم سبيلاً لاقتلاعهم من حاضر، يخاطبون فيها المجهول، بعد استدعائه من مساحات مجهولة، في الذاكرة؛ ليقتلعهم من مساحات الحشيش، وقد اتجهت أعينهم إلى مخاض فاطمة؛ حيث نساءٌ يمسحن دموعهن بأثوابهن، ويولولن.

ليلتها، وُلد جاد الحق جاد الله، وارتخت أسنان فاطمة عن ذراع زمزدة، كانت عينا فاطمة مفتوحتين على آخرهما، يعكسان ضوء القمر، وكانتا قنديلاً صغيراً، تتأرجح شعلته، فيما كان الوليد صامتاً، مخدوعاً، يلتقط بعينية المتعبتين ضوء القمر إياه، مثابراً على تحريك عينيه، وكأنهما تنطقان، وفوق وجهه نساءٌ نائحات بصدور شبه عارية، ما إن يرفعن رؤوسهن عن عينيه حتى يستعيد الوليد الطازج وجه القمر من جديد، وهي الصورة المثبتة في رأس جاد الحق جاد الله الملقى هذه اللحظة فوق سرير مشفى المجتهد، وتحت قمره، تهتز أثداء نساء دير الغزال، وهن يزحفن من ذاكرة جاد الحق جاد الله، وقد استسلم لآلام عظامه التي تطلق أصواتاً متوسلة طالبة أن تُدفن حال أن يستدير القمر.

لحظة ولادته وعيناه تتأرجحان نحو السماء، تساءل الطفل الوليد، كما يتساءل جميع الحمقى:

- لماذا لا تسقط النجوم من السماء؟

أهالي دير القمر، كانوا قُساة مع أطفالهم، ولم يكن ذلك بفعل شح الحب والانتباه، ولكن ولادة كلّ طفل كانت تعني إضافة فم بلا أسنان، يتطلّب

الأكل؛ ليضاف إلى حشود الأفواه الجائعة.

فجرَ دفن فاطمة، كان الحصادون قد دفنوها على عَجَلٍ ممزوجة بدم مخاضها، تمرّغ مصطفى فوق قبرها، وارتمى كحقل موحل، وهو يطلق أنينه متابعاً تقبيل تراب قبرها، وكانت زمزدة منشغلةً باحتضارات مصطفى، وبإنقاذ طفل فاطمة، ولم يكن لأيٍّ من سكان دير الغزال إطلاق تسمية تليق بموت مصطفى، وقد دارت حوله خيالات لا تُحصى، ما جعل ميتته ميتة مروية بروايات شيطانية، كان لتهيؤات الليل فيها مساحات واسعة، وأكثر الروايات رسوخاً، كانت رواية:"روح فاطمة الخاطفة"، ما جعل مجموع الأهالي يتخوفون من العبور في المكان الذي دُفنت فيه فاطمة، وما سمح للدافنين أن يهيلوا مع تراب القبر مخاوف أرواح تسعى كالثعابين من حولهم، مساومة على خطف أرواحهم أيضاً، وبدت لعنة فاطمة، وكأنما تنتقل إلى وليدها؛ لتأخذ اللعنة طريقها إلى جاد الحق جاد الله، وترافقه مع ما تبقّى من عمره، بعد هجرات واسعة، طالت دير الغزال، لم تكنس بعدها النساء المتبقّيات في الدير بيوتهن، خوفاً من أن لا يعود المهاجرون من هجراتهم، وتخطفهم روح فاطمة، كما خطفت مصطفى.

دُفِن مصطفى، إلى جانب فاطمة، في منطقة وعرة منسية، ولم يكن لذاكرة أيٍ من سكان الدير أن تتذكر قبرهما ما بعد هجرات، تلت هجرات، وهم يخبئون ذاكراتهم في قعر صناديقهم، على شكل مدخرات مالية، هي حصاد بيع حشيشة الكيف، بعد أن طوقت حكومة الانتداب الفرنسي حقولهم، وأضرمتها، غير أنّ الحادثة الكبرى التي ما كان بالوسع نسيانها، هي أنْ نفر ثديا زمزدة، البنت البكر، وتدفّق الحليب منهما، وكانت حادثة أكثر شحوباً من أن تتوقّف الخيالات عندها، وقد تآكلت بفعل موسم الحشيش التالف، وكانت زمزدة، وهي ترضع جاد الحق جاد الله، تستحضر أغاني بعيدة، لتتردد أغانيها هذه اللحظة في سرير جاد الحق، مصحوبة بخيالات الموت، وضوء القمر.

لم يكن الطبيب المناوب، وهو يحمل كشوفات المريض مدقّقاً باسم جاد الحق جاد الله يعرف عن الرجل الملقى فوق هذا السرير ما يزيد عن:

- جاد الحق جاد الله، الأب مصطفى، الأم فاطمة، تولّد دير الغزال ١٩٤٠.

استدار الطبيب إلى ياسمينة، التي كانت تُحدّق بعينين مستطلعتين، وكان رداء الطبيب ملوثاً بخثرات دم مصابي الحرب في العاصمة، سألها إن كانت هي زوجة جاد الحق جاد الله، فأجابت بثقة مؤكدة أن جاد الحق جاد الله ليس زوجها فحسب، إنما هو أمها وأبوها أيضاً، وأنه:

- الأستاذ.

على الأستاذ أن يغادر المشفى، ليس بوسعنا أن نقدم له أكثر من الجبيرة، قالت الممرضة لياسمينة، وكأنما تحكي نيابة عن الطبيب، ولم تكن ياسمينة وولداها ليترددون في دفع كرسيه المتحرك نحو سريره، ومداراة رفع جاد الحق جاد الله من السرير إلى الكرسي، مدحرجين الكرسي، عابرين الممر الطويل للطبقة الثانية في مشفى المجتهد، متجاوزين بحذر الدرج اللولبي، باتجاه ساحةٍ، تغص بضحايا الحرب، القتلى، والمحتضرين، وجرحى الإصابات البليغة، وآخرين من موتى الشيخوخة الفرميين فوق أرضٍ، يعبرها رجالٌ خفاة ممزقو الملابس، فيما المنتحبات يفترشن ليل ساحة المشفى، وكان جاد الحق جاد الله كما لحظة ولادته، يُحدّق بعينين مفتوحتين، يعكسان ضوء القمر، فيما أصوات الرصاص تنبعث من أمكنة، لابدّ وأنها قريبة، والقمر يُفرد كامل إضاءته على المكان كاشفاً تفاصيل دقيقة، لمدينة تأخذ طريقها نحو أن تكون واحدة من المدن المقذرة، وكان يصغي إلى أصوات الذبابات القادمة من دير الغزال، ويجول بعينيه مستحضراً التفاصيل الدقيقة للحظة مولده، وغبار حشيشة الكيف يتسلّل إلى فتحتي أنفه.

فوق كرسيه المدولب، قاوم بشدة استعادته وليداً، بل لم يختر استحضار ذلك الماضي أبداً، وخطوات تلك الأصوات البعيدة التي صرخت، وخفتت، ولا أصابع ياسمينة المضرّجتين بدمه.. دم مخاض أمه.

حين قطعت زمزدة سرّة جاد الحق لحظة ولادته، قطعتها بحجر مُسنن، وهذا ما يمكن ملاحظته من التدقيق في سرّة جاد الحق جاد الله اليوم، فقد برزت على نحو لافت، وكان بوسعه المثابرة على اللعب بسرّته واضعاً

نتوءها ما بين إبهامه وسبابته، ولم يكن قادراً في طفولته المبكّرة على إخفاء هذا التشوه الجسدي، فصبيان دير الغزال - وقد اعتادوا السباحة في بركة قريتهم - كانوا يسبحون عراة بالكامل، وكان وحده يحمل شزة ناتئة على هذا النحو المبالغ به، ولم يكن قادراً على الاشتباك مع نكاتهم البذيئة، ومداعباتهم الشبقة، ولم تكن زمزدة قادرة على حماية طفلها، وقد باتت أماً عزباء، لوليد من امرأة ميتة، كانوا يلقّبونه "ابن الميتة" حتى بعد أن بات له اسم، وكانت له مدرسة، وكانت أحداث حياته في تلك اللحظة تتكلّم من نفسها.

إنها الضبارة، قالت زمزدة لجاد الحق جاد الله فور أن وطأت مدخل الحي فراراً من مجاعة تلّ الغزال، ونظرات ذكوره التي تطاردها، كما فراراً من روايات اللعنة، وقد طاردت ابنها بالتبني، وكانت - وهي تمسك بيد جاد الحق جاد الله - تحمل بيدها الأخرى لفافة كبيرة من القماش، وقد حشتها بذكرياتها التي تضم أقراطها الصغيرة، ومعظمها مصنوع من نوى حب التمر، وأساورها الفضية، وقلائد من صناعة يدها، وكحل عينيها، ومسحوق الحناء، ومن بين ذكرياتها صورة متشقّقة بالأبيض والأسود لفاطمة، لم يكن بالوسع ترميم خطوطها، وقد بدت كما أخاديد أسطوانة غرامافون، وكانت فاطمة مشرقة من وراء أخاديد الصورة، كما حقيقتها، وهو ما لاحظه عزرا يوسف، اليهودي، صاحب مخزن المخطوطات والكتُب المستعملة، عندما ألقت زمزدة روحها بين يديه، راجيةً أن يعطيها فرصة صغيرة لالتقاط خبزها بمنقارها الصغير، فقد بات عليها إطعام زغلولها.

لم يكن عزرا يعرف شيئاً عن أسرار سحَر المغاربة الذين يأتون البلاد، وطلاسمهم التي تحط في أخراج حميرهم الفارهة الضخمة، وهم يتجوّلون باحثين عن كنوز دفينة في جرار ومغاور كهوف مهجورة، ولم يكن كما أشيع عنه يدخر زجاجات تبر، تُحوّل التراب إلى ذهب، ولم يكن صمته عن رد هذه التُهم سوى فسحة أخرى، تضعه تحت عين محيط، يختبره، دون أن ينفد لمراقبيه صبر، وكان عليه أن يتطلّع إلى المتلصصين بشيء من الشفقة، وأن يجيب عن أسئلتهم بما وسعهُ من الاستخفاف بعقولهم، مُركّزاً في الكثير من إجاباته، على مزامير العهد القديم، ومُكرّراً أناشيد على صلة بالهوى، والجنس، واستحضار الجسد؛ ليقول للمتسائلين إن العهد القديم لايحمل شيئاً من جرار الذهب، وإنه محمول على جرار، تقبع في تلافيف المرأة الفاتنة، وأن العِجلَ المقدس، لم يكن قد تجاوز صحراء سيناء نحو عاصمة الأمويين، وكان يُكرّر:

- وحدث في وقتٍ توحم الغنم أنّي رفعتُ عيني، ونظرت في خلم، وإذا الفحول الصاعدة على الغنم مخطّطة ورقطاء ومنمرة.

ثمّ يعيد على مسامعهم جملاً منتقاة من سِفْر التكوين، ومع كلّ سِفْر، كانت الذُّكورة تخلع نعلَيها؛ لتدخل أرضه المقدسة:"طوى".

- معلّم عزرا، كلّ ما أريده أن أرعى هذا اليتيم. قالت له زمرّدة.

حين دقّق عزرا يوسف بعينَي الطفل جاد الحق جاد الله، ثم انحدر بنظراته إلى الأسفل، لاحظ أول ما لاحظ، أن الطفل حافي القدمين، ثم عاد إلى عينَي الطفل مرّة أخرى، وقال لزمرّدة:

- تترك الصفعات في عينَي الإنسان سرّاً، لا يخفى.

- قال ذلك، والتفت إليها مرّة أخرى:

- لو كان له ألف أمّ وأب، سيكون يتيماً، إن لم يرتد حذاء.

قال لها، واتّجه إلى صندوق نقوده مادّاً يده لزمرّدة.

- خذي، اشتري له حذاء، ثم:

- واشتري له بنطالاً بدل هذه الدشداشة الفضفاضة التي يرتديها.

كانت الحرب قد انتهت، ومضى عليها سنون عديدة، ولابدّ أن العرب المهزومين في حرب الثمانية والأربعين، أحالوا جزءاً كبيراً من أسباب هزيمتهم إلى يهود البلدان العربية، وكان عزرا يوسف قرّر في دخيلته الهجرة إلى إسرائيل، كان عازماً على فعل ذلك، ليس استجابة لنداء أرض الميعاد، كما فعل الكثير من يهود سورية والعراق، فالمرجّح أنّ هجرته كانت بدافع الاطمئنان على ابنته آنــا، وتزويجها من شابٍ يهودي، هاجر مع عائلته بعد الحرب بأيام، فيما كانت الهجرة تعني بالنسبة لعزرا قطعاً مع ماضي الأجداد، والتجوّل في متاهة وطن جديد، لايتعدّى كونه وطناً مبنياً بقوة الهاجاناه والسلاح، وجلّ ما كان يأمله من عزاء، هو العثور على يهود روس، يعرفون اللغة العبرية؛ ليترجموا نصوص الروسي تولستوي، وكان عزرا مأخوذاً بالكاتب الروسي، الذي يكشف - بالنسبة إلى عزرا - تلك الغايات السّرّيّة للروح الإنسانية، والتي لا تراها في صور الأجساد المعلّقة في عيادات الأطباء.

- اسمع، يا بني، قال عزرا يوسف لجاد الحق جاد الله:

- إن أعظم ما أنتجته البشرية، لابدّ وأن يكون تولستوي، حين تكبر تذكّر ما يقوله العمّ عزرا.. إن من لم يقرأ تولستوي سيعيش روحاً عاجزة وبائسة، أنا عزرا يوسف، وأنت.. ما اسمك؟

في مخزن عزرا يوسف أكوام من الكُتب والمخطوطات تحيط بالصبي الصغير، وكلّ ما عناه منها روائحها الواخزة المنبعثة من ورقها القديم، كما حبر المطابع مع نكهة الرصاص، وحين امتدت يد الصبي إلى كتاب:" الكامل في التاريخ" لابن الأثير، بدت أصابعه، كما حرير يلامس التاريخ، ولم يرفع يوسف عينيه عن الصبي، غير أنه وبلمسة من يده الكبيرة، أخذ الكتاب فاتحاً صفحة من غير تحديد؛ ليقرأ للصبي:

ليس فيما علمته فيك عيبٌ

كان في الناس غير أنك فان

تساءلت زمزدة إن كان ما يقوله عزرا للصبي شعراً، فأجابها عزرا أن ما يقوله هو:

- جوهر الحياة والموت، يا ابنتي.. هو هكذا.

أجابها عزرا، ونهض؛ ليعيد ترتيب مخطوطات مبعثرة، وعينه على الصبي، ثم التفت إلى زمزدة، ليقول لها:

- لماذا لا تدخلونه المدرسة... ها؟

ما إن سمع الصبي كلمة مدرسة حتى شحب لونه، فقد كانت المدرسة - بالنسبة إليه - مساحة تقع بين جريمتي قتل، كانت الجريمة الأولى مقتل أمه فاطمة، ولابد أن الجريمة الثانية تزحف إليه فور دخوله غرفة الدرس، وكان الوَلي أبو عفار، الشيخ المعلّم، وصاحب الخصيتين الكبيرتين، يلوّح بقضيب الرمان أمام عيني جاد الحق جاد الله، وليس ثمة شك بأنّ جاد الحق جاد الله سمع من صبيان صغار بأن الوَلي الشيخ هو أبوه، وأنه تسلّل من نطفة، من هذا الوسيط الإلهي الذي يفور اللعاب من فمه، وقد عانى من ورم في الخصيتين بعد سنوات من استخدامهما على نحو وحشي.

بقوة الحياة، نظر جاد الحق إلى عزرا راجياً أن:

- لا مدرسة.

نظراته الراجية، ساعدت عزرا على فهم ما يحمله الصغير، ولكن عزرا لم

يكن بالرجل الذي يستسلم للاختيار الأول، فهنالك دائماً زاوية في نفسه، تدفعه لإعادة الاختيار.

- يووه، لو كنت تعرف آنـا، حين ستراها، تنشد، لابد وأن تخطو إلى تعلّم القراءة والكتابة.. بقفزة واحدة، ستكون قارئاً وكاتباً.

بعينين مذهولتين، وقف جاد الحق إلى جانب آنـا ابنة عزرا، وكانت زمزدة تقف وراءه حاضنة إياه بكامل صدرها، غارقةً في الأسئلة، ولم يكن من السهل على الصبي الانتقال نحو هذه الخطوة الواسعة على مدركاته، كما على توقّعات زمزدة:

- بقفزة واحدة، ستكون قارئاً وكاتباً. تردد صوت عزرا، وكأنه يهمس لزمزدة.

كان واضحاً أن آنـا تمارس جُرعة حُب، وهي تعزف البيانو، وكان واضحاً أن الصبي بات على وشك الانتقال من الحُب الفيزيائي الذي يمارسه صبيان قرويون وراء جدران البيادر الهشة، إلى حُبٍ رومانسي كثيف ومبهج.

فقط هنالك قصة حُبٍ واحدة سترافق جاد الحق جاد الله إلى ما تبقّى من حياته، وهو يحتضر في مشفى المجتهد منقولاً على كرسي مدولب بمداراة، تحسباً لكسر جديد تحت وطأة هشاشة عظامه، وهي قصة آنـا هذه، القصة التي منعته من الانزلاق نحو الانتحار ما بعد اجتيازه مرحلة الطفولة وصولاً لأيامه الطويلة اللاحقة.

هي هكذا قصص الحُب، عاصفة تحدث للمرء مرّة واحدة، تدمر ما فيه؛ ليعيش ما تبقّى من حياته، وهو يرتّب خرابه.

عند بدء الدرس الأول، بدت غرفة آنـا شديدة الكثافة والتركيز، سطحها مزيجٌ من لون السماء والأخضر الزيتي والخطوط المذهبة، وقد اتخذت أشكال الزهور، ترافقت مع صفحة مخطوطة، ثبتت في إطار من خشب الجوز فوق بيانو آنـا، لوحة من السهل أن تنزلق إلى ماضٍ مجهول مسجل على هيئة رقى.. ليس بوسع الصبي قراءة حرف من حروف اللوحة، غير أن عطر آنـا، وهو من زهر اليانسون، وكانت تستجلبه من العطّار يوسف الحلاق، ما يزال عالقاً في ذاكرة الصبي، كما بوسعه استحضار صوتها في هذه اللحظة منقولاً فوق كرسيه المدولب، وهو ينفث روائح محتضرين، تمددوا فوق ذات الكرسي الذي تعود ملكيته للمشفى،

وكان صوت آنـا يصله مبحوحاً، متعباً:

أين أذهب من روحك؟.. ومن وجهك أين أهرب؟

إن صعدت إلى السموات، فأنت هناك.. وإن فرشتُ في الهاوية، فها أنت

إن أخذت جناحي الصبح، وسكنت في أقاصي البحر

فهناك - أيضاً - تهديني يدك.. وتمسكني يمينك

فقلت إنَّما الظلمة تغشاني، فإذا الليل يضيء حولي

.. الظلمة - أيضاً - لا تظلم لديك، والليل مثل النهار

إنه المزمور ١٣٩ من مزامير النبي داود، قالت له، ثم:

- هل خبرتَ الحُب، أيها الصبي؟ سألته آنـا.

لم يكن يعي شيئاً مما سمع سوى تلك الرائحة، وقد استولت على مقابض قلبه، كانت أنفاسه تسخن، وكان عطرها يتسلّل إلى عيني الصبي جاد الحق جاد الله.

قرأت آنـا الانبهار في عينيه السوداوين، غير أن عينيه كانتا قد تركّزتا على أصابع البيانو، وهو يستطلع هذا الاختراع العبقري، ولابد أن آنـا وقد عانت طويلاً من الدوار، كانت في اليوم الأخير من أيام الدورة الشهرية، ولهذا فحين دخلت الحمام، وألقت فوطها إلى جانب طشتها سابحة في المياه الساخنة، نادت الصبي؛ كي يناولها منشفتها، إذن؛ ستكون هذه المرة هي الأولى في حياته التي يرى فيها امرأة كاملة، بعريها الكامل، وبشعرها الحريري الطويل، وقد انهار فوق جسدها المشع الأبيض، وبضحكة تنم عن سِحر اكتشافها لعيني الصبي المتسائلتين، وقد قفز من الطفولة إلى المراهقة قفزة واحدة.. تطلّعت إليه بنظرة ماكرة؛ لتقول له:

- علّمتني، يا نور عيوني.. الامتثال، واحتار دليلي.

قالت ذلك في استعادة عبقرية لصوت الشيخ سيد درويش، ومضت تدندن الأغنية مستجيبة لصدى صوتها، متابعة فرك عينيها من رغوة الصابون الحادة.

حين لفّت جسدها، وخرجت، وقد فردت شعرها، تحسس الصبي رائحة جسدها متلمساً بلل المنشفة، وحين انحنت تنفض شعرها، وتجففه

بأصابعها، كانت نثرات المياه تُبلّل وجهه، وحين التفتت إليه مبتسمة، انحنى بعينيه إلى الأسفل، ثم حشرج باكياً.

- لماذا تبكي؟! ما الذي يبكيك؟! سألته آنـا.

ليس من أحد اختبر ذروة اللذة بالكثافة التي وقعت على الصبي، وكانت ذروة مفتاحاً، ربما سيحدد الكثير من خطوط أقداره اللاحقة التي لا يمكن لممحاة الحياة أن تزيلها، خصوصاً وأن آنـا لفته بذراعيها، وكانت سخونة جسدها تمنحه رعشة حسية، ارتفعت حرارته أعقابها، وبعد ذلك، وقع فيما يشبه الغيبوبة، وكان عليه أن ينهض؛ ليوقد عود ثقاب، ويشعل قنديل النحاس، فإيقاد النار محرم في السبت اليهودي، وحين ناولته أعواد الثقاب، كانت أصابعه ترتجف، وأطرافه تبرد، ثم تمدد، وقد طوت ذراعها تحت رأسه، تحكي له قصة حب، ما يتذكره من القصة قوارب بمجاديف، تبحث عن الحبيب في عاصفة بحرية.

- لماذا تبكين؟! سألها جاد الحق.

بدت آنـا، وهي تحكي قصتها نحيلةً، وأميلَ إلى الشحوب، ليس كما حالها، وهي تستحم، وتدلق فوق جسدها بخار الماء، وبالرغم من ذلك، كان من السهل عليه أن يُصغي إلى ارتجافات صوتها وحشرجاته، وإلى حكاية مجاذيف الحب، وكان يتراءى له أن البحر لا يعدو أن يكون بركة ماءٍ كبيرة، محاطة بجياد هرمة، تمتد إلى البادية؛ حيث الحصادون العطاش يملؤون جرارهم، ويسبحون بين ديدان بالغة الصغر، تُعلّق فوق جلودهم، وهم يخرجون مبلّلين بالوحل، وكان يصغي دون أن ينظر إلى عينيها، خوفاً من أن تكتشف أنه لا يعرف البحر، وحين استلقت فوق بطنها، مرر أصابعه على جسدها تاركاً مسافة أمان، بما لا يجعلها تتحسس أصابعه، وحين غفت، تابع الصبي النظر إلى ردفيها بعينين منكستين؛ ليستفيق على صوت زمزدة، وهي تنتزعه من لذة مبكرة، وتقول له:

- هيا بنا، إلى البيت.

كانت زمزدة، ملونة بالأصباغ، وهي ألوان ليست من تلك الألوان التي تزول، فعملها متواضع الأجر في مصابغ القماش، منحها فسحة واسعة؛ لتعود إلى صبيها جاد الحق جاد الله، وبيدها قطعة من الحلوى، وكانت - وهي تمشي إلى جانبه باتجاه بيوت صفيح الصبارة - تتأرجح منهكة في مشيتها؛ لتدخل الحي شاقةً طريقها بين نساء بالغات القسوة، يمضغن

اللبان، وتنفث أجسادهنّ روائح الإعياء وقصص البيوت الراقية، كما روائح الدباغات والمصابغ التي يخدمنّ بها، وعند دخولها الحي لابد وأنها كانت تفزّ من عيون النساء اللواتي يُدقّقنّ النظر فيها متسائلات عن المرأة الغريبة التي اتّخذت من حيهم مسكناً لها.

- خسارة، بنتٌ مثلك خسارة.

كان من الصعب على زمزدة أن تفهم ما الذي تعنيه فرنسا بكلامها هذا، وقد كرّرته لأكثر من مرّة، وفي أكثر من يوم، غير أن فرنسا، وقد لمست برؤوس أصابعها ذراع زمزدة، كرّرت قولها:

- خسارة.

لم تفهم زمزدة ما الذي يدفع بهذه المرأة إلى لمس ذراعها على هذا النحو، وإلى التدقيق في جسدها بهذا الحرص، وحين نزعت ذراعها من كفّ فرنسا، قالت لها:

- ما الذي تريدينه مني؟

أكّدت فرنسا ودون مواربة أنّ الكثير من رجال المدينة وسادتها يحلمون بامرأة على هذا النحو من الرطوبة، وأنهم سيغرقونها بالمال، إن شاءت، مع هؤلاء:

- ترتدين الأبيض، ولا تتسخين بالأصباغ.

قالت لها ذلك، ثم شدّتها نحو بيتها، وكان بابه مفتوحاً على الزقاق.

- اجلسي.. قالت لها.

ثم رفعت عنها فستانها؛ لتقول لها:

- لك ساقان إلهيان.

لم تكد فرنسا ترفع أصابعها عن فخذي زمزدة، حتى كادت زمزدة أن تختنق، كانت قد وهبت جسدها منذ وفاة فاطمة إلى الصبي جاد الحق جاد الله، ولم يكن بوسعها تذكّر جسدها، وقد بات كائناً آخر، يرافقها أشبه بالظلّ، أكثر ممّا هو حقيقة يمكن تلمّسها، هكذا بات جسدها، ليس سوى حامل، ينقلها إلى حيث يمكن النجاة بالصبي من حرائق الموت اليومي الذي يواجهانه في تلّ الغزال، هناك حيث الوَلي الشبق الذي يلقي بثقله على الصبي، حاملاً أرواح موتى، تطفو فوق تفاصيل تلّ الغزال، بما يجعل

شبحه إيقاظاً لموتى، يسبحون بدمائهم وعرائهم؛ ليقود الأحياء إلى انهيار دوافع الحياة، غير أن أصابع فرنسا، وكانت مُحفلة بالأهواء السافلة، أغرقت زمزدة في أعماق هواجس، لم تكن مدركة، ولابد أن فرنسا كانت امرأة ذات سلطان قاهر وسطوة.

- ستكونين ملكة.

كرّرت فرنسا كلامها، كما لو كانت تحفظ جملتها هذه عن ظهر قلب، وكانت فرنسا كالكثيرات ممن عملن في مهنة بيع اللذة، امرأة تحاول استعادة ضائع، كما استعادة مجد خبا بعد مغادرة القوات الفرنسية للبلاد، فمع ارتفاع علم الاستقلال فوق البرلمان السوري، أنزل علم فرنسا، وغادر جنود الاحتلال بمن فيهم الكابتن جوان، الفتى الأشقر، المحفل بشهوات الفرد، تاركاً لفرنسا ذكرى، يؤكد لها فيها أن ثمة حياة ما بعد الموت، وكانت ذكراه تلك، قد صيغت في رسالة، كُتبت باللغة الفرنسية؛ ليختم رسالته بالقول:

- سنلتقي في حياتنا المقبلة.

من الصعب على فرنسا، أن تنتظر حياة مقبلة، فقد بدا لها أنها ستكون من البشر المعقرين، ولم يكن من السهل عليها أن تغادر المتع المحققة بانتظار متع موعودة ومشتهاة، ولهذا فقد أخذت طريقها نحو كرخانة باب الجابية، وهناك اختبرت زبائن، لا يؤجلون مواعيدهم إلى الحياة المقبلة، فكما الدفع فوري، فالمتع ليست من المتع المؤجلة إلى حياة لاحقة أخرى، أما بنات الكرخانة المثقلات بجراحهن؛ فقد افتخرن على الدوام بموت العاطفة، دون خسارة كل ما فيهن من براءة جريحات، كالنات خليطة بائسة.

إن ما حفر في قلب فرنسا، وأرّق حياتها، أن زبوناً عابراً مات فوقها، وكان من نتائج موته أن انحدرت فرنسا من ملكة في سرير غانية، إلى غانية غير مرغوبة، كما ينبغي، بعد أن انتشرت أخبارها وحكاياها بين بيوت الكرخانة، وكلّها حكايا تقول بأن فرنسا قاتلة الرجال، ولابد أن حكايا الخيال قد أضافت الكثير على ميتة الرجل، مما جعل الإضافات تُغرق عالم الغانيات اللواتي بتن شديدات الحذر إزاء رجال، يتدفقون شهوة، ويتحضنون ضد هذا الموت، وهم فوق نساء يتعفن الثرثرة والنفاق، ويتمخضن سكّيرات، معربدات، شاتمات ندب رجال أشبه بالنصوص المدرسية التي تطالب بالنجاة من الخطيئة الأزلية.

قبل أن تنتظر إجابة من زمزدة، مدّت فرنسا يدها إلى عضو جاد الحق جاد الله، فعلت ذلك، وكأنها تتفحص فحولة الصبي، وبلغة لا تخلو من الإغواء، كزرت:

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. هذا الولد مخلوق؛ ليقتل سلالته.

كان جاد الحق جاد الله مستسلماً لأصابع فرنسا، وبدت زمزدة مستسلمة أيضاً، ولم يكن فواز زوج فرنسا، وهو من الرجال الذين يعبثون بتأفلاتهم، ليستطيع أن يخرج من يقينه بأنه متزوج من امرأة مهاجرة في مكانها، وقد لحقت بالكابتن جوان إلى مخبأ ما من متاهات رحلته.

إنها لعنة الاستقلال، كانت تردد، ثم تستغرق في شتائمها المتجهة على الدوام إلى لعبة الأمم التي أخرجت الكابتن من فوق بطنها.

قبل أن تنزع فرنسا يدها عن الصبي، أطلقت ضحكة، كشفت عن سنين في مقدمة فكّها العلوي، سنّ ذهبي، وآخر من النحاس، وقد علاه الزرنيخ الصدئ، ثم سارعت إلى حماية فمها براحة يدها، ومن ثم؛ أزاحت يدها عن فمها؛ لتقول:

- هذا سنّ ذهبي، زرعه الكابتن بفمي، وهذا نحاسي من فواز.. إن أعظم كارثة في حياتي كانت رحيل الفرنسيين.

لم يكن جاد الحق جاد الله يفهم شيئاً مما تقوله فرنسا، غير أنه قرأ ملامح زوجها فواز، كما للغريزة المتقدة أن تعبث بقراءة الوجوه، وحين نهض فواز من مكانه متجهاً إلى بوابة بيته المطلّة على الزقاق، تقدم من الزقاق دون أن ينبس بكلمة واحدة، ثم رشّ الماء فوق التراب، وتابع دلق الماء حتى تسفر الرجال العابرون تحت سيول مائه المسحور الذي يحوّل البشر إلى جماد، ثم توقّف، وانفجر مرسلاً صراخاً وحشياً:

- إنه الاستقلال، يا قحبة.. إنه الاستقلال.

لم يهدأ زوج فرنسا من نوبة مشاعر الاستقلال التي باغتته حين استحضر ذكرى الكابتن، حتى وقف يُنشد:

- حماة الديار عليكم سلام.. أبت أن تذلّ النفوس الكرام.

هذا هو فواز، كلّما يغضب، ينشد النشيد الوطني، قالت فرنسا لزمزدة، وتابعت تحكي وكأن نشيد فواز قد ضمر تحت وطأة التجاهل، همست لزمزدة ناصحة:

- حين كان الكابتن يأتي إلي، كان يكفيه أن يُعلّق قبعته على الباب حتى لايجرؤ أحد على طرق بابنا، أو السؤال عن منْ في الداخل، ولم يكن أحد ليجرؤ حتى أن يمدّ أنفه من ثقب الباب، وكنتُ سعيدة ومنتشية على الدوام. قالت ذلك، ثمّ:

- عليك أن تعلمي أننا نحن القحبات سننتهي تماماً كما تنتهي النساء الشريفات.. القحبات والشريفات يذهبنَ إلى النهاية ذاتها، بفارق أن الشريفات غالباً ما يمتنَ مغتاظات من الموت، إنهنّ يبحث عن ميتة مريحة وقبر أنيق، أما نحن القحبات؛ فتتساوى عندنا القبور، ولهذا قلّما نموت مغتاظات من الموت.. إننا لا نغتاظ من الموت، وحدها الحياة تغيظنا.

- ولكنّ الله يرانا، قالت زمزدة بتردد.

- إنني أنظر إلى هذا العالم، فلا أجد أثراً له، ثمّ إذا كان هنالك إله، فلابد أنني مقبلة على كارثة رهيبة.

قالت فرنسا، وباعدت بين ساقيها مؤكّدة أنه: " إذا كان الله موجوداً، فليحرس هذا الذي بين فخذي"، ثمّ:

- وماذا سيقول لي خالقك، إذا ما قلت له أنه ورطنا في حُبٍ، لاينتهي؟ وبأن حياة الإنسان ما إن تبدأ حتى ينيكها الألم؟

كان لفرنسا، وهي تحكي عن حُبٍ لا ينتهي قلبٌ صغيرٌ وواهٍ، وكانت وهي تتأمل نظرات زمزدة، تتذكر آخر مرة استخدمت قلبها فيها:

- ظننتُ أنه سيعود إلي، غير أنّه لم يَعُد، وكانت هذه آخر رسالة تصلني منه.

قالت ذلك، ثم تلمست صدرها، لتتابع بروح الحكمة:

- على المرأة أن تنتزع قلبها من صدرها، امرأة بلا قلب أفضل من امرأة تحمل هذا الذنب النابح بين أضلاعها.

من الصعب على زمزدة أن تلتقط سوى روح فرنسا المتدحرجة في هذه اللحظة، ولأن فرنسا قادرة على لملمة مشاعر الإحباط، سألت زمزدة:

- ما اسمك قبل أن تصلي إلى حينا؟

- زمزدة، أجابت زمزدة بتردد.

- إذا بقيت تشتغلين في المصبغة، فلابد أن تتحولي إلى خرقة.. لا تضيعي حياتك بالخوف من الله، إنّ من لم تتجرأ على الله، يتجرأ عليها أخس الرجال.. يتجرأ عليها فواز.

ما لم تعرفه زمزدة، وربما اكتشفته متأخرة، أن ما آلت إليه فرنسا، من تجريد نفسها من الطبيعة الخيرة، لم يكن قراراً اتخذته هذه المرأة، كما يبدو من كلامها، فثقة وحدة عانتها المرأة ما بعد رحيل الكابتن، وعلى الرغم من كونها تحاكي المارّة والعابرين، لم تفقد فرنسا وحدتها يوماً، حتى في كرخانة باب الجابية، كانت حريصة على إغلاق منافذ روحها أمام كلّ الزبائن، بمن فيهم القادمون من الأرياف القصية، وهم يبددون ثرواتهم الموروثة، إن قاعدة: لا قُبَل، لا قروصات، ولا بعبصة، التي تمسكت بحبالها طيلة أيام عملها في الكرخانة، كانت تعني لا انجراف وراء رجل، أو بالأحرى (لا شريك)، فالقُبلة تعني الشراكة حتى وإن لم تكن قبلة لذة، أما تلك الممارسات الجسدية اللاحقة، فلا تزيد عن كونها مُجزد ألم. لقد اختبرت الحكمة الممتعة مع الكابتن، وما تبقّى من حياتها الجسدية لم يتجاوز - لاحقاً - حكمة الوجع.

- إنّ رجلاً يعطيك المتعة لابد وأن يستعبدك.. كي لا تصبحي عبدة، لا تدعي رجلاً يوصلك إلى الذروة.

لم تنس وجه فرنسا وهي تتقلب في فراشها تلك الليلة، وكانت وهي تتأمل وتسمع كلام فرنسا، كانت زمزدة تصغي إلى صوت فرنسا القادم من تحت وسادتها، وفرنسا تقول لها:

- إنني بلا حدود.. أنا شيما.

اعتادت فرنسا أن تقدم نفسها على هذا النحو من الخشونة، والصلافة، لا لشيء سوى بهدف استبعاد احتمال أن تُحبّ أحداً، أو تجعل أحداً يُحبها، وكانت كلّما جذفت بالله، وبحضوره، تعود إلى خلوتها؛ لتقول مخاطبة نفسها متيقّنة أن الله غفر لها، وأنها ستغفر له أيضاً، ثم تؤكد ووجهها إلى السماء:

- إننا متعادلان.

وبعد هذا تتفحص بطاقة المعايدة اليتيمة التي وصلتها من الكابتن جان، وقد ألصق عليها طابع بريدي مُزيّن بصورة نابليون بونابرت برداء الإمبراطور، وقبعته، وقد كتب جوان بالفرنسية كلاماً، لم تشأ فرنسا أن

تستعين بأيٍّ من زبائنها لترجمته، تاركةً لخيالها أن يكتب ما يشاء من كلام العشق والغزل، ومن نصوص، ربما ليست هي النص الذي كتبه الكابتن، بما يشي بالتحولات التي كانت تخضع لها فرنسا، وهي تحولات تؤرجحها ما بين الموت حباً، والحياة على أمل نسيان الكابتن، وكان الكابتن يُطلّ بوجهه من بين سطور بطاقة المعايدة، وكانت فرنسا لا ترفع البطاقة المطوية من شق نهديها، سوى لتعيد دسها في فتحة النهدين من جديد، ثم تزحف في أزقّة الحي، تتجول سابحة، كما غيمة وحيدة في أحلام تهطل، فيما رجال الحي يحدقون بها، وهم يفتشون عن طريق مختصرة إلى سروالها.

مرّة واحدة حاولت فرنسا ترجمة بطاقة المعايدة، وكان ذلك عبر إحالة البطاقة إلى زبون متعلّم، ذي حس مرهف، كان يدخل خلسة إلى كرخانة باب الجابية، وحين بدأ الزبون بترجمة بطاقة المعايدة، سأل فرنسا قائلاً:

- هل اسمك آشيما؟

- لا.. اسمي فرنسا.

- إذن؛ لماذا يخاطبك بـ: آشيما"؟

- لا أعرف.

- إن آشيما تعني باللغة الهندية بلا حدود.

- وهل تعرف أنت اللغة الهندية؟

- لا.. ولكنه يقول لك آشيما، ثم يؤكد عليك أن لاتنسي أن اسمك يعني باللغة الهندية:" بلا حدود".

- هل كان يعرف اللغة الهندية؟

- لا أعلم، لم يقل لي إنه يعرفها.. ولكنه كان يقول إنه يعرف الكثير من اللغات، وكان عازماً أن يتعلّم اللغة العربية.

كانت زمزدة على ما يشبه اليقين بأنّ فرنسا، هي الأكثر خوفاً من الله، وأن ما تقوله لا يعدو أن يكون ميزة تتقرب بها السيدة الأربعينية من أذن الله؛ ليسمع، وحين نهضت زمزدة من فراشها؛ لتمشي في غرفتها العارية الضيقة، كانت تسمع وقع خطواتها فوق أرضية الغرفة مصحوباً بصوت فرنسا، وكان جاد الحق جاد الله ينظر من تحت لحافه إلى أمه بالتبني،

وكأنما يراها للمرّة الأولى في حياته، وكان يستحضر مع مشهدها حكاية سفن المجاديف وخيالات العاصفة ووجه آنـا.

حين لحظت زمزدة أنها أيقظت جاد الحق جاد الله بخطواتها وتعثرها، وهي تنهض من فراشها، التفتت إليه:

- نم.. لِمَ أنت صاحٍ؟!

قبل أن يلف جسده بذراعيه الصديقتين، نهضت أصواتٌ كأنها مطارق فوق نحاس تخبط في أذني الصبي، ولم يكن في عمره المبكر هذا قادراً على تمييز سرّ النحيب الآتي من بين أزقّة متعرّجة، كان النحيب يخترق صفائح التوتياء التي تشكّل جدران غرفة سكنه إلى جانب زمزدة، ولم يكن الصبي قد أدرك - بعد - أن الموت هو حصاد الوقت البشري، وأن جميع البشر سيشقّون طريقهم من بين ثنايا الحياة إلى عالم آخر، لا نهائي، لا حدود له، ليس ثمّة ما بعده، وهو ليس نقيضاً للحياة، ولكنه استكمال لها.. كلّ ما عرفه عن الموت كان أحاديث متناثرة، تحكي سيرة أمّه فاطمة، ومن ثمّ؛ ميتة أبيه، وهو يتلوّى فوق قبرها، ولم تكن مجموع الجنازات التي شهدها في قريته تلّ الغزال كافية لالتقاط سرّ الموت، ربّما لأن الموت في تلّ ذاك المكان المنسي كان شحيح الأسئلة، بالنظر إلى الطقوس الاحتفالية التي تُحيد الموت، وتوزّعه على مجموع سكّان، يذرفون دموعهم، مرفقة بالكثير من العويل، ما يجعل الموت مُجرّد طنين في الأذنين، وهو طنينٌ يحجب جوهر السؤال، وهذا ما لا يحقّقه الموت المفرد، لرجل ينهي احتضاره إلى جانب زوجته وطفليه، وحدها الزوجة تنوح؛ ليصل نواحها بيت زمزدة؛ حيث جاد الحق، الصبي القابع تحت لحافه يموج تحت تأثير شعورٍ مضاعف بقشعريرة الوجل.

حين رفع جاد الحق رأسه، ونظر إلى زمزدة سألها بصوت هامس:

- أمي، هل هذا هو صوت البنت التي في زورق المجاديف؟ سأل جاد.

لم تفهم زمزدة سؤال الصبي، غير أنها استعانت بحدسها؛ لتكتشف أن زوارق المجاديف هذه هي زوارق آنـا.. وأن المجاديف مُجرّد حكاية، زرعتها آنـا في رأس تلميذها الصبي.

- نعم.. أجابته زمزدة.. إنها حكاية المجاديف، ثم أوضحت للصبي:

- الإنسان يعيش كي يموت، ثم تنبهت ثانيةً إلى حكاية زوارق

المجاديف:

- كلّنا نحمل المجاديف؛ كي نسبح في هذه الحياة حتى نصل شاطئ الموت.

قالت زمزدة للصبي، وكأنها تحاكي فرنسا، قالتها بالكثير من السخرية، حتى بدت وكأنها تلقي نكتة في رأس الصبي المتسائل، ولم تكد تتأمل ماقالته حتى احتضنت جاد الحق جاد الله؛ لتداعبه محاولة استثارة الضحك فيه عبر ترقيص أصابعها فوق صدره وبطنه وتحت إبطيه، ولم يكن الصبي قادراً على الضحك فيما صوت عويل المرأة الجارة يرتفع ويرتفع راجاً خياله، وحين انطفأ صوت المرأة النائحة، القادم من الخارج، راح الصبي يخلد إلى النوم، مستبدلاً بصوت النائحة ضربات أصابع بيانو آنـا، وبضحكتها المبحوحة، وكانت رائحة صابونها عالقة فوق راحة يده، ولابد أن اشتهاءً غامضاً لآنـا، سحب الصبي من ليل النواح إلى صباح اليوم التالي؛ حيث حي الضبارة يضج بأصوات المغادرين إلى معامل الشركة الخماسية، وبرفوش ومعاول عمال التراحيل، وبعمال مصانع زيت شلهوب، كما بمجموعات أخرى، ربما كانت تشكل الضجيج الأعلى، وهي مجموعات العاملين في تغليف لفائف قمر الدين في الغوطة الشرقية من دمشق، ولابد أن فواز زوج فرنسا، كان منشغلاً بنفخ إطار دراجته الهوائية، وقد باتت تتأرجح فوق حفر الحي وأزقته.

هكذا كان فواز يشغل وقته على الدوام، كان ينفس عجلات دراجته، ثم يعيد نفخها بفمه؛ ليعيد تنفيسها، ومن ثم؛ نفخها، وحين تنقطع أنفاسه، يبدأ بعزف النشيد الوطني، ثم يستلقي في الزقاق؛ لينهض على مضض، ويعيد تنفيس إطارات دراجته، ومن ثم؛ يعيد نفخها بأنفاس جديدة، استجمعها في قيلولة زقاقه، بين عابرات ببطون منتفخة، وتكاثر لا يعرف الملل.

استفاق عزرا يوسف على خدر وثقل في رأسه، وهما ناتج منامات، لها صلة بوساوس الهجرة، ومخاوفه على مصير ابنته آنـا، وكان استيقاظه المبكر، لا يعدو كونه ضرباً من ضروب العادة، غير أنه اليوم وقد شغل ليله بمصير مقتنياته من المخطوطات القديمة، سارع إلى مخزن كتبه بادئاً برفع مخطوطة أثيرة لديه، مكتوبة بريشة خطاط، فجزد لمسها يُثقل ضمير عزرا، وكان يُدرك أنّ تَرْكَها في المخزن، وهجرته إلى إسرائيل لابد وأن تُطلق الأيادي العابثة للّعب بهذه المخطوطة التي تحمل الكثير من النبوءات المتصلة بالقيامة، وهي نبوءات تقوم على معادلات حسابية أقرب إلى عالم اللوغاريتم منها إلى عالم الحساب التقليدي، معادلات تحسب للقمر والشمس والأفلاك، وتخبط المطارق لخطايا بشرية، لابد وأن تفرد صفحاتها تحت قوس محكمة الحق المقدس سرّه.

"إنها عصابة تآلفت بالعِشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على المقدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاويةٌ للحكمة الاعتيادية، والمصلحة الاجتهادية".

كرّر عزرا قراءة هذا المقطع من الكتاب مرات، وفي كلّ مرّة كان يعيد قراءة جملة زارعاً فمه في أذن الصبي جاد الحق جاد الله:

- اسمع، يا بني: "إنّ الرئيس إذا بلغ كماله الأخير فارق هذا الجسم، وهذا العالم، فعلى ظاهر قوله هذا، لم يبقَ في العالم كامل يفيض الكمال، كما أفاضه هذا الرئيس"، هل فهمتَ؟ ستفهم ذات يوم، وان كنتُ أنـا لم أفهمها بعد.

قال للصبي، وكأنما يلقنه درساً، ثم أشار إلى مجموعة حروف مكتوبة باللون الأحمر، كما لو كُتبت؛ لتنتزع عزرا من رماد سؤاله الذي يغطي ذاكرته.

لم يفهم عزرا حقيقة مشاعره تجاه جاد الحق جاد الله، وقد اتَّقدت لهذا الصبي، وكان على ما يشبه اليقين من أنه يحمل مشاعر أمومية لهذا الطفل، وليس مشاعر أبوية، كما درجت عليه طبيعة المشاعر، وقد شقَّت طريقها إلى الإنسان الأزلي، وكان حين يُفكِّر بالهجرة يُدرك خطورة ما سيفعله، كما أمّ تضع في حسبانها أنها ستؤذي ابنها قبل أن يصبح حقيقة، تفخر بها.

- هل تعدني بأن تحافظ على هذا الكنز، يا بني؟

قال عزرا للصبي جاد الحق، ولم ينتظر من جاد الحق جاد الله إجابة، وكلّ ما فعله أنه تأمّل شعلة عيني الصبي وحاجبيه المقطّبين.

- إذن؛ أنت وعدتني، ها؟

قال لجاد الحق جاد الله، ثم أعاد مخطوطته إلى حقيبة المخمل النبيذي، واتجه إلى صدر المخزن، تاركاً جاد الحق جاد الله يقلّب المخطوطات، وكان عزرا قد وقع تحت وطأة خداع بصري، جعله يعتقد بأن للصبي جناحين على جانبيه.

فات عزرا - وعلى الرغم من خياله الوقّاد - أن مجريات اليوم الآخر، ووقائع تلك القيامة المنتظرة، لن تكون شاغلاً لابن الميتة، وأن ابن الميتة هذا، لن يقف مصالباً ذراعيه بانتظار حسابات الفضيلة، أو تلك الحسابات التي تسوق إلى قرار الرذيلة، وأن "أنت وعدتني، ها؟"، لن تكون في ذاكرة الأيام المقبلة لرجل لا يرسم خطوطاً ما بين الخير والشر، أو بين حس العدالة وانسحاق رجل، لا يبحث عنها.

دلف عزرا مغادراً صدر المخزن متجهاً نحو الباب، كان جوزيف تارزيان وصل إلى مخزنه حاملاً كاميرا ثلاثية الأرجل، وقف الصبي أمامها باندهاش.

- إيه، جوزيف، أ لن تحلق لحيتك؟

قال عزرا لجوزيف، وقرأ ملامح وجه جوزيف، وقد زادته اللحية الفضية، والشعر الكث الطويل حزناً، وكان في عمر مبكر على بياض الشعر، أو حتى على جائحة الحزن، وما يزال دون الخامسة والعشرين من العمر.

أشار عزرا بيده إلى جوزيف، طالباً من جوزيف أن يجلس بعد أن رتّب له كرسيه، وكان قد لفت عزرا أن رأى وجهه في المرآة؛ لتبدو المرآة وكأنها

صيغة مجاملة، تُبعد عنه شبح الإحساس بالشيخوخة، ولم يز في شعره المفضض بتسريحته الأنيقة، سوى رسالة تناديه أن يتنبه إلى أسراره الخفية التي ليس ثمة متسع لاكتشافها بغير العين القارئة، تلك التي تميز ما بين عناكب المقابر وروح إنسان تتقد.

لم يجلس جوزيف، كما أشار له عزرا، ولكنه نصب كاميرته في ركن من المكان، ثم قال لعزرا:"سأصورك".

- إلى جانب ابني؟ قال عزرا.

وأشار إلى جاد الحق جاد الله، ثم اقترب منه، وأجلسه على ذات الكرسي التي انتقاها لجوزيف، ووقف وراء جاد الحق جاد الله، وقد وضع راحة يده فوق كتف الصبي المذهول الذي يتطلّع إلى عين الكاميرا، فيما جوزيف يُدخِل رأسه في كيس القماش الأسود.

لم يكن عزرا ليخال أنه سيستسلم للكاميرا، أو حتى أن يعتقد أن الصورة ستظهر، فمجموع صوره السابقة لا تعدو ثلاثة صور أكد فيها على أناقة باذخة، وسلسال ساعة جيبه المفضض يتدلّى من جيب صدرته، فيما نظارته الدائرية تكشف إشعاع عينين فتيتين، دون أن يستخف بوردة عنقه، وها هو يقف اللحظة أمام كاميرا جوزيف تارزيان بسروال الفروسية، وقد انفتح قميصه كاشفاً عن شعر صدر كثيف، وندبة بارزة في العنق.

كانا أمام عين جوزيف، اثنان، صبيٌ خطفته الدهشة والترقّب، وكهلٌ ذو مزاج بالغ الرصانة، لم تخفِ رصانته آثار القلق والقوة الخفية التي يحملها وجهه وسماته المزروعة فيه.

مع بدء العد التنازلي، وكان جوزيف بدأ من الثلاثة وصولاً إلى الواحد، صار الزمن طويلاً، متحفزاً، يحبل بخيالات جديدة للصبي، وما تزال عين الصبي على عين الكاميرا، وهذه صورة جاد الحق جاد الله وعزرا يقف وراءه، ما تزال معلّقة في بيت جاد الحق جاد الله العجوز، وهو لم يزل في ساحة مشفى المجتهد فوق كرسي مدولب بالغ محركوه بالخوف من أن يفقدوا عبقريتهم الفلابة في إسقاطه، وتكسير ما تبقى من عظام جاد الحق جاد الله، وقد أصابها الهشاشة حتى بدت كما رقائق الخبز المحلّى.

كان جوزيف تارزيان على علم بأن جاد الحق جاد الله يتعلّم القراءة والكتابة في كنف آنـا، ولم يكن يُخفي مشاعره تجاه آنـا، وقد التقط لها صوراً عديدة، تعمّد أن يمنحها فيها ظلال القديسين، وليس ثمة شكّ في

أن جوزيف كان واحداً من أفضل مصوري اللقطات الوجهية، بالإضافة إلى المنظر المعماري خصوصاً العمارات الكنسية والبوابات الكبيرة التي تشكل مداخل دمشق. وكان حريصاً أن لا يعرض أياً من صور آنـا في الاستوديو الذي يملكه في منطقة فكتوريا، إيمانـاً منه بأن القداسة لا يجب أن تكون بتداول مخمورين، يحطون ثرثراتهم فوق صور زبائنه الذين كان معظمهم من الضباط والرتباء، وكان من بينهم حسني الزعيم، وأديب الشيشكلي، وسامي الحناوي، وضباط آخرون وصلوا إلى مراتب عسكرية كبيرة، دون أن تنتقل صورهم من واجهة استوديو جوزيف؛ لتعلّق في متحف التاريخ.. كانت صور آنـا تمنحه إشعاعاً، عاهد نفسه أن يُديم قدسيته. وكانت آنـا التي تحتفل اليوم بميلادها الثامن عشر، تجلس على شباك غرفتها في حي الأمين، بانتظار وصول جوزيف، وكان جوزيف مدعواً إلى هذا الاحتفال؛ ليكون مصوّره، وها هو يغادر مخزن الكتب متجهاً إلى بيت عزرا، ومعه جاد الحق جاد الله الصبي، وإلى جانبهما يسير عزرا.

- ألا يتكلم هذا الصبي؟ سأل جوزيف عزرا.

- لا.. إنه قليل الكلام. أجابه عزرا.

- يا الله، قال جوزيف، وصالب فوق صدره.

كان فلسطينيون اتخذوا من بيوت يهود مهاجرين في حي الأمين سكناً هو البديل المؤقّت عن بيوتهم في فلسطين ما بعد النكبة، وكانت جنازة شاب منهم قد خرجت من زقاق ضيق متجهة إلى واحدة من مقابر المدينة التي تحتلّ مساحة واسعة إلى الشرق من منطقة باب شرقي. ولابد أن عزرا وقف بخشوع أمام الجنازة، ولابد - أيضاً - أنه تعثر في الصلاة التي سيؤديها، لا لسبب يتصل باصطدامه بمعتقدات المحيط الإسلامية، بل لأنه اختار معتقداته الذاتية خارج الديانـات الرئيسة الثلاث، اعتقاداً منه أنه قادر على أن يجعل الله تحت سمعه وبصره، كما كان الله قادراً - بدوره - على فعل ذلك، ويردُّ فعل متكافئ.

ما إن تجاوزتهم الجنازة حتى سار الثلاثة خطوات معدودة، وبات ثلاثتهم تحت بصر ونافذة آنـا؛ ليدير عزرا المفتاح في الباب الخشبي المتآكل لداره بالغة العراقة التي ستدلف من بابها إلى ساحة كبيرة، تستحم بالياسمين، وفي مطلق الأحوال، ستصعد بعدها إلى الطابق العلوي؛ حيث سيجلس عزرا فوق كنبة في قيلولة صغيرة، لن تتجاوز الدقائق الخمس، وبعدها يفتح عينيه مدركاً أن قلب ابنته يرقص لجوزيف، فيما نظرات

جوزيف الخجولة لا تكف عن الإعلان عن شغف مصحوب باليأس، لا لأنه قد تلقى صداً من عزرا الأب، بل لأن الصد قد جاءه من عائلته المسيحية - الأرمنية التي تفضل زواجاً أرمنياً - أرمنياً، لا يُنسي سلالة ابنهم وطناً، أضاعته السلطنة العثمانية، كما أضاعت تاجها ما بعد شيخوخة أبوابها العالية، في مجزرة ستلاحق أجيالاً ترث أجيالاً. ولولا إرادة جوزيف وعناده، لما وصل إلى اللحظة التي يضع فيها عينه على عدسة الكاميرا، فعائلة تارزيان، تأبرت على تقاليدها، بما فيها تقاليد توريث المهنة من الآباء إلى الأحفاد، فكان خياطوها هم الأشهر في يريفان الهادئة، التي تستثمر أيما استثمار فحولة ذكورها، وقد حملوا اسم مهنتهم (تارزيان)، تاركين الكثير من دماء المجازر فوق ثيابهم، في رحلة هجرات طويلة هرباً من الموت، وقد طاردتهم السلطنة العثمانية حتى بطون ولاداتهم.

حاول عزرا جاهداً أن لا يعير انتباهاً لآلام جوزيف، فالسماء هطلت أحزاناً رهيبة في قلب هذا الشاب المتعب، والأسئلة المتصلة بالحب، لابد وأنها تعني كشفاً على القلب في عملية، ستقود إلى مضاعفة آلامه، قال عزرا لجوزيف:

- لابد وأن تُصحح الطبيعة طبائعها.

حين بدا الاستغراب على ملامح جوزيف، تابع عزرا:

- كان على الطبيعة أن توقف ثنائية المرأة والرجل.. ذكر - أنثى، كان عليها أن تجعل منهما وحيد خلية.

تساءل جوزيف مُستهجناً:

- نعم، كان عليها فعل ذلك، أو أن تتوقف عن لعبة الموت الذي يُمارس سخريته فينا.

لم ينتظر عزرا تساؤلاً جديداً من جوزيف، فبعد أن صحح جلسته فوق مقعده الهزّاز، قال لجوزيف:

- موت الزوجة يُتم مضاعف، هو موت للابن، وموت للزوج.

قال ذلك، وأشار إلى جاد الحق جاد الله، ثم أشار إلى آنـا:

- اليوم بلغت الثامنة عشر إنني عاتب على أمها آريف أيما عتب، ما كان عليها أن تموت قبل أن تشارك ابنتها ميلادها العشرين.

كان جوزيف، قد فاته التقاط أي صورة لآريف، فحين ماتت، لم يكن قد أصبح مصوراً فوتوغرافياً بعد، كان يتسلّل من محلّ خياطة والده إلى ساحة المرجة متوقّفاً عند ذات الكاميرا التي يحملها اليوم، وكان يتطلّع إليها، كما لو أنها تُخبئ أسرار المدينة المسترخية، غير أنه كان يتوقّع أن تكون آريف كما ابنتها آنـا، ذات العينين السوداوين الواسعتين، والنظرة العبقرية، الكسولة، المتحفزة، الجاذبة، الزعرة، الشهوانية، المتشككة، وكان يعتقد أن آنـا، وهي تلعب معه دور القملة الموقّرة، ليست سوى لبوة في مكان ما من حياتها، وها هي وهي تتقدم حاملة قالب الحلوى على راحة يدها، تغمز لجوزيف، ثم تضع راحة يدها الأخرى فوق رأس الصبي جاد الحق جاد الله؛ ليطرق الصبي، وقد نهشته الغيرة من جوزيف، مطأطأً رأسه، وكأنه يتأمل خرائب أيامه المقبلة.

حين نظرت آنـا إلى جاد الحق جاد الله، اكتشفت شفتيه الكبيرتين وفمه المتسع، واستطلعت خطأ صغيراً فوق شفته العليا يشير بأن الصبي بات على عتبة المراهقة، ولم تلبث أن طلبت من جاد الحق، أن يغني لها habby bairthday to you

- ألا تعرف كيف تغنيها؟ ها.. حسناً، سأعزف لك، وجوزيف سيغني معك.

بين ثالوث الأب والعشيق وآنـا، وقف جاد الحق جاد الله، صامتاً، مستطلعاً فم جوزيف وصفقات عزرا وأصابع آنـا التي تضرب فوق أصابع البيانو، وكان في قرارة نفسه يعرف أنه أكثر من صبي وأقلّ من رجل، وكان اشتد ضيقاً من محبة عزرا، وقد توقّف عن التصفيق، واحتضنه، وهو يُكزز:

- وأنت متى عيد ميلادك؟

كان جاد الحق عاجزاً عن ابتلاع قطعة الحلوى، وتطوّرت نظراته إلى جوزيف، من نظرات غيره إلى نظرات كراهية، وكانت المرة الثانية التي يستشعر فيها الكراهية، بعد كراهيته للشيخ الوسيط، مولانا أبو عمار، والده بالزنى.

كان يقول لنفسه مخاطباً جوزيف: آنـا لي، لا تأخذها، يا ابن الكلب. ثم يفتح فمه، ويعيد إغلاقه محاولاً أن يتكلّم، فإن حصل، وتكلّم، فلابد أن يثير إعجاب جوزيف هذا، ولحظتها سيكمل طريقه؛ ليكون شاباً، وإن كان

يشتهي أن تكون قامته، كما قامة جوزيف، وأن يكون أنيقاً، كما جوزيف، وأن يقف رافعاً أكمام قميصه حتى الكوع، كما يفعل جوزيف، غير أنه - وتحت وطأة انحباس صوته - وجد روحه تحوم في حي الضبارة؛ حيث الرجال، النساء، هياكل العجائز العظمية، والكسل ونقيضه، وكان صحيحاً أن الرذيلة وهي متوجة بذاكرة الخرائب تتجول في أزقّة الحي الموحلة، وليس يعلم الصبي حقيقة الأسرار التي تهمسها فرنسا لزمزدة، وإن كان يعي كمّ الكراهية التي تكنها فرنسا إليه، والتي كلّما رأته، تطلّعت إلى أعضائه، إن كانت قد نمت، مستعجلة عليه الرحيل عن عالم زمزدة، و:

- لماذا لا تدعينه ينام في مخزن معلّمه؟

سمعها جاد الحق تقول هذا لزمزدة، ورآها، وهي تتحسس زمزدة، وتداعب بأشفتها الذابلة ردفيها، وبدأ يشعر أن جسده ينفلق إلى قسمين اثنين، بعد أن غادر شموع ميلاد آنا، مُتسلّلاً يختفي في عتمة ليل حي الأمين، تاركاً عزرا يتخبط في هواجسه.

هذا الولد السائر في عتمة الليل بمفرده، كان يبحث عن طرق الوصول إلى زمزدة أمه بالتبني، والغريب أنه لم يُضِع الطريق إليها، وقد شق خطواته؛ ليسير وراءها دون أدنى جهد يُذكَر.

- كيف وصلت بمفردك؟! قالت له زمزدة.

ثم ضمته إلى صدرها، وهي تبكي:

- سامحني، والله، لم أكن أقصد أن أتأخر عليك، إنها، وأشارت إلى فرنسا.

رغبت زمزدة تلك اللحظة أن تطرد فرنسا من كوخها، واندفعت بذات الرغبة إلى حمل لفافة الملابس وحقيبة اليد التي أهدتها لها فرنسا، وكان فيها فستانٌ مفتوح الصدر، يكشف النهدين، وينتهي بفراشة مفضضة.

- خذيهم. قالت زمزدة.

- إنهم لك، أجابتها فرنسا.

- ولكنني لا أرتدي هذا النوع من الفساتين، أجابت زمزدة.

فتحت زمزدة لفافة الملابس، ونثرت محتوياتها على أرضية الغرفة.

- الله، كانت لي أيام مجيدة، قالت فرنسا ذلك، ثم تطلّعت إلى زمزدة:

- ليس ثمة امرأة واحدة لا تشتهي بأن لا تكون قحبة، أ تفهمين ما أقوله لك؟ والمرأة التي لا تشتهي لا تتجاوز كونها دودة لقاعة، تُقتل هرساً ... خذي الفستان، وارتديه، ودعيني أرى صدرك.

لا أحد من سكان الضبارة يعرف الجذور الفكرية والفلسفية لفرنسا، وبطبيعة الحال، لا أحد يعرف أنها المومس الحمراء، فقد كانت الأقرب للحزب الشيوعي السوري، لولا أن اختطف قلبها ذلك الضابط الفرنسي الشهواني، ثم رحل مع بقايا دولة الانتداب، تاركاً وراءه عشيقة محطّمة.. كلّ ما يعرفه سكان الزفتية أنها سيدة فتح الآفاق، وفاتحة سجون الجسد، وربما ستكون أكبر خسائرها التي سجلتها في أيامها اللاحقة أنها خسرت غموضها الخلاّق، وكان بمثابة حافز لرجال كثيرين، وسبب هذا الفقدان يمكن إحالته إلى اليأس، ولابد أن اليائسين هم أكثر الناس تفريطاً بخصوصياتهم، وبما تجول به أخيلتهم، لا لسبب ما، وإنما لانعدام حوافز الحفاظ على أي شيء، فالغارق سيكون بمأمن من الخوف من البلل.

حين ارتدت زمزدة فستان فرنسا تحت وطأة ضغط فرنسا، ثمة ما تغير في حواسها الخمس، فالملائكة لابد وأن تتطاير حول الألوان الفرحة، وقد تناثرت ورود الفُلّ فوق زمزدة؛ ليؤول فستان فرنسا إليها.

- سألت زمزدة:

- لماذا أسماك والدك فرنسا؟

أطلقت فرنسا ضحكة، بدت، وكأنها تنضح من روح غائرة في القدم، وأجابت:

- أنا من أسميت نفسي.. كان أبي مسحوراً بوالدته، ولهذا أعطاني اسمها... شيخة.

خبأت زمزدة ضحكتها، واستدارت، علّها لا تفضح ماتُخبئه.

- لا.. اضحكي.. من حقك أن تضحكي، تصوري أن يكون اسمي شيخة؟ سأكون شيخة القحبات.

كانت فرنسا على قناعة بأن الجنس البشري هو أحوج ما يكون إلى الآلام، وليس إلى السعادة، وظهرت قناعتها أكثر ما ظهرت، وهي تمسك بيد زمزدة، وتسحبها من الحي باتجاه باب الجابية؛ حيث الكرخانة الأكثر إيثاراً لدى المحقلين بمحاصيل مواسم الحصاد والباحثين عن الأجساد الفاجرة،

ولم تكن زمزدة قادرة على نسيان فعلها الموحش، وقد تركت ابنها بالتبلي جاد الحق جاد الله وحيداً في غرفتها الأكثر فقراً من باقي غرف حي الصفيح وخطام البشر، وقد كان حياً مصنوعاً من بقايا القذى ونفاياتها، وها هي تدخل باب الجابية، دون أن يبدو على بناته أنهنّ من النساء اللواتي يُقمن وزناً للحياة الدنيا.

ولكن الصدمة الأولى التي تلقتها فرنسا، كانت مرجانة، وسبب صدمتها تلك، أن مرجانة، تُكنُّ كراهية فظيعة للجمهورية الفرنسية وقصر الإليزيه، ذلك أنها امرأة طالما أبدت إعجابها بالألمان، وشغفها بسيد الرايخ أدولف هتلر، ولطالما صرخت بالصوت العالي أنها تُحبّ هذا النوع من الرجال، ولم تكن تعرف بالضبط من هو صاحب مبادرة إلقاء القنبلة الذَرّية على هيروشيما، غير أنها أحبت على الدوام أن يظهر هتلر من بين العرب، ويُخرج قنبلة ثانية من معطفه، ويلقيها على اليهود، وكانت تُعلن كراهيتها لفرنسا؛ لأنها تحمل اسم بلد معادٍ لصديقها هتلر، وكانت علّقت صورته بالحجم الكبير فوق سريرها، رافعاً ذراعه، مُستعرضاً قوّاته، وفوق قبعته صليبٌ معكوفٌ، لم تستقم خطوطه بموت خالقه.

حين دخلت فرنسا الشارع الرئيس الذي يقسم باب الجابية إلى شقّين، وهي تسير إلى جانب زمزدة، أخرجت مرجانة رأسها من نافذة غرفتها، وصرخت بصوت مرتفع:

- هيه، فرنسا.. هايل هتلر.. لن تستطيعي هزيمتي، إذا جلبت هذه الدجاجة لمنافستي.

قالت ذلك، وأشارت إلى زمزدة بسبابتها المهتزّة، وتابعت:

- إنها نحيلة.. مسكينة جلدة على عظمة.. أعيديها.. إن عظامها تتكسّر تحت ضغط رجل حميان.

ليلة الكرخانة، كانت شديدة الصمت، أضواءٌ حمراء تنبعث من نوافذ الغرف الصغيرة المغطاة بالشبك المعدني المُثقّب، وبقايا همسات تغيب وتحضر؛ لتغيب ثانية، وليس من زبون واحد يتجوّل في الزقاق، باستثناء رجلٍ واحد، اعتاد زيارة الكرخانة بشكل يومي، ولم يحدث أن انقطعت زياراته، ولو يوماً واحداً، حتى بات من مفردات الزقاق، وواحداً من جامعي سروايل قحباته.

كان هذا الرجل حريصاً أن لا يدخل إلى أيٍّ من غرف البنات المنتظرات

بسأم، وكانت بنات الكرخانة يعرفن على الدوام أنه زبون "أونطا"، يبحث في زوايا الشارع عن عقب سيجارة تاطلي سرت، وعلى الدوام، كان يفضل أن تكون لفيفه مطلية بأحمر شفاه، ولا بد أن هذا المتسكع كان يبحث عن جنس خيال، بعد أن ضقم آلة موسيقية، تزاوج مابين الشبابة والمجوز، تنبعث منها ألحان، تنتجها ثلاثة أنابيب ملتصقة، اثنان منها من القصب، والثالث أنبوب معدني، وكان بعد أن ينهك من المشي، وعينه على النوافذ المضاءة بالأحمر، يجلس على الرصيف، إلى جانب العجوز أم عبد الهادي محمد، يعزف لها ما تطلبه من الأغاني، وكانت أم عبد الهادي محمد شديدة التأثر بمعزوفاته حتى أطلقت عليه اسم أقرب المغنين إلى قلبها كارم محمود، وهو الاسم الذي بات يخرج من أفواه بنات الكرخانة، بمزيج من الشفقة والتبجيل، وكنّ يعرفن أن كارم محمود هذا، ليس من الرجال الذين يتقبلون الهدايا المجانية، ولهذا كففن عن دعواتهن إليه بتجريب الجنس معهن. تاركين الرجل كواحد من مفردات حيهن، وقد جلس على الرصيف، وهو يعلّق فوق جلبابه الطويل مجموعة من الصور لمطربي عصره الاكثر إيثاراً لديه، وأولهم فريد الأطرش، ومنافسه محمد عبد الوهاب، وكانت صورة ليلى مراد واحدة من الصور المتكزرة في أكثر من وضعية، ملصقة في أكثر من مكان فوق صدر كارم محمود هذا.

- ما هذا الرجل؟ تساءلت زمردة.

- هذا كارم محمود. أجابتها فرنسا.

- هذا مجنون؟

- لا.. هذا من أهل الله.

- تقصدين على باب الله؟

- كلّ من يقف على باب الله، يصبح من أهل الله.

أجابتها فرنسا، وتابعت صعود ثلاث درجات، توصل إلى منزل أرضي، بباب مهشم، يؤدي إلى صالة صغيرة، ستؤدي - بدورها - إلى غرفة ضيقة بسرير واسع، وإنارة حمراء كئيمة، ومغسلة مفردة، زُرع تحتها كرسي خشبي صغير أشبه بالكراسي التي تُستخدم في الحمامات المنزلية.

حين التفتت زمردة إلى الكرسي، قالت لها فرنسا:

- يأتينا زبائن قصيرو القامة، وأحيانا يأتي إلينا بعض الأطفال، كي لا

نحملهم إلى المغسلة، خصصنا لهم هذا الكرسي.

لعلّ الزبائن الجهلاء بحقائق سوق الجنس هذا، لم يدركوا مدى الاضطراب الذي يسببونه للبنات، وفي الواقع، كان صلاح واحداً من هؤلاء، وقد وصل توّاً إلى غرفة فرنسا؛ ليختلط شذاه برائحة كريم النعناع، وقد فرك به صدره وظهره وأسفل بطنه، هرباً من آلام مفترسة، تباغت فقرات ظهره صبح مساء.. كان صلاح كعادته، يُبجّل الطبقة العاملة، وكان كعادته - أيضاً - دائم التأكيد على كفاحه لسحب البروليتاريا الرثّة من مواقعها الهامشية في صراع الطبقات؛ لتقود مشروعه القومي المقبل، وقد جمعه في كرّاس مكتوب بخط اليد، وفوق غلافه، ألصق قصاصة مطبوعة: "المنطلقات النظرية لحزب البعث".

جلس صلاح، وقد طوى قبعته، ورفع نظّارته عن عينيه، كان واضحاً أنه يقبع تحت وطأة قلقٍ، لا يقاوم، واستثناء من مجموع زياراته السابقة المتكزرة المنتظمة، لم يبادر إلى الحديث عن الوحدة العربية، والخزنة، وعن التوزيع العادل للثروة، والانقضاض على العائلات الإقطاعية والرأسماليات التي تأكل شقاء العمّال، وعلى غير عادته، وضع كرّاسه تحت فخذه، ولم يستجب لأوامر فرنسا، وهي تكزز:

- اخلع ملابسك.

- ماذا حلّ بك؟ سألته فرنسا.

لاشيء، ثم:

- هذه هي النهاية، إذن؟

- نهاية ماذا؟ سألته فرنسا.

- سينقلون الكرخانة إلى غربي دمشق، إلى الروبين، إن سياسة العزل التي يمارسها الإقطاع لن تتوقّف عند حد، إن إغلاق كرخانة باب الجابية هو تعبير صريح عن تحالف الإقطاع والبورجوازية التابعة العميلة.

- البورجوازية؟ هل هي قحبة مثلي؟ تساءلت فرنسا، وأعادت سؤالها.

- لا.. أنت بروليتاريا رثّة، قال لها، ثم تابع:

- إن قاسم خليل سيأخذكن إلى مبنى الكرخانة الجديد، وسيحيل إدارتها إلى القوّادة نجاح سبح.

بعد سنوات طويلة من عمرها، وقد أمضتها في كرخانة باب الجابية، في هذا الزقاق المتفرع الذي يُدعى سنانية، كان من المباغت أن تسمع من يصفها بـ:"الرثة"؛ لأن المشكلة الكبرى في حياتها كانت على الدوام، تكمن في أرستقراطيتها الروحية، في الكبرياء وخبَث الذات، وفي كونها سيدة الكرخانة عبر زمن طويلٍ، لم يدخل إليها رجل إلا وخلع حذاءه من قدمه.

- ما الذي تقوله؟ تساءلت فرنسا، ثم لوت إلى زمزدة هامسة:

- ربما سيكون سكناً جديداً وحظاً جديداً.

انتشر الخبر في بيوت الكرخانة وغرفها، وربما سيكون هذا هو السبب في أن بنات الكرخانة أخذن يشنقن أصواتهن، وهن يُعلنَّ احتضار زمنهن، ولم يكن من السهل على كارم محمود أن يعيد الحياة إلى ما كانت عليه قبل وصول هذا الخبر وإشاعته في غرف بنات الكرخانة وجلسات بواباتها، رغم معزوفاته بحيويتها الغامضة، وقد جعلت حياة بنات الكرخانة أفضل مما كانت قبل أن يغدو كارم محمود واحداً من معجزات الكرخانة السبع، إذا ما أُضيف كمعجزة إلى صاحب نظرية صراع الطبقات، والبنت الأثيوبية السوداء التي تغدو شقراء ساعة تشاء، والبنت سيباستيان، تلك التي تراهن الرجال على تبليل ملابسهم قبل ملامستها، والمعجزات الثلاث المتبقّية، هي المعجزات الحصرية بفرنسا، باعتبارها معجزة، احتكرت المعجزات المتبقّية الثلاث.

كانت كارولينا قد عرفت بالحدث، وكذلك بريجيت باردو، كما وصلت أنباء الروبير إلى شقراء العرب، وكان وقع الخبر أشدّ مرارة على سيباستيان، التي زحفت إلى غرفتها، ثم استندت إلى الحائط عارية، تقرأ من العهد القديم والنور فضاء، فيما زبون يقف عارياً، وهو يتبخر من شدة الإثارة والشهوة، وقد بلّل نفسه ثلاث مرّات متتالية.

ماعدا تلك الخشية الغامضة التي تشعر بها بنات الكرخانة، لم تكن زمرّدة جاهزةً لتلقّي أيٍّ من المشاعر الأخرى، كانت بلهاء، تنظر إلى ما حولها بالكثير من حس الاستطلاع، وقد خيدت مشاعرها، وتراءى لها أنها تعبر مناماً، مناماً فحسب، ولم تكن فرنسا قادرة على إيقاظها من منامها، أو سحبها باتجاه استحقاقات مصير، سيقود البنات إلى حتفهن، فالكرخانة الجديدة، ستؤثّث ببنات طازجات، بثياب جديدة، ووجوه جديدة، وكانت نجاح سبح، قد وعدت الرأي العام بأنها ستبهر العالم بالتحديثات التي ستضيفها إلى إنجازها الجديد، خصوصاً، وأنها فتحت الباب لبنات تركيات،

وكذلك لبنانيات ومغربيات، وقدّمت حزمة وعود باستيراد بولونيات، كانت السفن قد حملتهن إلى غابات لبنان مضرّجات بشظايا الحرب العالمية الثانية، وبدا أن تنافساً دامياً سيطيح بالمنتجات الوطنية، وقد زُفعت الحماية عنها، وهذا ما تراءى لفرنسا وغيرها من العاملات في كرخانة باب الجابية.

ستعمل لحسابنا. قالت فرنسا، وكان الصبا، قد اشتعل برأس فرنسا على نحو مفاجئ، ولابد أنها استعادت صباها بدافع التحدي، وبتحرير إراداتها من كهولة عمرها، وكان صباها المداهم يتنقّل من أصابع يديها، إلى وجهها المستدير، وقد تحوّل من عابس مُتجعّد إلى وجه مضاء مشرق:

- سنحمي كرخانتنا، قالت فرنسا، سنحميها، وسنتحرّر.

أطلقت صرختها، واتجهت إلى الزّقاق تزقزق:

- اخرجن من غرفكن، يا قحبات، الشّفلّة ينقضون على لحمنا.

كان كارم محمود جالساً على الرصيف، غائصاً في العتمة، وكانت إلى جانبه قطة تدوّر عينيها الصفراوين الناعستين، هابطتين إلى كارم محمود وقدميه العاريتين.

يا له من مكان حقير تعس، قال كارم محمود، ثم اتّجه إلى فرنسا؛ ليمشي أمامها، مُشكلاً إسناداً لها في تظاهرتها الليلية، وهو يعزف، كما لم يعزف من قبل.. بدا كارم محمود، كما لو كان مجموعة اقتحام، وهو يتمايل، ويطلق رئتيه بكامل أهليتهما، مُطلقاً معزوفات حربية بالغة الحماسة والتحدي، ووراءه عشرات القحبات العاريات يرقصن على أنغام مزماره وإيقاعاته الملونة، وكان كارم محمود يمشي بجذع عارٍ، ويرخي شعره حتى أكتافه، ويزنّر خصره بحزام عريض مثل رافعي الأثقال، كان يعزف بكلّ إتقان، وكان يعلم أن قدَر الكرخانة إلى النسيان، غير أنه كان يعزف؛ ليؤخر القدر، لا ليلغيه.

كان يعزف أغنية مصرية صعيدية:

- آه، يا لالي، آه يا لالي.. خليك على كيفك تملّي.

كلّ بنات الكرخانة نزلن من غرفهن، بفن فيهن شروق القمر، وكانت تلتحف شرشفاً تاركة زبوناً عارياً في غرفتها، طاردها طالباً استعادة ماله المهدور، بسبب التظاهرة.

ما الذي يحصل؟ قالت زمزدة.

- ليست بنت سبخ من ستتحكم بأكساسنا. أجابتها فرنسا، وأضافت:

- لو بقي الفرنسيون؛ لأشبعها الكابتن ضرباً على طيزها، وأسقط واحداً من فلقتي قفاها.. أيّ استقلال وطني هذا؟

للمرة الأولى تشهد زمزدة تظاهرة، فقد شقّت فرنسا طريقها من زقاق سنانية، نحو أزقّة متفرعة من باب الجابية باتجاه زقاق الإليانس، وكان كارم محمود يعزف أمامها ألحاناً راقصة، تتنقل ما بين آه يا لالالي، وآه يا لالالي، ولم يصل إلى معزوفة (شال طاقيتو الحرير، ولبس الكشمير)، حتى أوشكت مثانة فرنسا أن تنفجر، ما حدا بها إلى أن ترفع فستانها، وتقرفص، وهي ترشق مياهها عامودياً، شاقّة التراب، مدحرجة مياه مثانتها بين أقدام متظاهرين، نزلوا من بيوتهم متسائلين إن كانت سلطات الانتداب قد عادت ثانية إلى بلادهم وسط أمواج البحر العاتية، ودون شك، كان من بين الهابطين من بيوتهم، إسلاميون، بلحى مشذّبة وشوارب حليقة، وهؤلاء، وان كانوا يتعاطفون مع فرنسا، غير أنهم سيكونون حريصين على التأكيد أنهم ما إن يشقّوا طريقهم إلى الحكم، حتى يمارسوا حدّ الشرع على الزانيات، خصوصاً فرنسا، تلك الملحدة، التي رفعت رأسها بالتزامن مع رفع فستانها إلى السماء؛ لتصرخ مخاطبة الله:

- إذا كنتَ موجوداً، انزل، وخلّصنا من بنت السبخ، ولصوص أجسادنا.. تعال، وألقِ برحمتك على كرخانتنا.

حين كانت فرنسا تهتف، كان الحجر الأبيض المنحوت، قد كسا كرخانة الروبير، وكانت نجاح سبخ تصعد سلالم المبنى الجديد، كما ملكة، وإلى جانبها "تريستا" مدهونة بتوابل الماكياجات الصارخة، وهي تعرف أنها الأكثر قدرة على ترقيص البلاد على إيقاعات كندرتها، وهي تتابع صعودها، متفقّدة غرف الروبير غرفة غرفة؛ لتوزّع اقتراحاتها على نجاح السبخ، وإلى جانبهما، مشى الهلالي، وهو يسجّل الملاحظات، كما لو كانت المجموعة تفتتح معملاً للقنابل الذرّية.

انطفأت تظاهرة فرنسا، وكان من ضحاياها أمّ عبد الهادي محمد، العجوز التي سقطت سقطتها الأخيرة، وهي تحتضر مطلقةً نداء روحها:

- خبأتُ كفني في فراشي.. هو كلّ ثروتي.

أحسّت فرنسا أنه أسقط في يدها، فالروبير بات حقيقة جديدة، لابد من قبولها، كما أحسّت أن هيجانها لن يُلقي بقدميها إلى نهايات خط السباق، ولم يكن قَسَمها بأنها لو جعلت العالم كلّه يقف على عتبة حرب عالمية جديدة، فلن تسمح لبنت سبح بأن تتحكم بمصيرها ومصير بناتها، قَسَماً قابلاً للوفاء به، فقد أدركت - بعد طول عناد - أنه لن يكون بوسعها الوفاء لقَسَمها، وما إن ذبلت وذبل قَسَمها، حتى انجرفت تجز زمزدة وراءها، وهي تحاول استعادة طاقتها الخارقة في إعادة صياغة نفسها، متخفّفة من عبء أثقل وجدانها، وهو إحساسها بأنها مسؤولة عن مصائر بنات كرخانة باب الجابية، البنات اللواتي تعلّمن من فرنسا استحلاب وَهْم اللذة من رجالٍ، سئموا زوجاتهم، وكانت فرنسا مؤمنة بأن كلّ بنتٍ من بنات كرخانة الروبير، سيكون بوسعها قراءة أفكار الزبائن، وهن يُعرّضن خيالات زبائنهنّ لأشعة الشمس الحارقة.

- حسناً.. قولي لي ما الذي تريدينه؟.. قالت فرنسا لزمزدة.

كانت زمزدة كما خصالها على الدوام، صامتة، يُرمِضها السؤال، وكانت تعلم أنها تتجوّل وسط الموت، وأنها تشقّ طريقها في عالم، يوبّخ خطواتها، وهو يعوي عليها كمسعور، وأنها مستسلمة إلى يد فرنسا التي ستأخذ بيدها إلى الروبير.

كانت زمزدة سجينة، ما إن اعتقدت أن حياتها قد ابتدأت حتى تحطّمت على بوّابة الروبير التي لم تكن تعرفها، ولا حتى تعرف عنها شيئاً، وليس بوسعها حتى تخيلها، وكانت مشاعر الجنس أبعد ما تكون عنها، فلم يكن مقصدها من الذهاب إلى باب الجابية برفقة فرنسا ما قبل سقوطه لحساب الروبير، يزيد عن كونه بحثاً عن شغل، تتخلّص فيه من جور أجور المصبغة، وإذا لم تعثر على فرصة أفضل، فلا بأس، بوسعها العودة.

لم يكن الأمر يتعدّى ذلك على الإطلاق، وكلّ ما كان يخنقها، هو أنها وجدت نفسها، وقد آلت إلى وضع، باتت فيه، كما دودة قزّ، تفك عن جسدها خيوط حريرها؛ لتعود ثانية ملفوفة بالخيوط.

حين دخلت زمزدة إلى كوخها في الضبارة، اعتقدت أن الصبي نائم، غير أن جاد الحق كان يتظاهر بالنوم، وهو الذي يفعل ذلك على الدوام، وفي مطلق الأحوال، كان الصبي يفتقد إلى حس الاتصال، مُعوّضاً هذا العيب بأحلام اليقظة، مع مراعاة أنه كان غاضباً من نفسه على الدوام، وهذه واحدة من خصاله التي رافقت حياته، ولم تتبدل تبعاً لاختلاف اليوم

عن البارحة، ودون ريب، فليس ثمة أحد كان قادراً على إدراك هذه الخاصية الفريدة لجاد الحق جاد الله، الذي يجلس - الآن - على كرسيه المدولب في مشفى المجتهد، وهو يبكي بصمت، احتجاجاً على آليات الزمن، وقد دبّت الفوضى في أرواحها، كما يبكي جموع الموتى الذين أدرك عجزهم عن مشاطرته لحظته، وكان يعلم علم اليقين بأنه سيذهب في رحلة الموت منفرداً، دون أن يشاطره أحد حزنه وذاكرته، كما كان يعلم أنْ لن يلبي أحدٌ نداء وحدته، وعندئذ، كان على جاد الحق جاد الله أن يحاول دفع كرسيه المدولب، وكان يثابر على جعل عينيه مفتوحتين حتى اقتنع بأن ما يحدث في البلاد ضربٌ من العنف المتوحش، ما جعله يحاول إغماضهما من جديد، وكأنما يطفئ نار وحشية الحرب، بإغماضهما، وقد باتت الحرب الممر الوحيد لزمن لا أحد سيعرف نحو أي مصير سيقود.

آخر ما كان بوسع جاد الحق جاد الله التسليم به، هو انتقاله إلى الكرسي المدولب، فخيالاته الوقّادة، وقد خسر الكثير من بريقها عبر مرور السنين وتعاقب الأيام، لم تسعفه في استيعاب ضيق الكرسي، وضغط مقبضيه على النحو الذي كانا عليه... ربما كان ذلك بفعل الاهتراء، وسوء صيانة هذا النوع من المعدات في مشفى المجتهد الوطني، وقد فقد الكثير من أهليته أعقاب الحرب في سورية، وكانت الحرب طالت، بالإضافة إلى مُدن وهوامش مُدن، معسكرات الجيش وحواجزه، كما اجتاحت قطاعات واسعة من مرافق وزارة الصحة، بالإضافة إلى المخابز وملاجئ المسنين، وأصابت فيما أصابت مشفى ابن سينا للأمراض العقلية المحاذي للعاصمة، ما جعل مرضاه يهيمون في المعجزة، انتقل بعضهم إلى دمشق، غير عابئ بالقذائف والمفخخات ورشقات الأسلحة الخفيفة المتساقطة عشوائياً، ما جعل اثنين من الهائمين على وجوههم من نزلاء ذاك المشفى، يقبعون في مشفى المجتهد، شاهِدَين على خرائب حظيرتهما، بعد أن استقر بهما المطاف خلف سور هذا المشفى، مشدودين إلى ملابس ممرّضيه وأطبائه، وقد تلطخت بدماء قتلى مجهولين، وجرحى، ربما ستكون نجاتهم مجرد طرفة إلهية تتصل بنسيان، أصاب الله، بعد أن بات إحصاء القتلى أمراً منسياً.

مريضا مشفى الأمراض النفسية، وبنظرات لا تعوزها البلاهة، كانا يُسدّدان النظر إلى جاد الحق، وكأنما يتجولان في أصوات صدره مُصغيين إلى عينيه الدامعتين، فيما بدا كرسيه مشدوداً إلى الإسفلت المبلّل بالسخام والمطر، وكأنه قطعة وثنية، تستدرج اللحظة؛ لتكيل لها الضربة

القاضية.

لم يكن جاد الحق ليشعر بأية آلام، سوى بعض الضيق في تنفسه، وكان منشغلاً بأسئلة لغوية، ليست بالكفاءة اللازمة التي تجعله ينسى كسور ساقه المتصالبة، فانشغاله بسؤال، إذا ما كان الكرسي مذكّراً أم مؤنثاً، كاد أن ينتزعه من ذاكرة الماضي، وقد عادت إلى ما يقارب العقود الثمانية، وكان قد دلف إلى تأكيد أن الكرسي يحتمل الوجهين، تماماً، كما الروح قابلة للتأنيث والتذكير، كما سبق، ولفتته إليه صبية، تتفهم قواعد اللغة.

أريد أن أهاجر إلى إسرائيل، يا آنـا، قال عزرا لابنته، وحين قرأ رفضها في عينيها، وجد نفسه مرغماً على تقديم تبرير لقراره هذا:

- لن أسمح لأحد بعد اليوم بأن يُخرجك من الفصل الدراسي؛ لتقبعي في ساحة المدرسة، وعظامك تطقطق من البرد، حتى تنتهي مادة الديانة الإسلامية!

لابد أن عزرا كان يعلم أن سورية لم تكن بلاداً للفصل العنصري، على ما فيها من تمييز بحق اليهود، فقد كان على علم بالكثير مما يحرزه اليهود من أعمال وثروات بدءاً من تجارة الذهب وصولاً إلى "أبو موسى" البائع المتجول، ذي البشرة البيضاء، والذي كان يحبذ شرب الماء الساخن حين ترتفع حرارة الصيف، ولذلك، ففي حقيقة الأمر، كان عزرا يكذب على ابنته، وكان يعلم أن إسرائيل ستكون مقبرة، ولكنها مقبرةٌ ثمينة، يضطجع فيها موتى، يجمعون ثروات طائلة، ولكنه - في الوقت نفسه - كان سئماً من كونه واحداً من أقلية يهودية تعيش في سورية، مطلوبٌ منها أن تُقدم تبريرات يومية لوجودها على قيد الحياة، أو لوجود أعضاء من جسدها فوق جسدها، وكان يدرك أنه لا شيء هنا، ولن يكون شيئاً، والإنسان اللاشيء لابد وأنه ميت، والمعضلة الكبرى التي لابد واجهته، أنه إذا ما نفّذ قراره، ووصل إسرائيل، فمن المؤكد أنه سيواجه مشكلة جديدة، وهي مشكلة التوافق مع نموذج الدولة الدينية، وهو رجل لا يقبل عالم الله بغاباته وحدائقه.

- إذن؟

ليست دولة الوعد، يا آنـا، أنا أعرف ذلك، وأقدّره كلّ التقدير، فذات يوم، كان اثنان على الصليب، وكان الأول قد قال للثاني إنهما سيلتقيان في الجنة ما بعد الموت، ولكنهما ضلّا، وما حدث بعد صلبهما أنهما افترقا دون أن يكون بوسعهما الالتقاء ثانية؛ لأنه ليس ثمة جنة، أعرف ذلك، وأودّ أن تعرفيه معي، كما أودّ أن أضيف إليك كلاماً، ربما ستسمعينه مني لآخر مرّة:

- ليس هنالك مسيح منتظر.. ثمة واهم ينتظره، هذا كلّ ما في الأمر.

- ما الذي سيأخذك إلى إسرائيل، إذن؟!

سألته آنـا، وهي تغرق بدموعها.

ليس سهلاً على عزرا التصريح بحقائق ما آلت إليه أوضاعه ما بعد موت زوجته آريف، فقد كان طلب من زوجته التحايل على الموت.. العبث معه، مخادعته، لكن آريف ماتت في النهاية، ودفن معها هذا الكوكب الذي عدّه مجرّد جنون مطلق، ومعها دفن آخر إيمان له، بأن ثمة قيمة واحدة، تستحق أن تمنحها نفسك. ومع هذه القناعة التي ترسّخت لديه، كان أهمل كلّ التزاماته المالية، وغرق تحت ديون فظيعة، وهو الباحث عن اللّقى الأثرية، ولم يكن مخزن كتبه سوى غطاء لنشاطاته الآثارية التي أسلمها إلى يهود، فرّوا حاملين كنوزه معهم، وها هو اليوم مُطارَد من شركاء سوريين، مُطالَب بتسديد ما يعجز أي كنز عن تسديده.

كان هذا هو السبب الرئيس في مسعاه للهجرة، وكلّ الأسباب الأخرى لم تكن سوى كذبة.. البحث عن زوج يهودي لابنته كذبة، وكذلك الخوف على أصابع آنـا من أن تطقطق من البرد مطرودة من حضة الديانة الإسلامية، أما تلك الأحاديث التي سمعها من رجال اللاهوت اليهودي، والتي تحضّه على التوقّف عن إيقاد سيجارته أيام السبت، وعلى إنشاد الأناشيد الدينية، فلم تكن لتزيده إلا اشمئزازاً.

- إنهم مجرد حشرات. كان يقول لنفسه، وكان يكتب:

- لن أصلح ما في روحي من الأخطاء، ولن أعمل من أجل خلاصي.

واجه عزرا ما بعد موت زوجته واقعاً صافعاً، حين دفن أسراره معها، ولم يحظ منذ موتها بمن يهمس له، فيما الآخر يصغي دهشاً مفتوناً. وليس الصبي جاد الحق جاد الله سوى ذلك الآخر القادم فجأة إلى مراعي عزرا؛ حيث سيكون بمقدور عزرا نثر أعشابه أمام هذا الصبي؛ ليرعى. وقد منحه نعلاً وبعض النقود، فوبعاً معه، ليس مخطوطات فلسفية، وقراءات فقهية فحسب، وإنما تلك الكتب، بالغة السحر التي خطها يهود مغاربة، طالما جاؤوا إلى المشرق العربي، وهم يصالبون قضبان الرمان، باحثين عن كنوز ذهبية، تركها الرومان في مذكراتهم، وقد أخذت شكل المقابر التي يغرق منقبو الآثار في قراءة أسرارها.

- أين جاد الحق جاد الله؟ سأل ابنته آنـا..

- ما الذي تريده من هذا الصبي؟ أجابته آنـا بروح السؤال الاستنكاري.

- كان عليه أن يأتي.

أجاب عزرا، ثم اتجه إلى خزانة محفورة في جداره، وأخرج ثلاث مخطوطات، وبعد أن تأملها:

- من أجل هذه سُفك دم مئات آلاف الناس.

لم تفهم آنـا ما يقصده الأب عزرا، وهو يشير إلى المخطوطات، غير أنها كانت على شبه قناعة بأن أباها قد لُفح بنار الخرف المبكر، وهو خرف لابد أنه ناتج فرار أمها آريف من الحياة إلى الموت. قال عزرا لآنا:

- كلّما أسرعت في تعليمه القراءة والكتابة، أغلقت عليه بوابات الخلاص.. مع ذلك لابد أن يتعلّم.

قالها بحسرة، وكأنما بدا عازماً على رسم تراجيديا ما يأتي من أيام.

مكثت آنـا على شباكها بانتظار وصول الصبي، وكانت ترسم الأبجدية في خيالها حرفاً وراء حرف، اسمع:

"هذه إصبعي السبابة. إنها تأخذ شكل حرف الألف، أما الباء؛ فهي"، صمتت آنـا قليلاً، ثم زمّت شفتيها؛ لتطلق صوتاً كما انفجار فتكزر، ومع زفير أنفاسها، وقد التصق فمها بفم الصبي، أغلق الصبي عينيه، وقد عبثت بقلبه رائحة آنـا نابضة العروق، ولسوء حظه، أدارت وجهها عنه، كان راغباً أن يطلب منها أن تتنفس حرف الباء في وجهه، وكانت طبيعته، تُكبّل إرادته، كان مرتبطاً بخياله، وخمقه، وعذابه، ولولا هذه العلل المتأصّلة بالصبي الصامت على الدوام، لنطق، وقالها.

كيف السبيل إلى أن يقول، وهو يخشى كلّ شيء، بما في ذلك يخشى صوته؟

حين استدار، وقد ترك آنـا لسؤالها، نزل سلّم غرفتها راكضاً، وحين وقف أمام الباب الخارجي لبيت عزرا، خبط رأسه بالباب مرّات ومرّات، وفي كلّ مرّة، كان الدم ينفر من رأسه؛ لتختلط رائحة دمه برائحة أنفاسها، وكأنما بات دمه مشتقاً من عطرها، مستكملاً تواصله وتجواله، في أقسى علاقة، يمكن للإنسان أن يقيمها مع النفس.

كان عاجزاً عن أن يفرز مخالبه في رغباته، وهو عجزٌ رافقه منذ كان موضع سخرية أطفال تلّ الغزال، بين غمزات تتنقّل من عين إلى عين، مع ما يرافقها من كلام ينال من أمّه فاطمة، وقد ماتت مودعة وليدها فوق ورق حشيشة الكيف، ودمها عالقٌ على جلد وليدها، وقد انقذف من بين فخذيها سابحاً بدمائها. والقمر يتجوّل في عينيه الصغيرتين، وهو عارٍ، متجعّد، تبذل شفته العليا مجهوداً كبيراً، وهو يلحسها بلسانه، والليل يغمر خطوات زمزدة التي تكشف عن ثدييها لإرضاعه حلولاً مكان الأم.

حين وقف جاد الحق يمسح جبينه من دمائه النازفة إثر خبطاته المتلاحقة على بوّابة آنـا، وقد تراءى له أنها لن تفتح ثانية، كانت عائلة فلسطينية قد انتقلت تواً إلى حي الأمين، تحطّ أثاثها في الدار المقابلة لدار عزرا، وكانت رائحة العائلة اليهودية المهاجرة، المالكة الأساسية للدار، ما تزال فيها، وما إن أطلت آنـا بنظراتها الفضيئة باتجاه الزقاق، حتى غادر الصبي جرياً، متجهاً إلى مخزن عزرا.

كانت فكرة المنفي، قد تعززت في روح عزرا، ولم تكن قد أخذت هذا المسار بسبب كونه ينتمي إلى أقلّية يهودية فحسب، وإنما من إيمانه باستقلاله العقلي، وخيانه، ومن وقوعه مزات ومزات في عسر التواصل مع محيط يردد الهتافات، كما أنشودة محفوظة، وكان عزرا يعتقد، أن مجرّد تكيف الفرد مع المحيط، لن يزيد عن كونه هبوطاً نحو العالم الأسفل، فالبشرية - بالنسبة إليه - هي مجموع عبث الطبيعة، وقد صاغتها؛ لتكون جمهوراً من حمقى، أمّا الاعتقاد اليهودي القائل بأن اليهود هم شعب الله المختار؛ فلا يزيد عن كونه مُتكأً نفسياً لتبرير الحماقة، وتزيينها بالوهم الذي لن يصادف مكافأة، يمنحها يَهوه، ولسبب يجهله. كان عزرا على اعتقاد بأن هذا الصبي، وحده، سيكون خضاد أفكاره، وقاطفها، سعياً إلى الجحيم.

"هذا الصبي إمّا عبقري، أو أبله، العباقرة والبلهاء هم من يكتبون تاريخ البشر، وليس السّفلة من العاديين الذين يتكززون، كما أوامر المعدة.. كما الخراء"، قال عزرا لنفسه، وحين وصل جاد الحق جاد الله إلى باب المخزن، متردداً في الدخول، لاحظ آثار دماء متخثرة فوق جبين الصبي، ولم يكن راغباً في أن يسأل الصبي:

- ما هذه؟

كلّ ما فعله عزرا، أن رفع مخطوطة، وناولها إلى الصبي، طالباً منه أن

يقرأ..

- إقرأ. قال له، وتابع:

- أ لم يحن الوقت لتتعلم كيف تقرأ وتكتب؟

أصابع آنـا وأنفاسها، رحلت مع ليالي الصبي ومنامته، والشيء الذي كتمه، كما كتم الكثير من عذاباته، أنه تعلّم كيف يقرأ ويكتب. ربما من الجلسة الثالثة مع آنـا، وكان مع آنـا كما لو كان في جلته، وهو يعلم أنها جنة ستغادره، كان يبدي تكاملاً كاذباً، آملاً في أن تُكرّر له حروف الهجاء، وتهمس أنفاسها في وجهه، ثم تكتب كلمة واحدة، وبعدها بوسع آنـا كتابة جملة مكتملة. هي الجملة التي تحفر في رأس جاد الحق جاد الله الذي يقبع هذه اللحظة فوق كرسيه المدولب:

- أنا المركب بلا مجاديف في عاصفة بحرية هائجة.

حين أخذ المخطوطة من يد عزرا، وتأملها بعيني صقر، رفع نظره نحو عزرا، وبصوت مختنق، باك، كرر:

- بعد أن خلق جلجامش، وأحسن الإله العظيم خلْقه، حباه شمش السماوي بالحسن، وخصّه أدد بالبطولة، جعل الآلهة العظام صورة جلجامش تامة كاملة، كان طوله أحد عشر ذراعاً، وعرض صدره تسعة أشبار، ثلثان منه إله، وثلثه الباقي بشر.

قرأ من كتاب ملحمة جلجامش دون أن يُخطئ، أو يتردد، مع اعتقاده بأنه يواجه عدواً ليس من هذا العالم، عدو على شكل حروف، تتحول إلى كائنات حية، متهمة، جشعة، شهوانية، وكان راغباً بالانعتاق من الكتاب والصراخ بوجه عزرا:

- أريد رائحة آنـا، لا أريد كتبك، ياعزرا.

صفّق عزرا، وما إن وضع الصبي الكتاب من يده حتى استدار عزرا، وناوله كتابين ضخمين، مكتوبين بخط اليد، ليقول للصبي:

- خذهما، إنهما كنز غدك، هل تفهم ما أقوله، يا بني؟

ليس من السهل على عزرا تفهُّم هذا النوع من البشر، فالقفزة الهائلة التي حققها الصبي، وقد تعلّم القراءة والكتابة فيما يشبه الطفرة، بدت - بالنسبة إليه - إعجازاً حقيقياً، وكان مؤمناً بأن هذا الإعجاز ليس سوى

إعجاز يتصف بالجفاف والجدب، باعتباره خطوة أولى نحو انعتاقات لاحقة، ستورق عبقرية كبرى، لابد وأن تجعل من هذا الصبي رجلاً متفوقاً، يسابق قدميه إلى الجحيم، وكان متأكداً أن تعلّم الكتابة والقراءة على النحو الذي خضله الصبي، هو مُجزد مفتاح، ينبئ عن شخصية، تفوق في طاقاتها ما تتسعه شخصية، تنتمي إلى الطبيعة البشرية، وقد ألفناها تأخذ وقتاً طويلاً، لتتعلّم كيف تتهجأ الكلمة، أو تقرؤها.

الدماء العالقة على جبين جاد الحق جاد الله، لفتت عزرا إلى حين، غير أنه كان يتعقد تجاهلها، مُكرراً النظر إلى الصبي، فيما الصبي ينظر إلى السماء عبر فتحة واسعة في سقف المخزن.

- إلى ما تنظر؟ سأل عزرا.

لم يجب الصبي، أو ربما تباطأ في النطق، كان يتسلّل من فتحة سقف المخزن إلى السماء مُكرراً سؤاله الأول حين انزلق من بطن أمه توّاً:

- لماذا لا تتساقط النجوم إلى الأرض كما يتساقط المطر؟

كان هذا سؤاله بدءاً من اللحظة التي انزلق فيها من شجرة عائلة، لاجذور لها.. نعم، كان سؤاله منذ ولادته.. منذ اللحظة الأولى التي وُلد في حقل حشيشها دون أية صرخة، كما بقية البشرية التي تستعين بالصراخ؛ لتثبت وجودها على هذا الكوكب.

- احكِ، ما بك؟ قال عزرا مخاطباً جاد الحق.

- لماذا الله في السماء والشيطان في الأرض؟! سأل الصبي.

رجّ سؤاله رأس عزرا، وهو رجل غارق في أسئلة، تتعلّق في الكيفية التي سيشق طريقه فيها إلى بلاد أخرى:

- لأن التمدد أسهل من الطيران.. الشيطان يحبذ الاسترخاء.. الله أفقي، أما الشيطان؛ فهو شاقولي، يا بني. أجابه عزرا.

كبح الصبي رغبته في متابعة الأسئلة، وبعد تأمل قصير، تذكّر كلام فرنسا، وهي تهمس لزمزدة:

- ستبقين هكذا، حشرةً زاحفة، إذا لم تنفضي جناحيك، وتطيري.. أنا سأعلّمكِ الطيران.

قالت ذلك لزمزدة، وكانت زمزدة مستلقية على بطنها، وكانت فرنسا -

كما شاع عنها - تضبط إنهاكها العصبي على إيقاعات منبعثة من أغانٍ، إيقاعات تمنح شعوراً منتظماً، يهتزّ له خصرها، وهي تفرد ذراعيها؛ ليصاليا جسدها، ثم تدور حول جسدها، كما لو تدور حول محور، ولم تكن تعلّمت طريق خلاصها هذا من أحد، فما تمارسه نبث فطرياً ومستمراً بآن، ولهذا لم تكن لتنتقل في حالات انهياراتها إلاّ وهي تحمل غرامافوناً، ومجموعة أسطوانات منيرة المهدية، الغرامافون الذي تكلّف شراؤه ما يزيد عن استقبال خمسين زبوناً، وما يزيد عن مئة ذروة وارتعاشة، ومع كلّ زبون يرتعش، كانت تسأل:

- بالله عليك، هل تستطيع أن تؤمّن لي غرامافوناً، لم ينيكه رجل؟!

لشدّ ما كانت مندهشة من أن طلبها يبيت إلى جوارها، في غرفة أمّ عبد الهادي محمد، القحبة العريقة التي ماتت في تظاهرات كرخانة باب الجابية عن عمر تجاوز الثمانين، وكانت أمّ عبد الهادي محمد قد فقدت سمعها وجزءاً من بصرها قبل موتها بسنتين، قالت لها أمّ عبد الهادي محمد، قبل موتها بأيام قليلة:"إن هذا الشيطان عندي.. في خزانتي".

لم تكن العجوز الصمّاء وشبه العمياء عاجزة عن سلب فرنسا صرّة نقودها واحتياطي عمرها؛ لتدسه في فراشها، على شكل صرّة ملفوفة بإحكام، غير أن الغرامافون هذا، بات الأب الحقيقي لفرنسا، وقد تشبثت به؛ لتطوّقه بذراعيها، وهي تردّد مع منيرة المهدية و:"أنا لسا نونو في الحبّ نونو.. الحبّ دح دح، والهجر كخ كخاً وانا لسا نونو في الحبّ نونو"، باذلة كلّ جهدها لاصطحاب زمرّدة رقيقة العود إلى الرقص على إيقاعات الأغنية، ومن ثمّ؛ إلى تعلّم الرقص الشرقي، وقد قرّرت في دخيلتها، أن في زمرّدة من كنوز، ما ينافس كرخانة الروبير، وما يهزم بناتها مجتمعات، وهي، أي زمرّدة، ستكون الكهف الأشدّ فتنة من مجموع الغرف المضاءة في مبنى الكرخانة الجديد، الذي تناقلت حكاياته الألسن وحكايات الأسرار.

كانت أخبار الروبير قد انتقلت بتفنن مدروس، يُدخل اليأس إلى روح فرنسا، وكانت البنت شقراء الرشيد، هكذا كان اسمها ممتدّاً في عالم الجواري والحريم، قد انتقلت للعمل فيه، دون أن تقطع زياراتها إلى أكواخ الضبارة، وإلى بيت فرنسا، ومع كلّ زيارة إلى معلّمتها فرنسا، كانت تنقل أخبار نقّاري الخشب، الذين يأتون متسلّلين إلى غرف الروبير، متخطّين الشرطي الحارس، متكتّمين على بطاقات هوياتهم، وكانت حين تتعقد تفجير عتهها، تحكي لفرنسا، عن تلك البنت الفاتنة القادمة من كازابلانكا،

وتشكو لفرنسا، عنق المغربية المكلّل بالذهب المظلم، والتي يهدر زبائنها دموعهم عليه، وقد تملكت البنت ذهنهم ودمهم، دون نسيان شكواها من الفنائم الشخرية التي تنالها البنت المغربية؛ لتؤكد لفرنسا:

- إنهم ضباط كبار، يا فرنسا، وحق الله، إنهم ضباط.. وآغوات بطرابيش.. آغوات بطرابيش، وأكمام مزززة بالذهب.. زبائن هذه القحبة المغربية ليسوا من الفلاحين والبدو لا بسي الدشاديش، كما حالنا في باب الجابية، إنها تتنناك باللغة الفرنسية، وحق الله، إنها تجيب ظهورهم بالفرنساوي، يا فرنسا.

فرنسا التي كشطت عن جسدها ووجهها الكثير من الملامح الأخلاقية، لم تكن لتقاوم قبضة القدر من أن تنجرف وراء لحظات، تبدو الفضيلة فيها، وكأنها ظلٌ لها، فتخت تأثير مأساة موت العجوز أم عبد الهادي محمد؛ تكفلت فرنسا بشراء نصف قبر للعجوز، من وارث دفن نصف والده في هذا القبر، تاركاً نصفه الآخر للذكرى، نعم، لقد بيع نصفه الثاني لحارس المقبرة، الذي باعه - بدوره - لطلبة من كلّية الطب، يتغولون في الجثث المنكوبة دون رحمة؛ لتشتري فرنسا نصف النصف، وفوق ذلك، كانت أشادت صنبور مياه داعية العطاش إلى قراءة الفاتحة على روح المرحومة، بإذنه تعالى، ثم شطبت (بإذنه تعالى)، وكأنها تقزز بالنيابة عن الله، متيقنة أن العجوز اكتسبت الرحمة اكتساباً قطعياً، ومع أن مشاعر ندم انتابتها ما بعد إشادة الصنبور، مضت أبعد من ذلك في التأكيد على نبل مقصدها، فخوفها من الموت في العتمة، أعطاها دافعاً بأن تضيء قبر العجوز بسراج زيت، تتدلى منه فتيلة طويلة، تنفث دخانها فوق فضاءات القبر ناشرةً روائح الزيت المحروق في أنوف موتى، يتحدرون من أصول عائلية مختلفة، دون نسيان المكانة الاجتماعية لأموات، كانوا جزءاً محصنة بين سكان العاصمة.

- حين أموت.. ما الذي ستفعلينه من أجلي، يا زمزدة؟ سألت فرنسا.

كمولودة من جديد، تلمست زمزدة حقيقة أنها سقطت تحت تأثير فرنسا، وكان هوسها في تمليك نفسها أشبه بضربات إزميل فوق خشب، وقد حفر ملامح فرنسا فوق وجه زمزدة.

لم تكن زمزدة تدرك سبب اندفاعها وراء الرقص الصاخب الماجن، ولم تكن لتتوقف عن الرقص، ولم يكن غرامافون فرنسا ليتوقف أمام جوائب رقصة زمزدة، وكان جاد الحق جاد الله الصبي يستند إلى زاوية في الغرفة، وقد بلّل روحه بعاهات شمعة أمه فاطمة، وكانت قبل موتها واحدة

من بنات جنّة مولانا، وقد قتلها بأجلته، ويبدو أن جاد الحق جاد الله، وقد اجتاز الثانية عشرة من العمر، ماكان ليميز بدقّة تلك الرقصة الشائنة لأمه بالتبني، غير أن حدسه العبقري جعله متيقناً، من أن يُتماً جديداً سيحل به، وبلا انقطاع، بات يتأمل لون زمزدة المحروق، وشفتيها القرمزيتين النديّتين، وصدرها، وقد استيقظ على الفوضى، وكان يستكشف حزناً بادياً على وجه فرنسا، بدورها زمزدة قرأت ما قرأ، وحين توقّفت عن الرقص، وانهارت مُدقّقة بملامح فرنسا، قالت لفرنسا:

- لمَ أنت حزينة، يا فرنسا؟

- هكذا أنا.. مريضةٌ بالحزن.

- أبعدي الحزن عن نفسك.

- لو أردتُ إبعاد الحزن عني، فليس ثمّة علاج أفضل من الموت.

هنالك الاف الطرق الرائعة للموت، قال جاد الحق جاد الله، وكان جاد الحق جاد الله صبياً صغيراً على النطق بهذا الكلام المتهوّر، وقد أثار كلامه فرنسا، وجعلها تنهض من مكانها بخفّة رغم بدانتها، وحين اقتربت من عيني الصبي، وشفتيه المكتنزتين، وجدتهما تنطقان، وتكرّران الجملة ذاتها:

- هنالك آلاف الطرق الرائعة للموت.

ليس ثمّة طريقٌ رائع للموت، الموت هو الموت، قالت فرنسا للصبي، ثمّ مدّت أصابعها مداعبة عضوه.

جاد الحق جاد الله، كان نسي طرائق الموت، فلقد ملأت سخونتها البركانية ذاكرته يوم تفحّص بعينيه العاريتين جسد فرنسا، وهي تحكي بصوت خفيض لزمزدة، كيف كان الكابتن الفرنسي يعامل هذا الجسد، وكأنما هو جسد طفلة... ثمّ تلوّن وجهها بالدم، وكأنها تبعث برسالة إلى تلك الأرض كلّها، وهي تتابع:

- لا أحد.. ليس من رجل واحد لا يستحق أن تتبولي عليه، يا زمزدة.

من النادر أن تعثر على سخط بشري في امرأة، كما حال فرنسا، فرنسا المرأة المشرنقة داخل جلدها، والتي طالما رسمت عارها بيدها:

- نعم، لقد تبوّلتُ في أفواه الكثير من زبائني، يغادرون دون أن يغسلوا وجوههم مني.

كررت كلامها على مسامع زمزدة، وكأنها تلقن تلميذتها درساً، عنوانه:

- كيف تنتهك القوة.

هنالك أشياء لم تُمس، الجثث الملقاة وراء المبنى الرئيس لمشفى المجتهد ومشافي أخرى، زادت عن عشرات الجثث، وكانت الهمسات تشير إلى المئات. وكان تم إخراج الكثير منها من غلب المشرحة؛ لتدفن في مقابر جماعية عشوائية بعد استحالة العثور على من يتعرف إليها؛ ليقوم بدفنها كما يليق بموتى، لايشبهون الموتى.

غلب الموتى في مشفى المجتهد الوطني، لم تعد تتسع للمزيد من الجثث، وكان دافعو كرسي جاد الحق جاد الله قد توقفوا دون حراك وهم ينتظرون عبور تلك الشخصية التي لم يتعرفوا على حقيقة مكانتها، كذلك كان الهواء محملاً بلفحات جثث غاضبة.

-لم لا؟ من قال إن الجثث لا يتملكها الغضب؟

كانت الجثث مكتومة الهوية والعائلة، تطلق أنفاساً حارة وغاضبة، تصفع وجه جاد الحق جاد الله العجوز المتكوّر في ساحة مشفى المجتهد، وكان صوت الرجل القادم مع مواكبة من فئات أمن النظام يُردد واثقاً، شرساً، مهتاجاً، أنه سيشنقهم من خصاهم، ناعتاً إياهم، بالخنازير، وأولاد الزنى، دون أن يُحدد على وجه الدقة من هم هؤلاء الذين سيعبث بمصائرهم، ما جعل جاد الحق يعتقد بأن الرجل سيشنق موتى غلُب المشرحة. أما ياسمينة، زوجة جاد الحق جاد الله الباكية على الدوام؛ فلابد أنها راعت أن لا تحرك كرسي زوجها، ولو أنها عملت بمنتهى الحذر على مداراة جبيرة ساقه، وحين انحنت لتقبل جبينه، همست، بصوت متحشرج:

- لا تتركني وحدي.. لا تمت.. بالله عليك، لا تمت.

لم تكد تقول ذلك حتى ارتفع صراخ حارس المشفى، كان جن جنونه، وهو يخاطب ياسمينة:

- دحرجي هذه القمامة من هنا. وأشار إلى جاد الحق جاد الله.

هو قمامة؟! سمع جاد الحق جاد الله من ينعته بهذه الصفة، كان راغباً بأن يشد يد ياسمينة، وهو نادراً ما أمسك بيد كائن حي؛ ليشدها إليه طلباً

للحماية، وكان على يقين من نُبل زوجته، ومن مشاعر الفهد التي ما تزال تملأ روحها، وقد تملّكته يافعاً في حي الضبارة؛ حيث كانت ياسمينة بنتاً صغيرة، حلوة، ماكرة، تحمل في عنقها نجمةً خماسيةً ملوّنةً بألوان خمسة، وخرزة زرقاء، مربوطة بخيط قلب، وكان شعرها أشعث، يلتف على شكل خواتم، ولابد أن النظر إلى عينيها، والتدقيق فيهما، يعطي إحساساً بأنها بنت شرق آسيوية، وكانت واحدة من مجموعة صبيان وبنات، لكلّ منهم اسمٌ صريح، إلاّ هي، فقد كانت تُلقّب بـ (اليتيمة)، وكانت تُقبّل جاد الحق، كما تُقبّل بقية الصبيان، وتتصرّف على سجيتها، ثم تنحدر في دهليز ترابي لاحقة به، وبعدها تتوقّف على باب غرفة زمزدة فاتحةً ذراعيها، ثم تدلف إلى الغرفة.

- دعيه من يدك.

قال لها، وانتزع المخطوطة من يدها.. لم تكن ياسمينة تعرف، ما الذي تعنيه مخطوطة عزرا بالنسبة إلى جاد الحق، كما لم تكن تعلم أن جاد الحق جاد الله مولعٌ بالصمت، ولكنها كانت تحمل إليه كلّ ما يتصل بعربون الصداقة:" خبز مُحلّى، سمكة مقلية، حبات شوكولا من أفخر أنواع الشوكولا"، وهي - بمجملها - مسروقات، كانت تُخبئها مُتسلّلة من منزل مخدومها في منطقة الجسر الأبيض، وكانت تقول له:

- كُل.. هذه سمكة مقلية.

ما سجلت ذاكرته، أنه اشتهى ياسمينة، وكان على دراية كاملة بأنها لن تجد في هذا العالم من سيلاحظ وجودها سواه هو، لكن تلك المعتوهة، وبعد أن تحسست نفوراً في صدرها على شكل ثمرتين صغيرتين، انبعثت منها رائحة الباكم باودر إثر الخجل الذي أصابها، وربما كانت هذه الرائحة قد استوطنت جسدها، كنتيجة لا ستمرارها في سرقة حلويات مشغّليها التي تؤول إلى فم جاد الحق جاد الله، وكان جاد الحق يصل إلى درجة الغليان كلّما لامس جسدها، ثم لا يلبث أن يداعب خيط قلب عنقها، وقد انفتحت شهيته على التهامها.

- لماذا تبكي؟ قالت له.

ثم:

- سأبكي معك، واسترسلت دون أن تنتظر منه إجابة، وبكت.

في ذلك اليوم، كانت نتائج امتحانات السرتفيكا قد أعلنت، وكان اسم جاد الحق جاد الله، من بين الناجحين، وكانت ياسمينة، تصعد إلى السطح، مُتسلقةً سلماً خشبياً متهتكاً، وهي تكشف عن فخذيها، وكانت تمنح جاد الحق جاد الله انحرافه الخاص، وهو ينظر إليها، في الوقت الذي يتتبعه فواز زوج فرنسا بعينيه، جالساً القرفصاء في الزقاق، منتظراً ما لن يأتي، باحثاً عنيداً عن زوجته، وهو يحتسي الخمرة، ويُكرّر إنشاد النشيد الوطني السوري، ومن ثم، يخاطب نفسه:

- متى ستعود؟

ماحصل أن فرنسا التحقت قسراً بكرخانة الروبين، ولم يكن التحاقها هذا سوى إذعان لأمر واقعٍ جديد، حلّ بحياتها، فقد أدركت بعد تأملات طويلة، أن صعود الأشجار الضخمة، أفضل بكثير من زرع غراس قزمة، وكانت التحقت بكرخانة الروبين، حاملةً فوق أكتافها رهانها على الحضور الأخاذ لزمزدة، وعلى الغرامافون، وقد حملته من بيتها إلى غرفتها في ملحق الروبين، وانطلقت مع زمزدة بدروس، تبدأ مع بزوغ زمزدة من الحمّام، حتى التبرّج ورش مساحيق البودرة تحت الإبطين وبين الساقين، ومن ثم، الظهور نصف مغطاة، بساقين عاريين، وجوارب بأربطة، وروائح قيلولة الظهيرة تنتشر في حقول كرخانة الروبين، وفوق شراشف غرفها.

لم تكن فرنسا تتساءل، ولو من باب الفضول، إن كانت زمزدة ما تزال بكراً أم لا، ولم تكن زمردة قد تعرفت على الجنس، سوى من خلال النظر إلى ممارسات حيوانية، هي الممارسات التي تختزنها ذاكرتها المبكرة من ريف قصي، تمنح فيه الحيوانات هداياها المعرفية للإنسان، عبر ممارسات جنسية علنية، لا مكان فيها لمفاهيم الرذيلة، والفضيلة، والعار، غير أن زمزدة - وقد باتت في كرخانة الروبين، وبات لها غرفة فيها بالشراكة مع فرنسا - أدركت بأن الأوان قد آن لتسأل فرنسا عما ستفعله حين سيأتي زبونها الأول.

قالت لها فرنسا، بوضوح:

- أنت كنزي، يا زمزدة.

وما إن صمتت للحظات حتى استدركت واستدرجت حكمتها:

- ليكون الرجل تحت مشيئتك.. أي رجل، لا يجب أن تبدين مُستحيلة، ولا أن تبدين ممكنة، عليك أن تكوني المستحيل الممكن.

المستحيل الممكن؟! لم تفهم زمزدة ما الذي تعنيه فرنسا بكلامها هذا، غير أنها كرّرت الجملة أكثر من مرّة؛ لتحفظها عن ظهر قلب، كما لو كانت تحفظ درساً.. المستحيل الممكن.

وهي تصعد سلالم الجزء الثاني من مبنى الروبير، والمخصص للبنات اللواتي يُطلق عليهن بنات "اللوج"، اقتحمت فرنسا غرفة نجاح سبح، وحين دخلت وهي تلوّح بيدها اليمنى مثبتة يسراها فوق خاصرتها، صرخت بسبح:

- إنني أحتفظ بالكنز.. نعم، إنهن كلّهن.. كلّ بناتك مجرّد قذارة.. خرا.

الآن، بات على نجاح سبح، المرأة الأشهر في عالم القوادة، أن توضح حقيقة موقفها. فهي وإن كانت من أولى القوادات وأكثرهن شهرة، غير أنها كانت قادرة أن تمتص كالإسفنج آلام حشد كبير من البنات اللواتي يعملن تحت إدارتها، وكانت - بالإضافة إلى ذلك - لا تخلو من ضمير يقظ، يُجنبها الغضب، وهي التي تتدفق غضباً بمواجهة رجال كبار من أثرياء وأعلام سياسة، ووزراء، داوموا على تجنب البوح بمعرفتهم بها، بمواجهة الرأي العام مدارين سمعتهم، وحين نهضت نصف نائمة من فراشها، وهي تنظر بعينين متسائلتين إلى فرنسا، قالت لها فرنسا:

- أريد أن تكون غرفتي في اللوج.. نعم.. في اللوج.

كلّ بنات الروبير يقفن باستعداد وإجلال أمام سبح، وحدها فرنسا، دخلت حاضرة سبح، وكأنها عازمة على دخول دهليز، ليست متخوفة من أن تتحطم في جوفه، أجابتها سبح، وكانت تتثاءب وتعوم في فراشها:

- لم أفهم..

- أريد أن تكون غرفتي في اللوج.

قبل أن تمضي سبح في المزيد من الاستفسارات، قالت لها فرنسا:

عندي ماستان عظيمتان، البنت زمزدة والغرامافون.

- غرامافون.. هل هو وزير؟! قالت سبح ساخرة.

- لا.. إنه.. ماذا أقول لك؟ كيف سأشرح الأمر؟

وكأنها تغور في الوحل، فضّلت فرنسا أن تترجم الكلمة بالحركة، وبرمشة عين، كانت تتراقص أمام نجاح سبح، وهي تُردد أغنية مثيرة

المهدية:

- أوعى تكلّمني بابا جاي ورايا.. ياخد بالو مني يزعل ويايا.

كان الإخفاق بالنسبة إلى فرنسا منفذاً واسعاً للخزلة، وكذلك اليأس، وكذا لم تكن أفكارها لتحيرها أبداً، فما تعتزم فعله، كانت تفعله، فقوة اليأس، وتراكم الخيبة، لابد وأن يُحيل المرء إلى المجازفة باللعب مع مضادات روحه.

بحدسها وخبرتها تفهمت نجاح سبح طبيعة فرنسا، ما حدا بها إلى تقبل هذا النوع من السلوك المستهتر لواحدة من ملكات الكرخانات المخلوعات عن عروشهن، غير أنها - وبنوع من الهرب من التسليم لفرنسا - سألتها:

- الغرامافون، وعرفناه.. ماذا عن زمردة؟!

- إنها بكر.. ما تزال بنتاً بكراً.. رددت فرنسا، كما لو أنها تعرض بضاعة نادرة.

- حسناً، اجلبي أغراضك، وتعالي إلى الموج.

إنها الليلة الأولى التي ستبيتها زمردة خارج كوخها في الضبارة، تاركة الصبي جالساً في غرفتها، مسنداً ظهره إلى الحائط، تاركاً فتحة في الباب، تنبهه بحركة أقدام المارين الذين توحد مشيتهم أحذية بلاستيكية، مصنوعة من لدائن ملونة، كما لو كانت كرنفال ألوان، ولابد أن سمعه المفتوح على الزقاق، كان يتلقى أصوات رجال مخمورين، يكرعون عرقاً بلدياً في خمارة جبرا، جبرا الكهل العازب، القادر - بالإضافة إلى إدارة خمارته - على غرز حقن البنسلين في مؤخرات رجال ونساء أكثر عرضة لالتهاب اللوز من بقية سكان البلاد، ومع كل غرزة إبرة، ثمة بنطال ينزل كاشفاً مؤخرة، ومع كل الإبر اللاحقة، يرفع تنانير نساء، يفركهن بسبابته، ومن ثم؛ براحة يده، وبعدها بالقطن الطبي المبلّل بالعرق، منتظراً نشوة سُكْر مؤخرات، لا تلبث أن تستلقي، فيما الأزواج يمكثون جالسين في خمارته، وقد أغلق عليهم بابها، برتاج حديدي متعدد الأقفال، خوفاً من هربهم فراراً من تسديد مستحقات الخمارة، تاركاً زبائنه يتأرجحون ثملين، إلى أن يعود إليهم فاتحاً الأقفال، وممعناً في تزرير بنطاله، لا يُكدر طريق عودته منظر الأطفال اللاهين، الذين يكاد يعتقد بأن معظمهم من صلبه، فيما آباؤهم الافتراضيون، يدقّون كؤوس العرق، وقناني بيرة ماكس، مطلقين مواويل ريفية، تطرق سمع جاد الحق جاد الله الصبي، وهو مستند

إلى الجدار، يصغي إلى نغمات بيانو آنـا، وكأن معزوفاتها مطبوعة في ذاكرته، قطعة قطعة، وحركة حركة؛ لتأخذه نحو عالم آخر بفرسانه ومشاته، وتسحبه من محنة العقل وتداعيات هروب انـا مع أبيها، ولم يكن يعلم حينها أنهما اتخذا طريقهما إلى إسرائيل.

كان يصغي إلى أصابعها، وهي تعزف شهرزاد، ليوهان سباستيان باخ، وكأنه يحتضر تحت موجة من الشخر والأضاليل، ولم يكن قادراً أن يروي لنفسه تاريخ الحكاية، ولم يكن قادراً أن يعرف - بالتحديد - متى انفصل عن نفسه بانفصاله عن بنت عزرا اليهودي، وكلّ ما كان يعرفه، أن عزرا أبلغه بكلمات رجلٍ لرجل:

- يا بني، كلّ ما عليك فعله، أن تفتح ممراتك بيديك.. لقد غدوت رجلاً.. أنت رجل مكتمل الرجولة .. هل تفهم؟ لقد غدوت رجلاً.

كان صوت عزرا حاضراً برفقة بيانو انـا، وكان صوت مواويل الهامشيين، الجالسين، المخمورين، يتسلّل من الخمارة إلى الزقاق، يقطع روحه، ويقضمه قطعةً قطعة، وكان عليه أن يفز خارجاً من جحيم أصواتهم، تاركاً فواز زوج فرنسا، يترنح مكرراً:

- وحق سميك النبي محمد، يا جبرا؛ لألحق بالكابتن جان إلى باريس، وأقتله.

- سميي، يا حمار؟ أنا اسمي جبرا، يا عرص، وليس محمد.

كان فواز المدلوق، يقف ضاماً راحتيه فوق فمه، تاركاً منفذاً للهواء، وبعدها، يعزف بفمه النشيد الوطني، وكأنما باستحضاره لهذا النشيد، يعيد رتق نسيج حياته الممزق، نعم، كان ينشد، كما لو أنه يرتقي إلى مصاف أولئك الرجال الذين طردوا فرنسا من بلادهم، كان يعزف إمعاناً في الثأر من الكابتن جوان الذي تذوب به فرنسا، ما جعل النشيد الوطني رقعة في ثوب حي الصفيح هذا ما بعد تكراره مئات المرات، مبثوثاً من فم فواز المدلوق، متحدياً بفمه غرامافون فرنسا، كما متحدياً أغنيات كانت تستوطن برامج إذاعية مخصصة لبيوت بورجوازية، تترنح صالوناتها على صوت محمد عبد الوهاب، كدمى متحركة، بلا أية مباهج يمكن أن تذكر.

- من قال إن خمارة جبرا هي وطن للموتى؟!

بشر يندفعون، ويبيتون في الثمالة، وحالما يعاودون الثمالة ثانيةً،

تتعالى أصواتهم باللعنات، والخب، والبصاق، وهم يلوّحون بأيديهم راقصين بأقدام عارية، يابسة، متشققة، والمؤكد أن ليس ثمة تبغ يتدفّق على مكان في العالم، بمقدار ما يتدفّق إلى خمارتهم، وهذا ما دفع جبرا، لأن يمدّ يده بلفافة تبغ، وهو يقول للصبي جاد الحق جاد الله، وقد استوقفه على باب الخمارة:

- خذ، إنّها آخر قطفة وصلتني من حقول فيرجينيا.. دخن.

قال ذلك لجاد بعد أن استوقفه فاتحاً ذراعيه، قاطعاً الطريق على مروره، وكان الصبي، يقرأ النوايا السيئة، وما يبيته جبرا من حقى لزمزدة، وكان قد أبلغها أنه:

- وحق الله، يا زمزدة، سيأتي يوم أحققك، بالغزق.

وحين تملّصت من بين يديه، تركها واثقاً من أنها ستنفذ قسمه طائعة، فـ:

- لن تتركيني أقف بين يدي الله قبل أن أنفذ قسمي.

كان جبرا قادراً على اكتشاف مكنون أيّة نفس بشرية، فبقلبه المضطرب، وروحه الممزّقة، والصورة الجامحة لرجل خليط من أم شقراء وأب متفخم، كان نشرة ليلية لكل سكّان الصفيح هذا، وكان بإمكان جميع نساء الحي الاعتراف بأنهنّ كنّ شديدي السذاجة حين خلعنَ له كلاسينهنّ على الواقف.. ولم يحدث أن اعترفت واحدة منهنّ أنها استلقت ولو لمرّة واحدة تحته.. كان رجلاً بالغ النزق، سريع الفرار من نفسه. كل ذلك لا يغير حقيقة أنه بات يخبو تحت إشعاع زمزدة التي أوقدت روح رجل عاشق مؤجّل، فما إن رأى الصبي ابن زمزدة بالتبني حتى استوقفه؛ ليقول له:

- ما بك؟ خذ، دخن، سمعتُ أنك نلت شهادة السرتفيكا.. عظيم بعد ست سنوات تأخذ البكالوريا، وتتطوّع في الجيش؛ لتصبح ضابطاً بنجمة، وسأقول لك سيدي الملازم، وستحرز لنا فلسطين، وتستعيد اللواء السليب أيضاً.

كان جبرا يعلم تمام العلم، أن خمسينيات سورية، لم تفتح بوابات جيشها لضباط العائلات الفقيرة، وأن بوابات الكلّية الحربية لم تفتح سوى لما لا يزيد عن خمسين عائلة، من عائلات الإقطاع والآغوات وبورجوازية الفُذن، وكان يعلم أن خبط بوّابة هذه العائلات لابد وأن يكون بتدخّل

مباشر من الله، أو بمكيدة من الشيطان، فمن تسلّل إلى الكلّية الحربية من أبناء العائلات الفقيرة، كأنما تسلّل من فوهات لهب، ونجى، ومع ذلك، كرّر جبرا للصبي مداعباً:

- دخّن، سيدي الملازم، دخّن.

تناول الصبي سيجارة جبرا الموقدة، وسحب نفساً عميقاً، ثم نفساً ثانياً، ونفث من منخريه كفاً هائلاً من الدخان، وكان يداعب دخانه بنظراته، وهو يدور حول محوره، وسط حريق سيجارته، ونظرات السكارى تحتفل لمنظره، وهو يترنّح في ليل المجاهل، مغادراً حي الضبارة إلى حيث تجزه قدماه، كما لو أنه ذاهب إلى صدفة.

دون إرادة منه، وجد نفسه يطوف حول منزل عزرا، ممتضاً حشداً كبيراً من المشاعر، وحين جثا تحت نافذة آنـا، كان سكّان البيت الجُدد، المقابل لمنزل عزرا، يرفعون صوت مذياعهم على آخره، وكان راديو الشرق الأدنى من لندن، يبث نبأ تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس، وسط ليل صامت، قطع صمته صوت بنت مُعاقة، كانت تطلق بكاءً حاداً، لا شفقة فيه، ولا رحمة.

وحده فواز المدلوق، كان يُهلّل لجمال عبد الناصر، وكان يمنح بركته للزعيم الجذّاب مُعتبراً أن هذا الضابط الثائر على الإنكليز والملكية، سيأخذ بثأره من الكابتن جوان، الفرنسي الذي أودع قبعته ومداعبات أصابعه فوق جسد زوجته فرنسا، ولهذا السبب، ومدفوعاً بالثأر من الفرنسيين، حفظ عن ظهر قلب خطاب عبد الناصر، وقد أعلن فيه تأميم قناة السويس، وكان وهو يُردّد الخطاب باللهجة المصرية يخاطب العرب، كلّ العرب، مُحضناً ثقته بأن انتصار هذا الرجل، سيكون بالنسبة إليه موعداً مع ولادته الحقيقية، وكان أن بالغ في شرب البراندي، ودلق القناني فوق صدره ووجهه، مُطلقاً عبارات احتفالية بديلاً عن الأسهم النارية التي كان يمكن أن تكون تعبيراً أكثر سمواً من تعبيرات أنغام فمه، وقد اعتقد أنها ستزيل مهزلة عشق زوجته للضابط الفرنسي.

- ما الذي تبحث عنه؟ سأله جبرا.

- لا شيء.. كلّ ما أريده هو أن يتابع الله مشيئته، ويُنكّس أعلام الفرنسيين واليهود.

قال ذلك، وغادر الخمارة، مُتجهاً إلى منطقة موحلة من الحي، وكان

يُردّد بصوت مرتفع:

- من يرى منكم جمال عبد الناصر، فليقل له إنني سأحارب معه.

ثم يتوقّف؛ ليقول بصوت أخفض:

- ومن يرى منكم فرنسا، فليقل لها:

- سأنسيها حليب أمّها.. حين ينهزم الفرنسيون في السويس، سأكون بعد هزيمتهم وحيداً معها.

"ستكون وحيداً معها"، قال له جبرا، وتابع مطمئناً:

- سوف يكون ذلك، وسوف تهمس لها بكلّ الكلمات القذرة التي تحملها رياح بطنك.. فساء، مثل أمّك.

ما من شك، في أن قرار تأميم قناة السويس، خلق انفراجات في وجه فواز زوج فرنسا، فالقرار وقد بدا وخزة حادة في قلب زوجته، أثلج صدره، أقلّه تبعاً للرغبات التي راجت، وانتقلت محمولةً على شفاه زبائن خمارة جبرا، والتي كانت تتوقّع هزيمة عظيمة لإسرائيل، وتحدّياً لحليفتها الجمهورية الفرنسية، وكان فواز على ثقة بأن هزيمة الفرنسيين في قناة السويس، تعني طرد بقايا الكابتن الفرنسي من ذاكرة زوجته، وبالتالي استعادتها إلى فراشه، وهي قناعة عزّزها جبرا، إمبراطور الخمارة، والرجل الذي يعرف الكثير من أسرار لعبة الأمم، مضافاً إلى أسرار عميقة أخرى، من بينها أسرار اللعب مع السلاحف البحرية، وقد جلب هيكلاً عظمياً ضخماً لسلحفاة، ادعى أنها أقلّته بحراً من شواطئ ايطاليا إلى الساحل السوري، وكذا السلاحف البرّية الصغيرة، وكان يجمعها من أزقّة الصبارة، ثمّ يطهوها، ويقدمها مع المازا لزبائن خمارته، ولابد أن تحليلاته لقرار تأميم القناة، وقراءته لصوت جمال عبد الناصر، وهو يخطب في الأمة، أضاف عزيمة عظيمة لفواز، ما جعله يخرج من قلب العتمة؛ ليتخذ طريقه من بين البساتين الغربية لدمشق العاصمة، متجهاً إلى حدودها الغربية، قاطعاً مسافة طويلة بين بساتين الصبار، وأشباح الأزقّة الترابية المقفرة، وصولاً إلى كرخانة الروبير؛ ليقف أمام بواباتها، وهو يصرخ، مبتسماً بسمةً فتية:

- راحت عليك، يا فرنسا.. حتى ديغول لن ينقذك مني.

كان لحم فرنسا قد بات لدناً، مُترهلاً، مطبوخاً في قدور مئات الرجال، ولم يكن قد تبقّى من زبائن أمسها سوى صالح، وحده لحق بها إلى الروبير، وكان يصل الروبير حاملاً بيده لفائف من ورق، ويكرّر دون مناسبة اسماً لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إلى فرنسا، وكان الاسم هو اسم "ميشيل عفلق"، يكرّر معه كلاماً متصلاً بالوحدة، والحرّية، والاشتراكية، ولم يكن ليقبلها أبداً، كان يغرق في لحسها، وكانت تنتزع فمه عن بطنها، وكان من المتعذر عليه أن يقلع نظارته الطبية، ذات العدسة الضخمة التي تتشكل على هيئة دوائر، تنتهي ببؤرة كما حبة العدس، غارقة في الصفر؛ لترفعه بعد ارتجافات مُتكرّرة عن بطنها، وهي تضحك، وهو يقول لها:

- اسمعي، هنالك من ينادي اسمك.

كمومس كبيرة، نهضت فرنسا من سريرها، واتجهت إلى النافذة، كان ظهرها ملتوياً، وكانت مؤخرتها الضخمة، أعاقت حيويتها، وما إن أطلت من النافذة حتى نهض صالح من السرير، وهو يلحق بها، وهو يصحح حزام بنطاله، ويكرر:

- خذي، هدية لك.

كان يحمل بيده زجاجة كولونيا، مخصصة لترطيب البشرة ما بعد الحلاقة الرجالية، وحين أمسكت فرنسا بالزجاجة، وقلبتها، قالت له:

- هذه لما بعد النتف؟ أ ليس كذلك؟!

مد صالح عنقه من وراء كتف فرنسا، وكان من الممكن بالنسبة إليه أن يبصر من وراء عدسة نظارته الأشكال البعيدة والقريبة بنفس الجودة، فكان يرى كتلاً متموجة، لم يكن يجد حرجاً في أن يُطلق عليها التسميات التي يشاء أن يطلقها:

- إنه.. يا إلهي، إذا كان نفس الرجل الذي في رأسي.

- إنه فواز.. زوجي، أجابت فرنسا.

- أوف.. ظننته الرفيق متعب.. يا الله، على هذه البلوة.. أخاف أن يقتلني زوجك.

من غير اللائق، أن تستقبل فرنسا أياً كان في غرفتها بصفته زائراً، وليس زبوناً، فغرف الروبير مخصصة لخالعي السراويل فقط، ولم تكن الزيارات الخاصة مستحبة لدى نجاح سبح، وقد وضعت قوانين صارمة للكرخانة، ومع ذلك تجاوزت فرنسا قوانين العمل، وأشارت لفواز بأن يصعد، كانت غرفتها بأفرشة أنيقة، وشرشف أنيق، وستارة من الساتان، وخزانة، ومناشف، ومغسلة، وكانت الغرفة معطرة، عكس غرفتها في الضبارة؛ حيث تنام على كومة من الخرق، وأفضل بكثير من غرفتها في كرخانة باب الجابية التي تنبعث منها روائح نشادر البول، بعد أن يودع الزبائن مثاناتهم في المغسلة، فيما تفرغ هي، في بالوعة تتصف أرض الغرفة.

حين كان فواز يصعد الدرج، كان صالح يهبط بخطى حذرة، متربصة، خائفة، وحين تقابلا، انحنى صالح، كما لو كان يستعد لرقصة تانغو:

- مساء الخير، يا سيدي.

قال صالح لفواز، ولوى بجسده متابعاً نزول الدرج، ودون أدنى اهتمام؛ تابع متجهاً إلى ممز الطابق الثاني من المبنى.

يقولون بأن مشاعر رد الفعل هي آخر ما تتوقف، فعلى الرغم من أنه كان ثملاً، شعر فواز بشيء من الغربة، ومن الفوارق الطبقية والاجتماعية، كما انتابه إحساس عميق بالهزيمة حتى ولو انتصر عبد الناصر في معركته، فوميض البلاط، وصباغ الجدران الحديث، والأبواب الأنيقة للكرخانة، تراقصت أمام بصره؛ لينتقل من مشاعر الرجل المتحدي إلى مشاعر السجين، وكانت آلامه الروحية، قد انتقلت إلى جسده، وأصيب بإنهاك عصبي مُدمّر.

- ما بك؟ اجلس، قالت له فرنسا. ثم أردفت:

- هنا مكان للنيك.. النيك فقط. وأشارت إلى سريرها، وتابعت:

- إذا أردت.. هيا.. ولكن؛ حذاري، الدفع مقدّماً، قالت له، وبعد أن تأملت ملامحه:

- ما الذي أتى بك إلي؟

- أنا زوجك؟

- حسناً، سأمتحك حسماً.

كانت النتيجة ارتكاسة فظيعة في عقله وخياراته، ولم يكن بمستطاعه حتى أن يرد على كلمة واحدة من كلماتها، ثم، وبعد تحمية نفسية، كان نطقه يتقدم خطوتين، ويتراجع خطوة، فقفز صوته من حنجرته؛ ليقول لها:

- عبد الناصر.

- ما به؟

- أمم القناة.

- آه.. فظيع، وبعد؟

- الفرنسيون.

- ما بهم؟

- سيهاجمونه مع الإسرائيليين.

- عظيم، وأنا هل سأعالج الجرحى في ساحات المعارك؟

- لا.. كلّ ما في الأمر أنني أرغب في أن أحيطك علماً.

- تمام.. لقد أخذتُ علماً.

أجابته، واتجهت إلى زجاجة الكولونيا:

- خذ.. رائحتك تزكم.

- ما هذه؟

- كولونيا.

- شرط أن لا تكون فرنسية.

- لا.. إنها من زبون وطني، يقول إنه بعثي من جماعة الوحدة والحرية والاشتراكية.. لكلّ زبون من زبائني قحبةٌ واحدة إلا هو عنده أربعة قحبات، فبالإضافة إلي، عنده الثلاثة اللواتي أسمعتك أسماءهن، الوحدة والحرية والاشتراكية، وفوق ذلك، فهو يلحس دون أن ينزع نظارته عن أنفه.

منذ زواجه بفرنسا، وكان اسمها شيخة، اعتاد فوّاز على لغتها البذيئة، التي تحطّ من مواهبه، وتعيق إشراقاته الذهنية، وكان على دراية بأنها تنحدر من عائلة قذرة، متعيشة على جمع علب النفايات، وبيع التالف، ولملمة مرميات المدينة، ولم تكن فرنسا تخفي أصولها عن زبائنها، بمن فيهم العسكري الفرنسي، وقد عشقته، وربما عشقها، ومع ذلك، كانت تتطلّع نحو أن تكون سيدة راقية، تنتمي إلى المجتمع الراقي، وكانت تتطلّع إلى العائلات البورجوازية، باعتبارها عائلات، انحط القدر، فرفع من شأنها، هذا كلّ ما في الأمر، إنها لعبة تخص القدر، وعليها أن تغير شروط اللعبة.

بناء على إيمانها هذا، كانت حريصة على أن لا تتغير هي، بل أن تغير أقدارها، وكانت حريصة على أن لا تُحمل نفسها عناء صفات، ليست من طبيعتها، فالذين عرفوها عن قرب، كانوا يعرفون قدراتها، ومهاراتها، ومن بين هذه المهارات أن بوسعها التصرف، كما لو كانت سيدة راقية، لو شاءت، غير أنها لم تشأ، وحين مارست نقيض مشيئتها، ولمرّة واحدة في حفلة، جمعتها بكتيبة من جنود الانتداب، أذهلت الجنود بقدرتها على أن تلعب

دور الفتاة المخملية، وهي ترشف النبيذ ببلاغة مرهفة، ومن ثم؛ وهي ترقص التانغو، والسلو، والهيب هوب، وتتفنن في استخدام أصابعها، حتى بدت يدها مروحة من القش الصيني الملون، وهي تزيح الهواء عن وجهها. ولم يكن ارتدادها عن دورها هذا سوى بدافع إيمان عميق منها، بأن الحب أعمى، وبأن عشيقها الفرنسي لابد وأن يحبها، كما هي، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلن تكون بالنسبة إليه سوى ليلة، وتمضي، وليس من اللائق، ولا المحترم، ولا العادل أن تتغير من أجل ليلة، ما جعل حياتها مكشوفة على الدوام، وجعلها مادة مضادة لكلّ أشكال الأسرار التي تحيط بامرأة. امرأةٌ:" البغاء هو مصدر شرفها".

في تلك الحفنة، حفلة التانغو، كانت اختبرت مجموع الجنود الراقصين، وقد خلعوا قبعاتهم، واندسوا في قبعتها، كانت تدور بقبعتها المحشوة بالجنود، وتؤرجحها كما مروحة تزيل حرارة المكان عن وجه الكابتن العاشق الذي لن يبوح بسرّ عشقه، وكانت تلاعب عاطفته، كما لو كانت تلعب بأحجار الشطرنج، فتنقل الجنود المحشوين في القبعة مربعاً مربعاً حتى تتساقط البيادق، والقلاع، والخيول، والفيلة؛ لينتصر ملكها.

- أنت الملك. قالت للكابتن.

كانت مشاعر الملك قد حطت فوق أكتاف الكابتن، وكان يذوب في مملكة أشادتها بنت فتية، تعرف الطريق إلى قلب جندي، يطمح أن يكون ذات يوم ببشرته السمراء الغامقة ملكاً، وكانت تعيد صراخها وسط جنود مخمورين، وهي تراقصه:

- أنا فرنسا.

وبعدها، كان الكابتن يحضنها، كما لو يذهب في زورق حربي متجوّلاً في شواطئ مستعمراته، وقد تكلّل بتاج إمبراطور، تمنحه امرأة.

هو الأمر كذلك، فالإمبراطوريات العظمى، هي امرأة، وكذلك سقوطها لا يعدو أن يكون سوى السقوط على حافة امرأة، فيما كانت تتسلّل مشاعر الإمبراطورة إلى البنت الراقصة التي انتهت في حضن فوّاز الرجل النابح، الذي لا يعدو أن يكون واحداً من سياس إسطبل خيولها.. فوّاز، أي رجل يتمخط، وهو يدخل غرفتها في الروبير ماسحاً مخاطه بكم قميصه؟!

- إنها غرفة رائعة.. قال لها فوّاز، وهو يلامس شرشف سريرها.

- إنني ناطورة لهذه الغرفة.

- كيف؟

بدا سؤاله احتجاجاً قلقاً، وكأنه بانتظار إجابة تجلد حواسه، وتدفع آماله بأن يكون لزوجته غرفة بستائر ساتان، تغطي نافذتها.

أجابته، وبروح مرحة:

- إنني ناطورة زمزدة.. إنني أعمل عند مؤخرتها.

لم يفهم مغزى كلامها، ولم تكن فرنسا جاهزة لتقبل أي سؤال جديد، فقد بدت سئمةً من شغفه في أن يساكنها الغرفة، وقد لفح لها أنه عازم على الانتقال من الضبارة إلى الروبيير، قال لها إن بوسعه خدمتها، وإنه لن يرفع نظره في وجهها، وإنه سيتولى تنظيف المناشف، وترتيب سريرها.

- يا فواز، نحن لا نجفف أكساسنا بالمناشف، نحن نجففها بكلاسيننا. أجابته، ثم:

- أنت لا ترتدي كلسوناً تحت بنطالك؛ لتجفف به، وتابعت ضاحكة:

- ولا لحية؛ لنجفف بها.

في حقيقة الأمر، لم تكن فرنسا تعرف ما آلت إليه زمزدة في هذه الليلة، وفي ليالي سابقة عليها، وكانت قدمتها إلى نجاح سبح؛ لتنطلق الأخرى في استثمار جديد، لابد وأن يحمل عائدات كبيرة لقوادة، لا تكلّ عن تطوير أعمالها بما يتناسب وتطلّعات رجال مذهولين ببنت بكر، ريفية تتقدم بخطى واثقة نحو حمامات البورسلين، ومغاطس المياه الدافئة، ممزوجة بماء عطر، وصابون لوكس، ونعناع أخضر يسبح فوق جسدها، ومن ثم؛ تتجاوز مراحل تدريب طويلة؛ لتتعلّم فنون التقبيل، مُستلقية في أسرّة مظلّلة، لحجرات نوم جميلة، دون أن تستعجل المضاجعة.

هذه الليلة كانت ليلة الصدفة الخارقة بالنسبة إلى زمزدة، كان عليها امتحان ساقيها في الصعود إلى الأعلى، ومغادرة عالم، يعجّ بأصابع مُغبرة تُطارد أقفية بناتٍ يقطعن أزقّة صفيح الضبارة، وكانت ترى أن السرير - وقد استلقت فوقه - لين ومُنجد، ومصنوع؛ ليكون وعاءً لأميرة، ومن حسن حظها، أن السيد، الزبون، وقد اختارته نجاح سبح؛ ليكون أول العابرين فوق زمزدة، كان رجلاً من أهل القمة، ومُدخناً نهماً من غليون عاجي، يسرح مع دخانه بعيداً عن شرط المكان؛ ليتوه في عالم آخر، ثم لا

يلبث أن يقف مستديراً إلى نافذته المطلّة على بساتين الصالحية، ويقول لها:

- سيدتي، أنا سعيد بك!

يقول لها سيدتي، ثم يبدي سعادة حقيقية، ويتابع:

- آمل أن تكوني سعيدةً مثلي.. آه، بالمناسبة من حقك أن تعجبي بنفسك.

لحظة أن قال لها ذلك، بدت زمزدة أكبر من عمرها، ولم تكن لتداري ابتسامتها السعيدة، وقد كشفت صفّي أسنانها اللامعة كما ماسات متوهجة.

مدّت يدها، وصافحته قائلة:

- أنا زمزدة.

قال لها، وهو يغادرها:

- أنا قتيبة.. لا بد أن نلتقي مرّة أخرى.

السيد الزبون، كان اسمه قتيبة شهاب، وكان على علم أنه من العائلات متوسطة الثروة في المدينة، ولم يكن، وهو صاحب واحدة من أكبر المكتبات العامة، ينجذب إلى الجنس بأبعاده الجسدية، كان شغوفاً بأن يجد من يُصغي إليه، وكان روّاد مكتبته من كتّاب وقرّاء، يبحثون - على الدوام - عن جبران خليل جبران، والعقّاد، وطه حسين، كما أن جزءاً كبيراً منهم كان يفتتن بأعمال دستيوفسكي، وكانوا يثرثرون دون انقطاع بما يجعله صامتاً على الدوام، كل ما كان يشغل قتيبة هو بالمجمل، أن يعثر على من يصغي إليه، فالبوح بما تخبئه النفس الإنسانية، ربما يكون استئصالاً لتلك البثور العالقة فينا، قد يكون أكثر من ذلك، قد يكون في لحظة ما، تأجيلاً للقرارات الحكيمة، تلك القرارات التي تضع حدّاً لحياتنا.

قال لزمزدة، وهو جالس وكفّيه يحضنان ركبتيه:"حين يبلغ الحمار منتهى حدود إمكانياته، ويكون قد أكل ما في عليقه، يبدأ بالقفز والرقص... أ ليس كذلك؟"، قال ذلك، ثم رفع كفّيه عن ركبتيه، وطوى كتاباً إلى جانب السرير، ولكن زمزدة لم تفهم مقصد قتيبة شهاب ممّا يقوله، غير أنها كانت على يقين أنها ستتفهم غاية هذا الرجل، وهو من لم يمدّ يده إلى مؤخرتها، ويقرصها كما يفعل جميع الرجال، خصوصاً جبرا صاحب الخمّارة،

وهو من لم تعبره امرأة واحدة في الضبارة، دون أن يقرص قفاها، باستثنائها هي.. وحدها لم تمتدّ أصابعه إلى جسدها.

لم يكن جبرا يعرف أن يجيب عن سؤال:

- ما هو الحب؟

كان ذلك قبل سنوات خلت، هو لا يذكر تسلسلها، فالزمن بالنسبة إلى جبرا، لا يعدو كونه أصابع تقرص أرداف نساء، كان الزمن بالنسبة إليه عدّاد قرصات، هكذا يحلو له أن يقول، ولو لم يكن الزمن بالنسبة إليه كذلك، لقتله الهجر، ولقتلته تلك الفاتنة التي أجّلته عن ميعادها حتى بات مُذلاً، كما خرقة رطبة، وهو يقف على رصيفها فوق ساقٍ واحدة؛ لتقول له:

- سأفكر.

- تُفكرين بماذا؟

- بما إذا كنا صالحين للعيش معاً.

العيش؟! لعنة الحيوانات العاقلة، ومسارح ارتكاب الخطيئة، وجسر المذلّة، وكان يقول لها:

- طز بالعيش.. العيش أن نموت معاً.

كان الزمن - بالنسبة إليه - هو انتظارها، وكان الانتظار - بالنسبة إليه - يعني الوعد.. الحبُّ هو الوعد، هكذا كان يعتقد مُبرراً انقياده لمذلّة الوقوف لساعات بانتظار عودتها من بار ميخلس في سالونيكا، وكانت نادلة تُتقن فنّ الشخر، وإيقاد النار في قلوب الرجال، غير أنه ما أن تأكد أنّها تبيت بالأجرة بين فقهاء جنس ضالعين في فتح أبوابه حتى سقط الوعد، ومعه سقط اثنان:

- الزمن والحبّ.

لم يعد زمن جبرا زمن الانتظار على الرصيف، بات زمناً آخر، يسخر من مجرّد وسواس الوقت، وبات الحبّ - بالنسبة إليه - محصوراً بإصبعه الوسطى وقد صارت التعبير الأكثر اختزالاً لمجموع القضايا الكبرى شاغلة عصره.. كل القضايا كان يترجمها بنصب أفخاخ إصبعه الوسطى، للرجال والنساء، للوطن والهجرة، للبحار واليابسة، للجوع والشبع، وكذلك للّيل والنهار، وكان ينصبها في أحيان كثيرة للموت، وليس من شك أن مجازفات

حربية كثيرة وضعته على حافة الموت، وهو يخوض معارك السكاكين مع بحارة قادمين من أصقاع الدنيا متجهين إلى بارات، لا تخلو من بنات (مثلها)، يعرفن فن الشخر، ومن بعدها، صار الحب - بالنسبة إليه - هو اصبعه الوسطى، وما إن نما، وأسقط من ذاكرته بنت فقهاء الجنس، حتى تطورت مشاعره تجاه الحب، بات الحب - بالنسبة إليه - يطال مجموع أعضاء جسده، ولم يعد محصوراً بإصبعه المنتصبة، بات الحب - بالنسبة إليه - يتأرجح ما بين عضلات ساعديه المفتولة، قدميه، جمجمته، شعر رأسه الطويل الممتد حتى الكتفين، وبات:

- الحب يعني أنا، وليس ساقطة، تلاعبني لعبة الوعد.

هو كذلك، ولأنه رجل، اكتفى بسكن جسده، ومراقبة خلاياه، ورصد دقات ساعات أصابعه، فقد كان يتدحرج، كما كرة ثلج نحو سؤال جديد:

- ما الذي فعلته بي هذه البنت؟! وكان يعني زمزدة.

كان يسأل مؤنباً نفسه، ما آلت إليه نفسه بعد انخطافه بزمزدة، ويقينه من أنه لم يتجاوز الوقوع في حفرة الانتظار ثانية، وكان يُعاند في نصب إصبعه للنساء المارات بالقرب منه، وفي كل لعبة عناد، كان يزداد يقيناً بأنه وقع في الحب، في دوار جديد، عصي على أن تترجمه الأصابع وأقفية النساء، وما إن أدرك الكارثة حتى بات مسكوناً بالسؤال:

- الحب.

- إنه أنا، أصابع وجبين، وليل ونهار لبنت تمشي حاملة تديين كوكبين، عينان سزان.. ابتسامة مختبئة ملفوفة بالكتمان، تُحفّر روحه.

لم يغلق جبرا باب خمارته برتاجته المعهودة في هذه الليلة، فقد ترك نصف بابها مُشرعاً، وكان قلقاً على غير عادته، ولم يكن ليطلّ من الباب إلا ليعاود هذ عنقه من الباب ثانية، وكلما نظر إلى الزقاق الخالي من المارة، تعاوده ملامح الضيق، ما لفت زبائن الخمارة، وهم من البشر الذين لا يحبذون تضييع نقودهم في الصحو، فالثمالة - بالنسبة إليهم - لابد وأن تكون مكلفة، وليس على الصحو أن يبدد رصيد أعمارهم، واحد من زبائن خمارته - وكان صامتاً على الدوام - كان يرتد، شربتها، وحين سأله جبرا:

- ما التي شربتها، يا عساف؟ أجاب:

- سيارتي اللاندروفر.

- كيف؟

- حوّلتها إلى عرق، وشربتها.

بدوره كان جبرا، يُكن احتراماً عميقاً للثمالة، كما كان يُكن احتقاراً عميقاً للعقل الذي يعدّه مُجرد حماقة، قدّستها البشرية بالتدريب ومراكمة البلاهة:

- العقل، منشار حطّاب، يقضم الروح البشرية.

كان يعتقد بحدسه، وتجواله في حوض المتوسط مابين إيطاليا - فرنسا - اليونان، أن الجائحة الكبرى التي اجتاحت السوريين هي الإسلام، وهو فن نقل البلاد من شرق المتوسط برمال شاطئه، إلى الربع الخالي وخيال الصفينة، ولكنه لم يكن ليعير أدنى انتباه للمسيحية، فقد عدّها مُجرد فكرة بلهاء، خلعت خُفيها، وتجولت في رؤوس مؤمنين بصليب، ليس أكثر قسوة من العزلة، عزلة هو بن زبائن، يعرثرون قيماً ومعتقدات تتبدد من الكأس الثاني، وبوسع الحياة أن تلغيها بقرقة عرق مُضافة، وكان اختياره لصفيح الضبارة كمنطقة لاستقراره مع خمارته، مدفوعاً بإيمانه بأن خلائط الناس الذين يعيشون في هذا الحي، سيكونون بمأمن من الخضوع للعقائد الأحادية، فالنائمون تحت أسطح الصفيح، سيكونون أكثر جرأة على ثقب صفيحهم، والبحث عن آلهة، تتسرب من ثقوب صفيحهم، سيكونون وثنيين، متعددي الآلهة، هكذا كان يعتقد، وكان يضيف متهكماً بأن الجوع طريق، لا يقود إلى الله، إنه أقرب سبيل إلى الإلحاد والنكران، ما يجعل أحباب الله بعيدين عن خمارته، وهذا - بالتحديد – ما سعى إليه منذ اليوم الأول الذي اتخذ فيه من هذا الحي مكاناً لخمارته وملاذاً لروحه القلقة، إنه حيّ شتات بشر من منبوذين ومقهورين وبعقائد من خلائط: دروز، أكراد، إزيديون، وأكراد مسلمون، مسيحيون، علويون، مسلمون ملحدون، ومجموعة من اللا أدريين الذين حين سيُسألون عن اليوم الآخر، يؤكدون، أنه من المبكر الانشغال بالإجابة، فما تزال طاقاتهم الجنسية كافية لتحبيل قطعان من البقر.

- يصبحون مؤمنين حين يبيتون، وهم يديرون ظهورهم لزوجاتهم معلنين أن الرخاوة قد أخذتهم، ولكن: ما داموا قادرين على تحبيل نسائهم، فإنهم لا يسألون إن كان الله موجوداً أم غائباً.

كان زبائن خمارته من هذا الطراز، وكانت عدوى قلق جبرا، ووقفته، وقد طالت أمام باب الخمارة، انعكست قلقاً على مجموع زبائنها، وليس

ثمة واحد من المخمورين القابعين وراء مازاوات الفستق، وبيرة ماكس، وزجاجات عزق البطة، إلاّ وكان يعلم في سريرته، أن جبرا لم يُغلق عليهم باب الخمّارة من الخارج اليوم، سوى لأنه لم يواعد أيّ واحدة من نسائهم، غير أن قلقهم هذا حمل مزيداً من العوائد على جلساتهم التي تطول، وكما درجت العادة. فلقد عمّت الفوضى الخمّارة، وبات الشكارى يمدّون أياديهم إلى مستوعبات الفستق، ويكيلون كميات مضاعفة في صحونهم، وكذا يستبدلون بزجاجات العزق الفارغة زجاجات مليئة، وكان جبرا يحتضر اختناقاً، بانتظار عودة زمزدة.

بدت زمزدة - بالنسبة لجبرا - سماء، من الصعب تلطيخها، وحين كان يتطلّع إلى النجوم، كان يبحث عن مكان لزمزدة في هذه السماء، وربما لم يكن يدري أن دقّات قلبه تعني - فيما تعنيه - إصابة حُبّ، أو نوبةً من نوبات الشغف بامرأة، وهو من اعتاد على النساء العابرات اللواتي لا يخلعنّ سراويلهنّ، وينحنين، إلاّ ويكون قد أخذهنّ منحنيات؛ ليغادرهنّ دون أن يقول:

- شكراً، يا أختي.

هات القزازة، واقعد لاعبني

دي المزة طازا، والحال عجبني

أصداء أصوات الشكارى كانت تتسرّب من داخل الخمّارة، وكان جبرا سئماً منكداً، منشغلاً بهوية المكان السّري الذي ستكون فيه زمزدة الليلة، ولم يكن ليلتفت إلى مشاجرة وقعت في خمّارته أتت على كرسيين ومنضدة، ومجموعة يصعب حصرها من صحون الفخار المتبعثرة، وزبونٍ، خرج متسللاً بهدوء الأفعى، فيما زبونٌ جريحٌ يعوي، كما الجرو متوجّعاً.

كان بانتظار عودة زمزدة، شغوفاً بأن يستوقفها؛ ليقول لها، إنه لم يدرك الصعود إلى سرّ نفسه إلاّ بعد أن عرفها، وإن هؤلاء البشر الغوغاء الذين يحتطّون في خمّارته، ليسوا سوى الوقت الضائع من حياة، لم يعتقد - يوماً - أنها ستكون أثيرة على قلبه. قال لها، وكان يتطلّع إلى النجوم، أنه ليس كما تظنّ، وأنه كما كلّ البشرية الحمقاء لابد وأن يقف يوماً على تلّة الموتى، ووعدها أن يكترث بالحياة، إذا ما اكترثت هي به، وأقسم أن حياته من دونها لن تكون سوى مُجزد إحصاء لبطحات عزق، يكرعها زبائن خمّارته.

لعلّ زمزدة في تلك اللحظات، لم تكن تسمع صوت جبرا، فقد كانت

تصغي إلى قتيبة شهاب، بل، لعلّها كانت مسكونة بتأمل دخان غليونه العاجي، وحركات أصابعه المهذّبة، وكانت تستمتع برائحة تبغ مُعتق، ليس كما التبغ الذي ينفثه عقال مياومون، يعودون متقلين من جمع الفحم في مخازن أبو ليادة، أو أولئك العائدين من حمل أكياس الحنطة فوق ظهورهم، كان لرائحة دخان غليون قتيبة، كما لكلامه، رائحة أشبه بالمودّة، وكان يكزر قوله:

- والله، يا ابنتي، إنني بحاجة لأن أحكي، وأحكي.. نعم، إنّ الصمت هو الجحيم.

- أ ليس لك عائلة؟ سألته زمزدة.

- بلى .. صبيان، وبنت واحدة.

- وزوجة؟

- وزوجة.

- لمَ لا تحكي لها؟

- ما إن أبدأ بالعيش حتى تبدأ بقتلي.

- يا الله، خسارة.

- لا... ليس الأمر كما تعتقدين.. إن زوجتي سيدة فاضلة، جُلّ ما ينقصها هو أن تكون خيالاً لي.. إنها العالم الحقيقي، ولا أريد لروحي أن تنطبع بعالم، يفتقد إلى الخيال.. أنت - بالنسبة لي - امرأة متخيّلة.

قال ذلك، ثم تمتم كلاماً لم يكن بمقدور زمزدة أن تفهمه:

- إنّ المرأة اليقين هي المرأة الميتة.. كلّ النساء ميتات، إنْ لم يكنّ احتمالاً.. احتمالاً فقط.

دون أدنى شك، كان قتيبة يفهم عالم المرأة، بل كان على دراية بعوالم ثلاث: المرأة، الديكتاتور، والله، وكان يقول لزمزدة، وكأنما يحاكي نفسه:

- عليك - على الدوام - أن تؤكد له بأنك تحبه، هو يعلم إن كنت تحبه، ومع ذلك، يطالبك بالاعتراف بمحبته، والديكتاتور، عليك أن تخافه، وأن تعلن له في كلّ لحظة أنك تخافه، مع أنه يعرف أنك تخافه، والمرأة، عليك أن تعترف بأنك أسيرها، هي تعلم أنك مغلول إليها، ومع ذلك، عليك أن

تخشخش أغلالك في أذنيها؛ لأنها ترقص على خشخشات أغلالك.

حين أمسكت يده مُشفقةً، سحب يده من يدها مؤكداً:

- لا.. اللمس - بالنسبة لي - سيحيلني إلى عالم الواقع.

ببراءة لا تخلو من الضجر، سألته:

- كنتُ أودّ أن أسمع خشخشات أغلالك.

بعد أن قالت ذلك، وصمتت، قطعت صمتها بسؤال:

- إذن؛ لماذا استأجرتني؟

- لأحكي.. نعم، لأحكي.

لم تفهم زمزدة شيئاً مما قاله، وحين كانت تتسلّل خارجة من بيته في الصالحية، باتجاه مبنى البرلمان، كانت تدرك أنها ستقطع مسافة طويلة للوصول إلى كرخانة الرويير، ولم تكن مغادرتها المبنى سوى استثناء قلّما يحصل لمومسات الرويير اللواتي يُقمن في هذا المبنى، بصفته قبرهن، وبيتهن، وكانت قد أدركت بحسها الفطري أنها تركت وراءها رجلاً يعاني مرارةً وعذاباً فظيعين، وكانت على يقين من أن زوجته ليست سيدة فاضلة، كما يصفها، وإنما هي امرأة لابد من الحجر عليها، واحتجازها داخل جدران، في محاولة لإنقاذ هذا الرجل من شرورها.

حين وصلت إلى جانب البرلمان، كان حشد كبير من الرجال يتجمع حول البوابة الرئيسية للمبنى، وثمة أسماء لم تكن لتُنسى، بالنسبة إليها، تتكرر من رجال واقفين، اسمان لن يُنسيا: خالد العظم وخالد بكداش.

- من هما هذان؟ سألت زمزدة فرنسا حال أن دخلت زمزدة غرفتها في الرويير.

- هل أرسلتك بنت السبح إليهما؟ القحبة.. زبونان معاً؟

- لا.. ولكنني سمعت الناس يتحدثون عنهما.

- الناس؟! من هم الناس؟

- رجال ببذلات.. رجال أنيقون..

- وما يعنينا منهما؟

- ولاشيء.

- أنت تكذبين علي، ها؟

- وحق الله، إنني لا أكذب.

- تتواطئين مع بنت سبح، وستنقلبين علي؟ ساقطة.. كلّ شيء تزرعه؛ لتحصده إلاّ الإنسان تزرعه؛ ليحصدك.. ها أنت ابتدأت بحصدي.

نهضت فرنسا كما اللهب، وخرجت من الغرفة دون أن تغلق الباب وراءها صاعدة نحو غرفة نجاح سبح، كانت نجاح كما رسوخها التاريخي، تصغي، وتبتسم، وتتابع تلوين أظافرها، ناثرة حولها علبة كبيرة من منوّعات تزيين الوجه.

حين قالت لها فرنسا باحتجاج بالغ، إنها اتفقت معها على أن ترسل زمزدة إلى زبون واحد، وليس إلى زبونين، أجابتها نجاح مؤكّدة بأنها احترمت اتفاقهما، وأنها لا تعرف طريقاً للخداع، وحين كرّرت فرنسا اسم خالد بكداش وخالد العظم، فرقعت نجاح ضحكةً مدوية، ثم مسحت أحمر شفاهها عن شفتيها؛ لتستبدل القرمزي بالأحمر الغامق الذي يسمى دم الغزال.

- هه.. ما رأيك؟.. الشفاه العريضة تجذب الرجال، أ ليس كذلك؟

- قبل أن أجيبك قولي لي من هم هؤلاء؟

- يووه، إنهم نوّاب.. واحد يحبّ الإنكليز، والثاني يحبّ الروس.. نوّاب في البرلمان، يا حمارة.

- يعني.

- لا يعني، لا.. هؤلاء ليسوا من زبائننا، ولكنْ؛ وحق أمك ورحمتها، سأجلبهما إلى الروبير، أو.. سأنقل الروبير إليهما.

الحزب الشيوعي السوري، قدّس خالد بكداش أيّما تقديس، وأضاف على قدسية الرجل حكايات تتعلّق بنضاله ومواجهته للسلطات والبورجوازية السورية، وكان مناصروه يعدّونه واحداً من الخطباء الأشد تأثيراً في البرلمان السوري، وهو يقف في مواجهة خالد العظم، الشخصية السورية المتحدّرة من العائلات السورية الكبرى، وكان الثاني، وقد حمل كلٌّ منهما اسم:"خالد"، نشطين، حاضرين في حياة بلاد، ما إن تلمّست

استقلالها عن الفرنسيين حتى انطلقت في استحضار الدولة المرجوة.. كان خالد بكداش يتميز بخيال ملتهب، وخطابية لا تُجارى، فيما تزين خالد العظم بعقلية هادئة متزنة، ولم يكن من اللائق أن تتصور فرنسا أن بوسعها اختطاف أيٍّ منهما إلى كرخانتها.

جلس جبرا بانتظار عودة زمزدة حتى صبيحة اليوم التالي، لا زمزدة رجعت، ولا جاد الحق عاد إلى الحي، ولم يكن بوسع جبرا طرد شبح زمزدة، فتحت ضوء قمر الليلة الفائتة كان يحدث خطأ ما، خطأ أعجوبة، ليس لحدس جبرا أن يلتقطه، كانت تهمس له طالبة منه أن ينبت ريشاً فوق جناحيه؛ ليطير إليها، غير أنه كان على علم بأن الدنيا تسلك طريقاً على النقيض من حلمه، فالإنسان - وقد قطع مسافات هائلة في الزمان - نسي ريشه فوق جدران الكهوف، واستوطن البيوت، وقد أسقط جناحيه؛ ليتحول إلى حيوان زاحف، وإن بدا منتصباً.

كانت الأزقة أشبه بمجاهل عفاريت، تتسرب إلى دم جبرا، ودون شك، باتت العداوة متأصلة ما بينه وبين فرنسا التي حملها مسؤولية ضياع زمزدة، أو أي سوء يمكن أن تتعرض له، ولكن الصبي، قال جبرا مخاطباً نفسه، ومن ثم؛ مخاطباً أكثر من رجل يعبره:

- الصبي لم يعد، قال لواحد من المارة، وكان صوته متحشرجاً، مختنقاً، قلقاً.

- عاد أو لم يعد، أ هو من صلبك حتى تقلق عليه، يا جبرا؟

كانت هذه الإجابة أشد وطأة على روحه، وقد كالتها له الراقصة العرجاء التي تحيي أفراح الحي ومحيطه من الأحياء متباهية بساقها المنتصبة الوحيدة.

صبيحة هذا اليوم، لم يكن أحد من أبناء حي الضبارة قد ذهب إلى العمل، فاحتفالات عيد الاستقلال، كان أثيراً بالنسبة إليهم مجتمعين، وكانوا أعدوا زواداتهم، واتجهوا مبكرين، بل أبكر مما يجب نحو منطقة جسر فكتوريا؛ ليروا كيف يسير الجنود بصفوف منتظمة، وكيف تتشكل الفرق العسكرية، وكيف تبرق السيوف في أيدي رجال يسيرون بخطوات واسعة ورؤوسهم إلى الأعلى، وكيف تتشكل منصة العرض العسكري، وأطباق الزهور توضع أمام القادة والضباط الشاهقين في البلاد، وكيف يرسل هؤلاء الجنود رسائلهم مع خبطات أقدامهم إلى جنود العدو خلف

الحدود، كان نهر بردى يتدفّق صافياً، وعلى ضفّته، اتّكأ الصبي جاد الحق جاد الله، بينما كانت زمزدة تستلقي في فراشها في الروبير، معتقدة أن جسدها ينثني فوقها، وكانت تتقلّص، وتنكمش، متسائلة عن الطلسم السّخري الذي دسّته لها فرتسا حتى انساقت إلى هذا المكان؛ لتعيش لياليها وهي تضغط أجفانها المغمضة بأظافرها سعياً وراء رقاد لا يأتي.

حين توضّحت إشراقة الشمس، كان ظلّ جاد الحق جاد الله يتأرجح فوق مياه النهر المتدفّق، وكان جاد الحق جاد الله يتأمّل ظلّه بنظرات محدقة؛ ليراه ظلّه.

هكذا كان يخاطب ظلاله المهتزّة فوق تدفّق مياه نهر بردى، وكان يُغيّر تشكيل جسده من وضع إلى آخر، ومع كلّ وضع جديد:

- انظر إليّ. كان يهمس مخاطباً ظلّه.

كان ظلّه يُحدِث اهتزازات جديدة، من الصعب عليه فهم كنهها، ثم لا يلبث جاد الحق أن يستسلم لتدفّق ظلّه فوق سطح ماء النهر، دون أدنى شعور بما يحيط به من ضجيج المتوافدين إلى ضفّة النهر، ودون أدنى إحساس بازدحام المكان الذي غطّته أرجل وأكتاف سكّان المدينة، كما أرياف الجنوب، وقد قطع جمهور العرض العسكري مسافات، ليست بالهيّنة، وهم يتأرجحون في حافلات نقل محدودة العدد، وبطيئة السرعة، للوصول إلى مركز العاصمة.

بدا ظلّ جاد الحق فوق مياه نهر بردى متموجاً متباعداً، وكان عليه تتبّع ظلّه، إلى أن انحدر الظلّ مع ماء النهر الراكض إلى أسفل الجسر؛ ليغيب عن صاحبه، ويغدو جاد الحق كما لو فقد نصفه الآخر، بفارق أن جاد الحق كان قابلاً لأن يوزن ويلمس ويُحدّد، فيما يهيم الظلّ صعوداً وهبوطاً، سارحاً، لا حدود توقّفه، في رحلة لابد وأن ينتهي فيها إلى جذور حورة ترتفع للأعلى فالأعلى في غوطة دمشق الشرقية الساهية عن احتفالات البلاد وعروضها العسكرية.

مع كلّ ضربة نحاس يُجزيها عسكري من ضاربي صولجانات فرقة الجيش، كانت أصابع آنـا تحضر إلى روح جاد الحق، وكان يحتضر ممتلئاً بخطوات تحثّه على الهروب من هذا المكان؛ ليسير نحو حي الأمين، ويعبر ممرّات طويلة، وأزقّة متعرّجة.

لدى وصوله إلى بوّابة دار عزرا، رفع مطرقتها، وقرع الباب، وكأن آنـا

ستطلّ من نصف نافذتها المفتوحة؛ ليضيء لؤلؤ أسنانها يومه.

لا ظلّ في الحي لعزرا وابنته، تساءل جاد الحق بعد صحو مفاجئ، خطف حلمه:

- أين غادرتْ؟! وعلى أيّ نحو من القسوة اختفت بنت عزرا؟!

آنّا، الذائبة، وقد درجت على تدوير قدميها تحتها كما لعبة، كانت تتناول فطورها كحيوان داجن في شمس مدينة حيفا، وبنظرات منوّمة، كانت تنظر شغوفة إلى فتى عربي بجذع رياضي، جميل ذهبي، ولم يكن حزنها قد غادرها بعد، ولم تكن قد طردت من ذاكرتها جوزيف تارزيان، غير أنها توقّفت عن العزف تماماً، حتى تصلّبت أصابعها، وغادرتها موهبة التقاط نغمات ما بعد السمع التي يعيشها موهوبون، يعرفون كيف يعطون مكانهم للموسيقى في حياتهم.

كانت تُسلّي نفسها بامتصاص أعواد قصب السكّر، وهو من الزراعات المستوردة في إسرائيل، وكانت تعرف أن الفتى العربي يُحملق فيها عبر قضبان الخيزران، وقد سوّرت بيتها.

- ثمّة أناس أحياء في هذا المكان، قالت لنفسها.

ما إن أطلّ عزرا مرتدياً منامته، حتى اتجه إلى ابنته، متضائلاً، أقلّ حجماً ممّا عرفته آنّا:

- لمْ تنامي، أ ليس كذلك؟

باتت آنّا ليلتها الفائتة في غرفة نوم والدها، وهي تُغالب الأرق بأن تعدّ من الصفر إلى المئة بعملية معكوسة، ثمّ لم تلبث أن سمعت نوابض سريرها، وهي تتقلّب في فراشها؛ لتعود إلى العدّ ثانية وثالثة، حتى باتت تهذي بالأرقام، ثمّ تصمت مصغيةً إلى أنفاس نوم أبيها، ومع أن الأرق يضاعف من حاسة السمع، لم تكن تسمع دموع أبيها وصيحاته المكتومة، ولم تكن لاحظت حجم التحول الذي حلّ بعزرا وثيابه القديمة التي طرحها، وقد باتت فضفاضة عليه، حتى بات يقف أمامها، كما سلّك.

قال لها:

- واحدٌ وحده يُخرجك من الماضي، يا ابنتي.. تغيير المكان.. لكلّ وطن جديد رجلٌ جديد، وذاكرة جديدة.. الخبء في معنى من معانيه مكان.. انسي الشام، يا آنّا.

أحياناً كانت آنـا تود لو يتركها أبوها وشأنها؛ كي تُبقي أشياءها المفضلة في رأسها مُقفلة عليها، وفي معظم الأحيان، كانت تلاعب ذاكرتها، فتزيح هذا مكان ذاك، الأمكنة، الدار، الجدران، روائح الغسيل، وهو يغلي فوق نار بابور الكروسين، وبنات ثانوية الفتاة، والضحكات التي كانت تسمع أخبارها من بنات عابثات مع انتهاء حصة التربية الإسلامية، كان الأستاذ سلو يُدرّس مادة الديانة الاسلامية مُعتمراً طربوشاً بالغ الارتفاع، وكان قصر قامتة يجعل البنات يتبولنَ في ملابسهن ضحكاً منه، ناقضين بذلك فروض الوضوء الضرورية في حصة دراسية، هي حصة الديانة الإسلامية.. كانت أبخرة مياههنّ تعلو في فضاءات غرفة الدرس، وتنشر روائحها الوخازة في المكان؛ ليبسمل الأستاذ سلو، ويحوقل، ثم يستعين بقدميه المعوجتين مغادراً الغرفة، مطروداً من شياطين بنات، يُقبِلن على الطمث، مفتتحات للتناسل أبواباً، لا تلبث أن تحمل أجنّتها لفذن محروسة بالتكاثر الأزلي الذي لم تنقطع عنه البشرية.

- كوني يهودية، يا ابنتي، قال لها عزرا.

لم تكن تفهم معنى:"يهودية"، ولا الفارق ما بينها وبين بنات مسلمات، أو مسيحيات، يعانينَ الحُب واكتئابات الدورة الشهرية، كما دوران الرأس مع خيالات شباب، يرفعون أكمامهم حتى يكشفون عضلاتهم المفتولة، وسواعدهم الجاهزة للاحتضان في كل وقت، ومهما تكرّرت الكلمات والصور، كان عصياً عليها أن تتفهم والدها، وحين كانت تلوذ بالصمت، كانت تترك سؤالها في عينيها:

- أوه... لماذا يهودية؟! لمَ بعث الله كل هؤلاء الأنبياء؟! أ لم يكن يكفيه نبيٌ واحد؟! ثم لمَ لمْ يظهر الله بشخصه بدلاً من إرسال وكيل عنه؟!

لم يكن عزرا قادراً على تفسير طلبه في حث ابنته على أن تكون يهودية، وكان يعلم أن الخيبة، ستقوده إلى واحد من احتمالين، الثرثرة أو الصمت، فالكلام في المقدس، في سرّ الخلق والوجود، تستتبعه ندبٌ في الروح، لا شفاء منها، وما الهلوسات الدينية سوى ردُ فعل مستترٍ على سؤال، لم تدخل إجابته نافذة اليقين، وما الإلحاد القطعي، سوى لعبة مع النفس لإنهاك عزيمة السؤال المستحيل.

- ملعونةٌ حكاية السير فوق موج البحر، ثم ما الحكمة في أن يأتينا نبيٌ؛ لنصلبه؟! كان عزرا يُكرّر كلام ابنته، وسؤالها.

أسئلة عزرا، التي غالباً ما انتهت نهايات إلحادية متشككة؛ لينهي بها الثرثرة، كما الصمت، لم تكن لتلاقي ترحاباً في دولة اسرائيل الوليدة. والوعد لم يكن يُغري عزرا، وقد بات يقف على حافة عمره؛ ليكتشف يوماً بعد يوم تلك الأمزجة المريضة للمهاجرين اليهود إلى إسرائيل، وكانت تُستغلّ بطريقة، يصعب حصرها. فمفردات المهاجر، غالباً ما تُستمد من فرط الأمل والطيران (طرْنا إلى إسرائيل)، هكذا كان يقول اليهود القادمون من أوروبا:" طرنا إلى إسرائيل"، ما يعني الفعل المضاد لوقائع الجاذبية وقوانينها، وحين تطأ أقدامهم مطار تلّ أبيب، سيجدون أنفسهم كائنات أرضية مطلوب منها التحصيل الزراعي، والانضمام إلى أفواج الجيش، ومن ثم؛ القتال مع أعداء، يحيطون بهم من كلّ جانب، وسيجدون أنفسهم - بالإضافة إلى ماسبق - مرغمين على الانتظار والصبر، خصوصاً من يعمل منهم زارعاً منتظراً مواسم الثمار، أو أولئك المنتظرون ظهور السيد المسيح.

نعم، كان على الزارعين اليهود انتظار المواسم، وكان على متسولي نهوه الانتظار إلى موعد لاحق جداً، وكلاهما سيكون سئماً، ومحاطاً بسور مرتفع من خوف، ستعززه فكرة الآخر العدو، وارتهان الوجود برمّته على دلالة هذا الآخر، والأكثر قسوة بالنسبة للمهاجر، هو ذاك المهاجر الذي يأتي محملاً ببذار ذاكرته، خصوصاً، يهود المغرب والعراق، ودون شك، كان على يهود أفارقة أن يتحملوا صدمة الحضارة، كما صدمة الطبيعة، وقد اجتمعا إلى جانب التمييز العنصري واضح المعالم ما بينهم وبين يهود أوروبا الشرقية، أولئك القادمون من روسيا وبولونيا، كما اليهود الألمان الفارّون من جحيم الحرب العالمية الثانية.

ثمة فوارق، ستعوم فوق المهاجر؛ ليستسلم إلى مكائدها، لا بسبب من قوّتها الذاتية، وإنما بسبب من رغبته في أن يستسلم، فالاستسلام يعني إراحة الضمير، وعليه أن يُغادر قلق الشك باتجاه إراحة النفس من عناء أسئلة المستقبل، وربما كان اليهود الآتون بحراً إلى فلسطين، ربما كانوا أكثر ارتياحاً من أولئك القادمين جواً، أقلّه أنهم وخلال رحلاتهم البحرية، شكلوا ذاكرة وسيطة ما بين ذاكرة الأمس البعيد، وذاكرة اللحظة، وقد كانت مجرّد ذاكرة مُشتهاة، ولم يكن عزرا سوى هذا الرجل، فقد تسلّل خارجاً من دمشق، إلى جبال الزبداني، ومنها إلى مضايا، ومن مضايا، قطع الطريق مشياً على الأقدام وصولاً إلى الحدود اللبنانية، ومن بيروت، اتّجه وابنته إلى بافوس، ومنها وصل بحراً إلى إسرائيل، ما جعله يُنجز ذاكرة

الترحال، دون أن يُغادر ذاكرة الماضي.

بعد ذلك، غامت رؤيا عزراء ليكتشف مع غيبوبته أنه ترك مخزن كُتُبه؛ وفيه نفائس المخطوطات العربية، وهو من ظنّ أنه يحمل كلماتها في رأسه:

نعم، يا آنـا، كنتُ أظنّ أنني أنقلها في رأسي، وأنها مطبوعة هنا، وحين أشار إلى صدغه، فرك سبابته مُحدثاً ثقباً عميقاً في صدغه، ومن الثقب، انهالت مكتبة فظيعة من الورق الأصفر الذابل المخلوط بالشرايين والدماء؛ وكان يرتّبها مخطوطة مخطوطة، كتاب حكمة التوحيد بأجزائه الستة، الكتاب الأسود للإيزيديين، وكتاب الأغاني، وكذلك ألف ليلة وليلة، تاركاً في جمجمته مئات المخطوطات الممهورة بحبر خطاطين، يلاعبون الأحرف، ملوّنين كلماتهم، بما يشي بأن لكلّ حرف معنى، يخصه في الكلمة الواحدة.

وكان يُكرّر، كما لو كان يهذي:

- لا تعذليه، فإن العذلَ يولعه، قد قلتِ حقاً، ولكن؛ ليس يسمعه

وما إن قال، حتى أدركت آنـا، أنّ أباها على وشك الاحتضار غرقاً في قاع محيطه، وأن في أعماق المحيط، مسافات بعيدة، وها هو ينتفخ؛ ليطفو جثة على شواطئ نهاية عمره، وقد ذبلت عيناه، وشحب.

لم تنبس ببنت شفة، ولكنها امتلكت حساً مضاعفاً بالإصغاء، وهو يُكرّر هامساً، لا تنسي الصبي.

كان الصبي جاد الحق جاد الله - ولليوم الثاني - قد غاب عن الضبارة، وعن مداعبات المراهقة الأولى، وتحسّس جسده لقيمه الوافدة، وما إن وصل الحي حتى استيقظ كما لو قُطِر في روح ياسمينة، وكانت ياسمينة تصعد سلّم السطح واقفة فوق ألواح الصفيح، بانتظار وصوله، غير أن الزمن كان يتحرّك بطريقة أشبه بالكابوس، بالنسبة إلى جبرا، وهو ينتظر قدوم زمزدة، ويعضّ على وجعه، وقد تيقّن أنه خسر ما لم يسعَ إليه، كما يجب.. خسر زمرّدة التي لن تعود، كما ردّد، وهو يحاكي نفسه.

حين لفتت البنت ياسمينة نظر مخدومها، كان خيط رقبتها التالف، وقد تبدت إليه النجمة خماسية الألوان، يتلاعب فوق عنقها، وكانت بلغت عمراً يقارب الثالثة عشر، ولم تكن تدرك أنه سيتعين عليها أن تُصبح أماً، فبنات

الخدمة، اللواتي يعملن في بيوت المدينة، ويمارسن جماعاً مع فتيان مشغليهن، لم يكن خبيرات على الدوام بما ستؤول إليه أحوالهن، غير أنها حين وقفت أمام مخدومها راغبة في أن تقاوم رغبته، أغواها لمجرد أن عينيه مثبتتان فوق عينيها، وكان أن فض بكارتها، وتكرر جماعهما، وفي كلّ جولة جماع جديدة، كان يمنحها قطع الحلوى والشوكولا، ويزيد هداياه، بأطباق من السمك.

عند ذاك، كانت ياسمينة تعود فرحة إلى جاد الحق جاد الله، غير أن دواراً وغثياناً أصابها، وهي تنزل السلّم، وكانت تترنّح في مشيتها، وهي تقطع الزقاق باحثة عن ضائع، قال لها جبرا:

- إنني أنتظره أيضاً.

أشفق جبرا على البنت أيما شفقة، وكان يوطّد حسّاً بالشراكة معها، شراكة تعني أن كليهما ينتظر وكان يعتقد أن شيئاً ما تغير فيه هو، فقد انتقل إلى مرحلة الإذعان للحياة والمشاعر، وكان عاش حياته كلّها في التطرف، البرد والحر القاتل، وكان يمانع حس الإذعان مستعيناً بالشتائم، ويبتكر شتائم، من الصعب تخيلها في وقائع الحياة الإنسانية برفتها، كان يقول:

- في كس أمك وكر أرانب.

غير أن يأسه من العودة إلى تطرفه، جعله يُعلن ملّله من الخمارة، ومن الضحكات المتكررة، ومن بصاق الزبائن، ومن تقيئهم ما بعد تشمم كحولي، يجتاح معداتهم، وكان ضجراً من رائحة الفستق السوداني، وهو ينبعث من أفواه رجال، يلوكونه بأفواه خالية من الأضراس والأسنان الأمامية، وأكثر ما كان يضيق منه طقطقات بدلة أسنان رخيصة، لواحد من زبائنه، كان قد ورثها عن والدته، وفي كلّ مرة ينزع وارث أسنان أمه، أسنان أمه من فمه، كان يكرر:

- رحمة الله عليك، يا أمي.. ثم يُبلّل بدلة أسنانه بكؤوس العرق، ويعيدها إلى فكه.

- أ هذه أسنان أمك؟ سأله جبرا.

- نعم، كانت المرحومة تهتم بأناقتها.. أجاب وارث أسنان أمه.

- لا.. كلّ ما في الأمر أنها خلعت أسنانها، وركبت بدلة أسنان؛ لتعرف

كيف تمص رجالاً دون أن تتسبب في جروحتهم، يا شاطر. قال جبرا ساخراً.

لم يُفلح شكارى خمّارة جبرا بالضحك، كما أفلحوا في هذه المزة، وكان وارث أسنان أمه، يفرقع ضحكاً حتى وقعت أسنان أمه من فمه، مما أدى إلى إحباط جبرا، وقد وجد أنه أخفق في استعادة تطرّفه، ولكم وارث أسنان أمه فوق تلك الأسنان، غير أن مفاجأة كبرى وقعت في تلك الليلة، وهي مفاجأة، لم تكن في حسبان أيّ من سكّان الخمّارة، ففيما كان الشكارى الضاحكون يلحسون دموعهم، دخل صالح، كان وجهاً غريباً على الضبارة، ولم يكن أيّ من سكانها قد تعرّف عليه، باستثناء فرنسا، وقد ثرثرت أمامه قائلة بأن ثمة حكيم كبير في الضبارة يُدعى جبرا السكرجي، وأن خمّارته:" مكانٌ عظيمٌ لرجل مثلك، يبحث عن الوحدة العربية"، وما إن جلس، حتى وقف صاحب أسنان أمه، واتجه إلى صالح مرحّباً، وقد حمل أسنان أمه بيده:

- أنت اشتراكي؟ حسناً، خذ.. هذه الأسنان يمكن أن تتشارك بها.

لم يلحظ وارث أسنان أمه، أن صالح يُدقّق في طقم الأسنان، وهو يقرّبه من نظّارته، فقد كان من عادات صالح أن يُقرّب الأشياء الدقيقة من فمه؛ ليراها عن كثب، وكان من الصعب عليه أن يرفعها إلى أنفه، أو أن يُنزلها إلى ذقنه، وحاله مع بدلة الأسنان لم يكن يختلف عن حاله مع المنشورات الورقية التي كان يكتبها بخط يده، ثم ينسخها بكميات، بواسطة ورق الكوربون الأزرق، مُمهراً ترويساتها باسمه الكامل:"صالح بن عبد الهادي بسيسة"، وكانت أوراقه تتضمن شروحات تفصيلية لمعنى الوحدة العربية، كما لمعاني الخرّيّة، وجلّ ما كان مفهوماً مما يكتب، ما يكتبه عن الاشتراكية، باعتبارها ملكية الشعب لوسائل الإنتاج.

حين أعاد صالح بدلة الأسنان لوارثها، مدّ وارث أسنان أمه كأس العَرَق إلى صالح:

- خذ رشفة، قال له.

وحين نزع منشوراً من منشورات صالح، واستدار إلى جمهور الخمّارة ليقرأ بصوت مسموع مرتفع، تأكّد لوارث أسنان أمه أنه اشتراكي بطبيعته، وهكذا لم يكن لديه أية اعتراضات أن يُقدّم بدلة أسنانه في أية مناسبة لأيّ من فاقدي أسنانهم في حيّ الضبارة، مؤكداً أنها تعمل دون كلل، وأنها

مصفقة كي لا تُصاب بالنخر أبداً، وأنها قطعة أثرية، بوسع الأمة أن تضفها إلى تراث موائدها، كان بوسع الوارث أن يعير أسنان أمه، أو أن يؤجرها؛ وقلّما صادف امرأة بلا أسنان إلاّ وعرض عليها استخدام أسنان أمه، كذلك كان حاله مع رجال فقدوا أسنانهم:

- خذها، إن شئت.. أنت رجل يعجبني.. قال لصالح، وأضاف بإلحاح لافت:

- اسمع.. بوسعك أن تلوك بها ما شئت من القضامة والفستق، وبعد الانتهاء تعيدها لي.

اكتشف جبرا، وهو ينظر إليهما، أنه أضاع مفاتيح خمارته إلى الأبد، وأن خمارته تحولت منذ اللحظة إلى مشاعٍ لبشر، يتشاركون أسنانهم، وحسب تاريخ خمارة جبرا، لم تكن الخمارة لتستقبل وافدين جدد، كانت تتجدد بزبائنها أنفسهم، بالتحولات التي تطرأ عليهم، بالتغيرات الجسدية، كما بالتغيرات النفسية، ومعظمها كان يخضع للمواسم والفصول، بما يجعل أجساد زبائنه تتبدل من موسم إلى موسم، وبما يجعل كلّ واحد من حاملي الجسد، مندهشاً بالتحولات التي تطرأ عليه ما بين المناخ البارد تحت صفيح الخمارة؛ حيث بخار الأنفاس يملأ المكان، أو المناخ الساخن تحت ذات الصفيح؛ لتتملح الأجساد بتعرقاتها نافثةً روائح واخزة.

كان قلقٌ مجهول الأسباب يتسلل إلى روح جبرا، وقد استبدت به أسئلة جديدة، ولم يكن يدري سبباً لكلّ هذا الزهد، وقد حلّ به، فالمواعيد النسائية الليلية باتت منسية، بالنسبة إليه، والنساء المنتظرات اللواتي يتحرقن شوقاً لتحميمه وتدليك كتفيه وظهره ودلق الماء الساخن على جسده، بتن منسيات تماماً، ونكات الخمارة البذيئة التي تتعالى من زوايا المكان، وترتد؛ لتصطدم بالصفيح باتت تثير ضجره، وبات جبرا على قناعة كاملة بأن الحظ غدر به منذ مطلع شبابه، ولابد لهذا الحظ أن يقتله، إذا لم تأتِ زمزدة حالاً؛ ليستوقفها ويقول لها بنظرات خجولة منكسرة:

- أعشقك.

ربّما كان من الصعب على جبرا إدراك التغيرات التي حلّت بروحه، فثقة ظلّ خاطئ على الدوام سيلوح لمن لا يعرف جبرا، فالرجل لم يكن ببعد واحد، ولم تكن المتضادات فقيرةً في نفسه، غير أن الأضداد العنيفة كانت مُحتالة، مُختبئة، جبانة، لم تعلن عن نفسها، وكان من الصعب على من لا

يرى أبعد مما يجب، أن يرى ألوان العاصفة التي تهبّ على قلب جبرا، وهو من حلم طيلة حياته بأن لا يكون أكثر من كزام يُطعم طير الدوري حبات العنب، ثم يزقزق من أجل مخاطبة وحيه.

نهض جبرا تاركاً الخمارة لاحتفالاتها الخبيثة، وكان يتمنى لو أن في روحه شيء من الله؛ ليصوب طريقته في رؤية الأشياء، أو رؤياها، غير أن استحالة استحضار الله إلى حياته، دفعه ليقف في الزقاق ثانية متطلّعاً إلى السماء، متأملاً حبات النجوم، وقد تبعثرت، كما عقد، ظنّه يتدلى من عنق زمرّدة.. كان جبرا أحوج ما يكون إلى نبيّ يأخذه نحو ملاذ ما، أو نحو فكرة خلاص تبتسم في وجهه.

لم يسأم جبرا انتظار عودة جاد الحق، ولم يكن مهيئاً لسماع درويش الحي الذي قلّما التفت إلى جبرا، وكان يمشي ووراءه كلب بثلاثة أرجل.. حين توقف الدرويش متسائلاً:

- ما الذي يقلقك، ياجبرا؟ أجابه جبرا:

- إنني بانتظاره.

- ابحث عنه فيك، يا جبرا، تجده.. إنه في داخلك.

وكان يمشي وهو يُردد:"ابحث عنه فيك، يا جبرا"، وبدأ جبرا باستعراض عمره وصولاً إلى حواف الكهولة، وقد امتدت مخالبها إلى أخاديد وجهه.

مرّة قال درويش الحي لجبرا، وهو قليل الكلام، نادر الظهور:

- إن الله فينا.. في كلٍّ من هؤلاء الحمقى إله، يا جبرا، من عرف إلهه، نجا، ومن لا يعرفه غرق في الألم.. حين تعرف الله، تراه في مرآتك.

كان جبرا يأمل أن يؤمن بالله، أن يخلّصه إيمانه من الدماء البلهاء التي تجري في دمه، وأن يهجر إلى غير عودة مسار حياته السابقة، غير أن التقاط صوت الله، يستلزم سراج حب لا يخبو، فالله لا يحضر إلى ضجيج الداخل، ولا يستكين حضوره سوى بالتأمل و .. بزمرّدة.

إنه الألم، ولأن الله فينا، قال جبرا لنفسه، وهو يتابع ابتعاد الدرويش وكلبه، وما إن التفت نحو نهاية زقاق، ينفتح على الحي، ويقود إليه حتى أطلّ جاد الحق جاد الله:

- تأخرت، قال جبرا للصبي جاد الحق جاد الله.

كان جاد الحق جاد الله قد عاد من احتفالات عيد الاستقلال، بعد يوم شاق، تنقل خلاله مستطلعاً واجهات المحال التجارية، وهو يتأمل لمدة طويلة الأرنب السيبيري الذي يلتقط بفمه حبة الحظ، ليقول مشغل أرنب الحظ:

- إنه يقول لك إنك ستكون بطلاً، يا بطل.

بعد أن قرأ الأرنب السيبيري حظ جاد الحق جاد الله مؤكداً له:

- ستكون بطلاً، يا بطل.

دفع جاد الحق كامل مدخراته المالية البالغة نصف فرنك، كان قد ناله عن مجهود متواضع في رفع مخطوطات عن رفوف عزرا، ولم يكن ليتقبل عبث الأرنب السيبيري مكتشف المستقبل وقارئ حظوظ البشر كان ينتظر من الأرنب السيبيري أن ينبئه بمكان آنـا، وأن يستجلب له شيئاً من رائحة أنفاسها، وهي تكرر لفظ حرف الهاء مشبعاً ببخار فمها.

ما إن عاد إلى الحي، ووقف أمام جبرا، حتى بدا مستسلماً، وذراعاه مسترخيتان على طولهما، قال لجبرا مبرراً غيابه بأنه كان يبحث عن شغل.. ثم صمت:

- شغل ماذا؟

- شغل.

- هل تريد نقوداً؟ قال جبرا.

- لا.. معي.

- معك.. أرني.

تثاقل جفن الصبي، وصمت، وكان على جبرا أن يمد يده إلى جيبه:

- خذ.. خمس ليرات.

- ثم: تعال نتسكع معاً.

مشاعر الخبل، ظهرت على ياسمينة، وما تزال بانتظار عودة جاد الحق جاد الله، وكانت تتأرجح ما بين فعلين، فرح موزب، وتكشيرة رمادية، ولابد

أنه من الصعب على العقل المبني على الحساب أن يعرف تلك الحقيقة الضالّة في الروح الإنسانية، وتحديداً في روح المرأة التي تجعل من الأمومة جوهراً لحياتها، ومع أن ياسمينة لم تكن تُدرك حقيقة تغيراتها الفيزيولوجية، ولم تكن تعرف أنها حبلى، غير أن جسدها ذهب نحو ما يُدرك، ومع أنها كانت قد دخلت متحفاً للغرام، مع مجموعة من صبيان مُشغّلها، غير أنها لم تكن تعلم أنها ستحبل، أو أن ملامسات الأصابع والقُبَل تؤدي إلى الحَبَل، وحين زادت ملامسات الصبيان عن القُبَل، كانت في حقيقة الأمر تجهل أن هذا الفعل يؤدي إلى هذه النتيجة، فالأمهات، مدرسة التكاثر، ومعلمات بناتهن ومرشداتهن إلى الحذر، لم يكن لها منهن أماً حية؛ لترشدها، ولهذا لم تكن ياسمينة لتفطن أنها ستذهب نحو مصير، سيطويها أماً في هذا العمر المبكر.

لم تيأس من الصعود إلى سطح الغرفة، وهي تتسلّق السلّم مُجهدة، ولم تكلّ من انتظار عودة جاد الحق جاد الله، وحين لمحته عائداً برفقة جبرا، وهما يخرجان من أزقّة الضبارة، وقد ظهرا من عتمة ليل الأزقّة، نزلت السلّم برشاقة ظبي؛ لتلحق بهما.

كانت تتمنى أن تداهمه الشجاعة، ويضمّها إليه، ويرفع تنورتها إلى الأعلى، وكان مُولَعاً بالنظر إليها، فيما بدت أكبر مما كانت عليه في الأيام العابرة، قال لها:

- ولا شيء.. أنا والعم جبرا.

ربما هزّت جبرا كلمة (عم)، فلم يكن أيّ أحد من سكّان الحي ينعت جبرا بـ"العم، الخال، السيد، الأستاذ"، كان له اسم واحد يخاطبه به الجميع: جبرا، وكأنما لهذا الاسم مخزون من الصفات، أو ربما كان نعتاً، وليس اسماً، بالنسبة إلى الكلّ، حقيقةً بذاتها لم تختلط بأيّ من الحقائق الإنسانية الأخرى، وهو الرجل الذي دخل الحي، وأقام فيه، ولم يكن قد تلقّى ولو لمزة واحدة أيّ سؤال يتصل بسلالته، أو أهله، أو أياً من الحقائق التي تمتدّ إلى ما قبل كونه "جبرا".. إن هذا الحي منحه إحساساً عميقاً بالأزل، وجعله يعيش، كما لو أن الإنسان منقطع عن سلالته.

- تعال، واشتغل عندي، قال جبرا مخاطباً جاد الحق جاد الله.

قال له، وكان الثلاثة يتجهون نحو بيت زمزدة، عائدين من رحلة تسكّع، لم تطل، فقد كانت عائلة من سكّان الحي تعمل على تفكيك خشب تابوت،

وتحويله إلى ألواح تسدّ الثغرات المتسلّلة إلى كوخها، تحسباً لبرد الشتاء الذي بات يلوح في أفق الليلة، وحين توقّف الثلاثة أمام العائلة، أقسم الرجل، مالك التابوت الجديد، أنه عثر على هذا التابوت فارغاً، لكنه يحمل رائحة جثة.

بعد هذا اللقاء، استدار الثلاثة عائدين إلى الحي، وكان جبرا على علم بأن سارق التابوت هذا، ليس سوى لص محترف، وهو أب لبنات كثيرات، شقراوات وسمراوات، واحدة ذات نمش في الوجه، تُطرّز زهوراً جميلة، وتبيعها مع وسائد نوم؛ ليسرق أبوها الوسادات من المشترين، ثم يعود إلى بيعها؛ ليسرقها منهم مرّة ثانية، وكان هذا اللص أشدّ عزلة وانكفاء وصمتاً من قبر، وليس ثمة شك في أن يده اليسرى لم تكن لتعلم ما الذي تفعله يده اليمنى، كان له غموض وجه بدوي، تحدّر من شيوخ الصحراء، وهذه مفارقة كان يمكن أن تُشكّك جذرياً بحقيقة أن تكون البنت الشقراء من صلبه.

حين دخل الثلاثة إلى غرفة زمزدة، كان أول ما لَفَت جبرا قميص نومها، وشالاً صوفياً ملقى إلى جانبه، وحمّالة أثداء، تثقّب منها تجويف الثدي الأيمن، وكان الخبث، وقد جرى في عروقه، يدفعه إلى تأمّل تفاصيل الغرفة بسخاء، يقوده باحثاً عن مكان، يمكنه الجلوس فيه متربّعاً.

تعال، اشتغل عندي، كرّر جبرا اقتراحه على الصبي، وكان من الصعب على واحد مثل جبرا أن يشغّل أحداً في خمّارته، لسبب من السهل إدراكه، وهو أن جبرا نفسه لم يكن يشتغل، فالخمّارة كانت تدير نفسها بنفسها، وليس ثمة زبون واحد إلا ويعرف طريقه إلى قطرميز الفستق وقناني البيرة وبطحات العَرَق، وحتى إلى درج النقود؛ حيث الفرنكات المثقوبة وأرباع الليرات والليرات الفضية، ولم تكن خمّارة جبرا تتسع لنادل، يتحرّك في مساحتها الضيقة.

حين جلس جبرا، وهو ينظر إلى عيني ياسمينة، لاحظ تحرّقها للصبي، كما لحظ أن وجوده إشبيناً في هذه اللحظة، يعني أنه سيخُمد هفتها، ففضّل أن ينهض مغادراً، تاركاً ياسمينة واقفة أمام جاد الحق جاد الله، وقد تنبه إلى أصابع قدميها، وهي تنفرج كما أصابع اليد، حرّة، متباعدة.

بعد أن غادرته زمزدة، فضل قتيبة شهاب أن يتابع الثرثرة، فالرجل كان يعوزه الكلام، لا الجنس، ولا الأثاث المنزلي، ولا حتى الزوجة، وكذلك لم يكن يعوزه الأولاد الصالحون، اتجه إلى مرآة مُذهبة في صدر صالة بيته الكبير، بيته المملوك له في نهاية شارع الصالحية، غير أنه بيت مهجور، لا يكسر وحشته سوى إدارة المفتاح في مغلاقه النحاسي الوحيد، وأمام المرآة، تابع الوقوف، وكأنه يحاكي زمزدة، قال لها إنه ينهض في الخامسة صباحاً، وإنه أقوى وأسمى إرادة شهدها التاريخ الإنساني.. قال مكرراً:" على مرّ العصور"، وبدا وكأنما يعاني من حيرة أفكاره:

- الحيرة، يازمزدة، سخافة، ولكن؛ على أيِ عتبة يقينٍ سأقف، والموت ينتظرني على الباب.

كونه التقط جوهر مشكلته، وقد حددها بالحيرة، كافأ قتيبة نفسه بأن رفع قبضته للأعلى صارخاً:

- وجدتُها... بعد هذه اللحظة، لن أحتار... ثم خاطب مرآته قائلاً:

- إن أساس تفكيك المشكلة هو التعرّف على المشكلة... إن مشكلتي في الحيرة.. الحيرة اللعينة.

بحماسة نبي، بعثر قتيبة شعره، ثم أعاد ترتيبه، وبعدها، أعاد بعثرة شعره؛ ليعيد ترتيبه على نحو آخر، ثم قرّر بصورة نهائية إلغاء خط الوسط منه، مؤكداً أنه في هذه اللحظة سيقف على عتبة اليقين متجاوزاً حيرة سكنت رأسه منذ سنين، كان أحوج ما يكون إلى إخبار أيٍّ من البشر عن كونه تجاوز حيرته، غير أن الوقت قارب الفجر، والروبير، لن يكون جاهزاً لاستعارة أنباء جديدة سوى أنباء رجالٍ، يبيتون في أحضان مومسات، طالبين حلبهم حتى استنزاف مائهم من ظهورهم، بما يوازي حجم الإنفاق على ليلة طويلة، تبدأ فيها ملامسات بنات الروبير بأياد من حرير، ومن بعدها؛ تكون أياديهن أكثر خشونة تبعاً للإعياء النفسي والجسدي الذي سيلاقينه ما بعد الغثيان، من زبائن يرتخون دون أن يكفّوا عن طلب إدخال أصابعهم في البنت المستأجرة.

كانت زمردة قد اعترفت لفرنسا أن قتيبة ليس أكثر من رجل يحكي، إنه يحكي فحسب، يا فرنسا، والله العظيم، لم يخلع بنطاله، ولم يمد يده إلى فستاني، ولم يقل كلمة واحدة، بوسعي فهمها، وها أنت كما ترين، وضع في يدي ليرتين ذهبيتين، ذهبيتين، يا زمردة، واحدة لك، والثانية لي، وكان عازماً على منحي ليرة ثالثة، كان يقترب، ويبتعد، وكلما يبتعد، ويقترب يختلف طوله وحجمه، فهو يطول ويقصر، ويثخن وينحف، حتى لون عينيه يتغير، وهدجات صوته كذلك، ورائحته تتغير أيضاً، ومع كل اقتراب وابتعاد كنت أشم رائحة مختلفة، كانت أشدها قوة رائحة القش.. رائحة القش، يا فرنسا، نعم، كانت تنبعث منه رائحة القش التي تتحول إلى رائحة تبن.

كان قتيبة قرر اغلاق مكتبته إلى الأبد، ولم يكن القراء العابثون، المارون من أمام بوابتها المغلقة ليسأمون من تكرار سؤالهم عن حقيقة اليافطة المثبتة على واجهتها:

- المكتبة مغلقة حتى إشعار آخر.

وليس بوسع أيٍ من هؤلاء، بمن فيهم شعراء الموجة الجديدة الصاعدون مع أسئلتهم الوجودية المحمولة على ما أنتجته الحرب العالمية الثانية قادرين على فك لغز مكتبة قتيبة، وقد بدت، وكأنها قد أقفلت مغاليقها إلى الأبد.

- التبن في منخريك، أنت... ليس لرجل في الدنيا رائحة تبن إلا إذا كنت قد تواعدتي مع تيس.

- لا... وحق الله، رائحة تبن...

أكدت زمردة، ثم رفعت من يدها كتلة أوراق مكتوبة بخط بالوسع قراءته بيسر:

- انظري.. ترك هذه الأوراق هنا، أو نسيها.

لم تكد فرنسا تتفحص أوراق قتيبة حتى انفجرت ضاحكة:

- هل قرأت هذه الأوراق؟

- لا.. لا أحب القراءة، ولا الكتابة.

- إذن؛ سأقرؤها لك.

- وأنت، هل تعرفين القراءة والكتابة؟ سألت زمرة.

- يووه.. نعم، بوسعي أن أقرأ حتى المكتوب على كلسونك.. حتى انظري.

وما إن رفعت فرنسا تنورة زمزدة حتى قرأت:

- إنه قلب وسهم، ثم بدأت تقرأ ما كتبه قتيبة:

لا تحجب عنك الرؤيا..فقط؛ كي لا ترى

لحسن الحظ أنك تذهب إلى آخرتك أعمى

لأن العين تخون البراءة..خيانة مجلجلة..هي هكذا..العماء شيء آخر..صفحة بيضاء، وإن كنت قد ظننتها على غير ذلك.

كما عاداتك في الصباحات المبكرة، لم تسأل إذا ما كان لك قلبٌ باردٌ ويدٌ دافئة؟ أم عكس ما تُحدثك به المرايا؟..

ما دام الأمر هكذا..كسر مراياك..

ما العيب؟

كسر عظامك أيضاً.. ثم:

امكث على قاعك.. أو فيه.. لا فرق

لا الزمن منحوتة من طين...ربما، ولا الوقت يملك أكثر من متاهة، أو متاهتين.. وإذا ما كان باذخاً يملك مئة متاهة، أو بعض متاهتين، وبعدها ستكون مضحكاً وكفناً.

أنت هكذا

قلها..

لا أبواب لتفتحها..ولا مفازات لتقطعها

ما بين الرغبة والاحتضار..احتضار..

ما بين الوقت والسديم.. ذواكر خربة

لا شيء يعصف بك، إن لم تكن أنت العاصفة

أنت رجل شجاع؟

لا تقل هذا

قل: أنت على باب الله الموصد

أو قل: ذاك الباب أشاح بوجهه عنك

وارفة ظلال النحاس الصدئ

من رأسك حتى قدميك، بت مرسوماً، كما لو كنت عصفوراً أو حصاناً أو جبلاً

من رأسك حتى الأخمص.. أنت وديعة مخمزة في صندوق، يستفزه الرحيل إلى الاخرة

هذا أنا، وكذا هو أنت

نكتة تتلوها أمك وأمي

من بين جسدين جئنا

جسدين يفترشان تعرقات الشراشف

في عويل يتخفى برداء اللذة..هي الحكاية هكذا..

هي كلّ الحكاية..وكان علينا أن نُجمّلها،'نجملها...

نعم..لا لشيء..فقط..لنخون مراسم العزاء ومهرجان الحقائق الجارحة..

أيها السيد..لا بد أن أغسل يدي منك..وأنت.. لابد وأن تغسل مناديلك مني..

هكذا ندخل اللعبة..

مساحة حربنا التي لم نخضها..

مساحة خزلتنا التي لن ننالها

مساحة ما بعد الزمن..ما بعد بعد المطلق

مساحة بياض سيكتبنا؛ نكون: ريشة طائر.'خف متسول..قفاز أميرة..تاج ملك..سروال غانية..فأس حطاب..أو منشار نجار.. وربما..أول

حروف الهجاء:"ألف "

حين سيحصل هذا، أوصيك بأن:

تنثر رمادي في الريح، علّ الريح تكتب اسمي، كما لو كنت قبراً، أو شبه شاهدة

قد يكتب الريح:

هذا الرجل ودّع عالمكم؛ ليودعكم تسبحون في الضفة الفارغة..

هذا الرجل سينجو، باعتباره اختفى...

ما هذا التخريف؟ تساءلت فرنسا، ثم لوت على زمزدة تقول لها:

- هل ينام معك كلاماً بكلام، يا زمزدة؟

كانت زمزة تتلهف شوقاً إلى صبيها جاد الحق جاد الله، غير أنها وحال أن تساقطت على حافة مقعدها، رمقها فرنسا بنظرة وعلٍ جريح، ثم توقّفت أمامها؛ لتقول لها:

- ليس من حقك أن تعشقي، إن كلامك عن هذا العجوز يقول بأنك تحبينه.

- لا... أقسم أنني لم أحبه، كلّ ما في الأمر، أن رائحته رائحة قش.

كانت فرنسا قد فتحت حقيبتها، وبعثرت قصاصات ورق مرسوم عليها بورتريهات صغيرة بقلم رصاص، بورتريهات لبنت بشعر مجدول، وأخرى بشعر معقوص، ولم تكن ثمة لمسة من لمسات الخريف قد بدت على ملامح البنت، وكانت جادة حين أفردت الرسومات أمام زمزدة:

- انظري، كيف كان يرسمني.

- كان رساماً؟ تساءلت زمزدة.

- لا... كان جندياً، نعم، كان فرنسياً، ولم يكن زبوناً.

- ألا يصلح الفرنسي؛ ليكون زبوناً؟

- على المرأة أن لا ترى في الرجل سوى زبون، ولكنها الخطيئة، يا زمزدة.

كانت فرنسا تفحصت ثنايا وتفاصيل فتيبة، وكانت قد لمحت سيارته الفورد السوداء، وهي من ذات ماركة رئيس البلاد شكري القوتلي، سيارة بلا سقف، بالغة الضخامة، سوداء، نظيفة برّاقة، وكانت على اعتقاد بأن فتيبة هذا سيسجّل لهما تاريخاً جديداً، نعم، هذا الرجل ليس صباغاً يزول، إنه ماضٍ سيأخذنا إلى الحاضر، كانت فرنسا تعتقد، وإن كانت اللغة تخونها في الوصول إلى هذا التعبير الدقيق:

- إنه بيك، يا زمزدة... بيك... سيارته تماماً مثل سيارة شكري بيك.

- من هو شكري بيك؟

لم تكن زمزدة تعرف اسم رئيس البلاد، ولكنها كانت شديدة الولع بأن تلتقط ما يختبئ وراء وأمام لفظة بيك، ولفظتها فرنسا بغنائية، لم يقطعها انحباس النفس:

- إنه، وصمتت؛ لتستكمل:

- لا بد وأن يكون لديه الكثير من الحقائب المليئة بالمال.

قالت ذلك، ولكنها لم تكن تعني رئيس البلاد بقولها هذا، فقد درج السوريون على تداول كلام عن رئيسهم، كلام يتناثر مرذذاً زهد الرئيس، وحرصه على المال العام، ومجافاته لكلّ ما يتصل بالثراء، وكان شكري بيك قد أصبح رئيساً للمرّة الثانية لبلاده، ففي رئاسته الأولى، وكانت أعقبت الاستقلال، انقض حسني الزعيم ومجموعة من الضباط على الحكم، وأودعوا الرئيس السجن، وقد سجل الرئيس استقالته راجياً العز والكرامة للشعب السوري، ممهراً استقالته بتاريخ ٦ نيسان ١٩٤٩، وفي عودته للرئاسة ١٩٥٥، لم يتغير شيء في الرئيس، كان شأنه شأن كل الحالمين، بفارق أن حلمه لم يكن حلم فنان، يفرض رؤيته على العالم، أو حلم ديكتاتور يخالك عبده، كان حلمه حلم فلاح مع أنه مديني، وكانت ذروة أحلامه أن يوطد للبلاد جذوراً، تمتد أغصانها إلى محيطها العربي، وهذا ما دفعه إلى أن يكون واحداً من جمهور الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وقد انتظر من الرئيس القومي معجزة إدخال العرب إلى التاريخ، وكانت مصر على حافة العدوان الثلاثي ما بعد تأميم القناة.

شكري القوتلي... سيارة الرئاسة السوداء... وتطلّعات فرنسا، كلّها بدت كما لو أرجوحة لزمزدة، وقد تنقلت من أحجية إلى أحجية في لعبة مرهقة، فمنذ تعرّفها إلى فرنسا، كان عليها أن تواجه أسئلة، تتجاوز في غموضها

ورق حشيش تلّ الغزال، قريتها النائية، وشعوذات مولانا أبو عمار، كما أحجيات المصابغ والألوان المسحورة التي تحط فوق النسيج، وبات عليها أن تستطلع أكثر، لتعرف أكثر، وهو ما يشدها إلى تحمّل ملاحظات فرنسا الجارحة حيناً، والباعثة على الشفقة، في أحيان أخرى، ولم تكن زمزدة حريصة على أن تبقى عذراء، في متاهة كرخانة الروبير؛ حيث ستقضي فصل الخريف بكامله في هذا المبنى، بردود فعل مشروطة، وهي تصوب أصابعها نحو زبون وصل تواً، فاتحاً أذنيه على آخرهما، وهو يهز كتفيه.

- أظن أنني سأدفع... قال الزبون، والتفت إلى زمزدة.

بمقتضى القوانين الموروثة، كان جرح بكارة البنت يستلزم الكثير من الزغاريد والمحتفلين، وكان جرحها يعني تقدم البنت نحو عالم السلالات عبر زوج، يخرج رافعاً يديه للأعلى، مثبتاً فحولة، ما كان لها أن تكون دون تلطيخ رايته البيضاء بالدماء، ليبوح برسالته دون أي فرصة للتشفير، ودون أي مساحة للشك، وهو يستمتع بقوة أن يركع فوق البنت، ويندفع، مستعيناً بحركة من يده، وهو يكبح هزّة الجماع، وفي الباطن العميق، ثمة شعور بالذهول.

تحت زمزدة، كان الشرشف الأبيض قد ابتقع بالدماء، ولم تكن ثمة زغاريد، كان فم الزبون يبحث عن فمها، وساقاها يرقدان فوق كتفيه، ولم تكن لترتخ مبتعدة عنه... كانت حريصة أن تنهض من تحته، راغبةً بارتداء سروالٍ داخلي مشقوق من الأمام والخلف، كاشفاً سرّها المجروح، وهو فعل، لم يكن من الممكن إنجازه مع رجل من طراز قتيبة، رجلٍ حكّاء، كان عليه أن يكون على غير ما هو عليه.

لا يجب التغاضي عن شيء، كانت فرنسا وضعت الرجل المثقب تحت رزمةٍ من الشروط، وكان حفّزها بتلبية كلّ شروطها:

- كلّ ما تشترطين، يا فرنسا.

- أريد لها فساتين، وعقد رقبة، وأحذية جديدة، وملابس داخلية كاملة... أريد تجهيزها، كما عروس... قالت له فرنسا.

هل سبق وأن نُوّمت مغناطيسياً، سألت فرنسا زمزدة حال أن خرج الرجل المتعب من غرفتها في الروبير، وقد نقدها خمس ليرات ذهبية، وقبل أن تفكّر زمزدة بالإجابة، قالت لها:

- اسمعيني، أنا فرنسا، اختبرتُ الرجال، وعرفتُهم حين لم يعد ثقة قيمة للمعرفة، حين تحدق الأفعى في عيني الفريسة، تسقط الفريسة، وُتنوم تنويماً مغناطيسياً... كوني أفعى.

لم يكد الصباح يهلّ، حتى كانت فرنسا وزمزدة في الحميدية، تتجولان بين نكهات العطور والأقمشة، معجزة السقوف المغطاة والضوء الذي يتسلّل كاشفاً وجوه فلاحين هائمين على وجوههم، وعرائس يبحثن ببلاهة عن إنكار ماضي ملابسهن، وتجار يقفون وراء بسطات، وبأيديهم وحدات القياس، ومحلّ يتيم متخصص في بيع الآلات الموسيقية، كمنجات، وأعواد، ومعدات إيقاع من طبلةٍ ورق، وكان ثمة صبي صغير يختبر أوكورديوناً بحجم صدره، يُطلق منه معزوفات راقصة، توقّفت أمامها زمزدة حتى سحبتها فرنسا من يدها؛ لتقول لها:

- هيا، اليوم سأغيرك، يا زمزدة.

كانت فرنسا عازمة على دعم الطبيعة البشرية، وكانت التقطت حكمة أنه ما من أحد يمنح نفسه لأحد، وكانت تعلم تمام العلم، أن بمقدورها سحب زمزدة من أمومتها؛ لتجيبها عن سؤال:

- ماذا سيكون قد حلّ بالصبي.

- ليس صبياً، أجابت فرنسا... لقد غدا شاباً، إنه لمن الخطأ أن ترهني حياتك له.

ما إن استكملت زمزدة شراء الثياب، وكانت واقعة تحت اختبارات فرنسا، حتى وقفت أمام المرآة متسائلة:

هل هذه أنا؟! ثم راحت الكلمات تتدفّق من فمها كما الرصاص، وكانت تتلفظ كلمات بذيئة، لم تكن لتخال نفسها أنها قادرة على التلفظ بها حتى بينها وبين نفسها، كلمات تشتم اليأس والحرمان، وتؤكّد حدس فرنسا، وقد عثرت على ما يكفي من الثقوب في روح زمزدة، وهي الثقوب التي ستحول دون أن يتسلّل منها صبيها بالتبني إلى قلبها ثانية، وإن كانت تقول كلماتها بدافع اليأس الذي يجعل الحياة تفعل بها ما تشاء حين تشاء الحياة أن تفعل.

حتى أيامه هذه، كان جاد الحق جاد الله الصبي يقبع تحت الزمن، غير أن اشتياقه لأمه بالتبني، لم يجعله يجازف بالبحث عنها، فقد كان على علم

بأنها ذهبت مع فرنسا، وكان على علم بمقدار الكراهية التي تكنها له فرنسا، دون أن يعرف سبباً لهذه الكراهية، وأشد ما كان يعبث بروحه، هو إيمانه بأنه لا يعدو أن يكون ولداً حالماً يترصد ظهور آنـا في كل حين، في الوقت الذي بدأ حياة جديدة مع ياسمينة، البنت التي تتحسس وجوده، وتعلن جوعها الدائم إليه، وتقول له:

- جزب ثانية.

- لماذا لم يكن حبه لياسمينة كافياً؛ بحيث يجعله يجزب ثانية، وينسى آنـا؟

ربما لأنه لم يدرك حقيقة المشاعر التي تحملها ياسمينة إليه، فقد نبتت البنت بين أكواخ الصفيح، ومن يولد في أكواخ القمامة هذه، لا أمل لديه ببعث جديد، كان ذلك إحساساً صحيحاً لدى الصبي، ولكنها كانت تتفحص مخطوطاته التي أودعها عزرا بكثير من الخبث، وكانت تبري له أقلامه الرصاص، وكانت تطلب منه أن يعلّمها الأبجدية، وكانت تفرغ صرتها أمامه، وتقول له:

- خذ... ليراتي لك.

حين نهضت ياسمينة؛ لترتب وضع فستانها، نهضت على صراخ سكّان الحي، وقد وصلهم توّاً خبر الاعتداء الثلاثي على قناة السويس، كثيرون خرجوا إلى أزقّة الحي بالملابس الداخلية، نساء كثيرات ظهرن متألمات، خمرة الجنّة اندلقت فوق وارث أسنان أمه، امرأة مليحة وسافلة تُدعى مياسة، قضت جديلتها محرّضة الرجال على الالتحاق بالحرب، وركوب البحر؛ كي ينجدوا عبد الناصر، قصائد متولدة فجأة، انطلقت على ألسنة رجال، وكانت قصائدهم تشكو من سوء اللغة، والكلّ كان مجمعاً على التوجه إلى الله بأن يفعل شيئاً في مواجهة البوارج الحربية التي تمخر البحر الأحمر، وعلى الطائرات التي تقصف بورسعيد، وكانت حكمة الإذاعة تنتقل من فم إلى فم، وصار جميع سكّان الحي ذواكر صافية، تخزّن كلام إذاعة الشرق الأدنى، ثمّ تعيده دون تشويش يذكر، وكان صبيان وبنات يوزّعون الناطف والمعمول على السكان المتجمهرين استعداداً للحرب، فيما كان صبية آخرون يبددون بولهم على الجدران، متجمهرين حول مباريات مألوفة، تتصل بمبارزات قوّة الرشقات، وحده جاد الحق جاد الله بقي في مكانه، وياسمينة إلى جانبه تبحلق فيه، أما هو؛ فكان أشبه بحيوان حبيس شرس.

كان ينظر إلى ياسمينة نظرة الحيادي العنيد الذي لا يتأثر بالإغواء، اقتربت منه، معيدة رفع تنورتها بعد أن صلّحتها، ولم يكن يعلم كيف انساق وراءها؛ ليصل إلى مركز جسدها المبهم، كما غموض الأصوات الوافدة من الخارج، كان ينشُد أن يرى نصف رؤية، وأن يتحاشى صوتها المستثار.

حاولت ياسمينة أن تلاعبه، وحين استجاب لمداعباتها، بدا كما سمكة انتحارية تقفز من حوض السمك متدحرجة إلى اليابسة، ولكنه حين أمعن فيها، تحوّل لون عينيه إلى لون كهرمان أسود، وصار الصبي موج بحر يتدفّق.

في الخارج، ثمة عالم آخر، شديد الاختلاف، فقد خرج سكان دمشق إلى الشوارع، وكذلك كان حال مُدن الساحل ومُدن الجنوب، ومن ثم؛ الشمال، في كل حين، هناك من يستطيع اقتناص الفرص، فالمطابع استعدّت للحدث، وبدت صور جمال عبد الناصر تُباع محمولة على أسناد خشبية، كما تُباع الأعلام الوطنية، وبصرف النظر عن حاملي الأعلام، فما لا يمكن نكرانه، هو أنّ السوريين كانوا أحوج إلى زعيم كاريزمي، ولم يكن شكري القوتلي، ذاك الزعيم الذي تضبط ساعة يدك على خطوته، لم يكن ذاك الزعيم الذي تشتهيه البنات، فالثورات تأكل الآباء، وتوطد العشاق، وكان شكري بيك أباً، وكان ناصر حلم بنات، لا يترددن في الإصغاء لصدى صوته، ويتقلّبن في أسرّتهن حالمين بالوعل الأسمر الذي انقض على قناة السويس، وباتت شوارع العاصمة ليلتها مندفعة وراء الروح الحالمة التي تعني الانتصار، بعد سنوات من هزيمة ١٩٤٨ عندما كانت البارودة التشيكية تُطلق رصاصها إلى الخلف؛ لتقتل جنود جيش الإنقاذ وقائده فوزي القاوقجي.

قريباً من جسر فكتوريا، كان يسكن رجلٌ يقتني غرامافوناً أشبه بغرامافون فرنسا، يتهلّل فرحاً، وهو يسحب أسطوانة، ويحط مكانها أسطوانة أخرى، والليل ينادي مُطلِقاً صوت أسمهان.

- من الذي أمر بكتابة التاريخ من جديد؟

صحيفة دمشق المساء، تجنّدت لحرب السويس، ويوميات بورسعيد، كما بقية صحف العاصمة، كانت مبارزة بين مرحلتين من الزمان، زمان الهزيمة وزمان النصر، لغتان تولّدتا من معجزة التهوّر التي قادها جمال عبد الناصر، وكان ثمة من يدعو ذاكرة الأمس إلى التلاشي، يقابله من كان ممسكاً بذاكرته، دون أية مساحة تهتزّ بين كفيه.

لم يكن قتيبة شهاب من الرجال الحالمين بأي انتصار، كان ينتظر زمزدة على موعد جديد، ويتأمل لوحة علّقت منسوخة عن الرسام الفرنسي رينوار، وحين دخلت زمزدة، بثوبها المورّد الجديد، بدت كما أميرة:

- ما هذه اللوحة؟

- إنها العشاء الأخير لرينوار.

- صاحبك رينوار هذا تعشى لمرة واحدة؟ سألت زمزدة.

حين يصاب قتيبة شهاب بانفعال الفرح، أو انفعالات الحزن، يطقطق أصابعه، هكذا كانت عاداته على مر عصوره، أو يتجول جيئة وذهاباً في بيته الذي زيّنه بأجمل ما في زمانه، مزخرفاً أثاثه بلون الذهب، وقد حفرت فوق الخشب نقوشٌ برسوم دقيقة الصنع، تحمل الكثير من تصاوير الصيد والغزلان، كانت المرايا منثورة فوق الجدران، كما لو أنها الفضيحة التي ثبتت في الزمن.

حين ترددت زمزدة في تقبل مديحه لها، عندما قال لها إنك أجمل مخلوق، أخفى حزنه، ثم أشار إلى المرايا:

- ما نفع هذه المرايا، إن لم تدلّك على جمالك؟

لا شك بأن زمزدة اغتبطت بمغازلته لها، ولا شك - أيضاً - في أنها تحولت إلى واحدة من المتمسكين بطواحين الهواء الدونكيشوتية التي تبحث عنها البشرية منذ بدء الخليقة، والأهم من هذا وذاك أنها رأت المرايا تُرسل صورتها من المستقبل، وليس من الماضي، أو من هذه اللحظة.

حكت له، أن ما يشغلها، أكثر ما يُشغلها، ولدها بالتبني، جاد الحق جاد الله، كان قتيبة مرتاحاً لبساطتها، وفطريتها، وللغتها الواضحة التي لا تبحث عن معنى في الدلالة، وما الذي يمكن أن أفعله لأجله، قال لها:

- أريد أن أطمئن على مستقبله. أجابت زمزدة.

- حسناً.

تحرك قتيبة نحو هاتفه، وكانت تلك أول مرة ترى فيها زمزدة جهاز هاتف، وحين كرر تحريك مانويل الهاتف طالباً رقم صحيفة دمشق المساء، طلب من محدثه على الجهة الأخرى من الخط بما يشبه الرجاء:

- أريد شغلاً لهذا الشاب.

لم تطل المكالمة كثيراً، فقتيبة، الرجل الأحوج إلى البوح والثرثرة، شديد الحرص على أن يمارس الادخار في الكلام مع البشر، فإذا ما تكلّم مع البشر العاديين، فإن ذلك يعني أنه سيهبط إلى العالم السفلي طائعاً مختاراً، وهذه خطيئة لم يكن يشاء الوقوع بها.

قال لزمزدة، وهو يربت على كتفها:

- سنشغله في الجريدة.

ثلاث ميزات جمعها رئيس تحرير وناشر صحيفة دمشق المساء، الأولى أنه لا ينام قبل تلميع مجموعة أحذيته، وترتيبها في خزانة الأحذية، ولاشك بأنها تساوي في أناقتها خزانة ملابسه، والثانية أنه يداوم على وضع قلم الرصاص خلف أذنه، أما ميزته الثالثة، فهي أنه كان يمضغ عقب سيجارته، معتقداً أنه يميت السيجارة؛ لتحييه، وكان منهمكاً في أخبار الحرب، تماماً كما ينهمك مع كلّ ما يصادفه، بما في ذلك مصادفات الأعطال الطارئة لصنبور المطبخ، وتستطيع القول، إنه في اللحظة التي أطل فيها جاد الحق جاد الله نحو مكتبه، حرّك سبابته مشيراً إلى جاد الحق جاد الله بأن يجلس دون أن يلتفت إليه.

كان منهمكاً في قراءة مقال ساخر، لواحد ممن يطلق عليهم ظرفاء المدينة، والمقال، وقد ابتدأ ببيت شعر، كان هجاءً صريحاً لمجموعات السياسيين الذين يجلسون في مقهى الرشيد، والحرب تقرع الأبواب، يسردون ذكرياتهم؛ ليختاروا أكثرها قابلية لإضحاك سامعها، غير أن مصادر إخفاق المقالة، كمن في ضياع الكاتب ما بين أغراض السخرية، وتهذيب القومي السوري الاجتماعي، وهو الحزب الأكثر تمسكاً بمناقبية اللغة، ومناقبية السلوك، كما ضيق العقيدة وفولاذيتها.

حين نظر إلى جاد الحق جاد الله، ومنذ اللحظة، لم يعد جاد الحق جاد الله صبياً، سأله:

- هل تعرف كيف تصنع الشاي؟

لم ينتظر لجيب، وكان هذا اسمه، إجابة، فقد أمسك بالصبي من يده وساقه إلى المطبخ.

- هنا الشاي، هنا السكر، وهذا هو الإبريق، وهذه هي الكاسات.

وبنفس الدقة والحماسة التي يتابع فيها قراءة مقالات كتاب صحيفته، أكد على جاد الحق جاد الله أن يدلق السكر بعد غليان الماء، ومن ثم؛ يكيل حفنة من الشاي، و:

- لا تدع الشاي يغلي في الإبريق... دعه يتخمر.

على كرسيه في المطبخ، التقط جاد الحق جاد الله صحيفة مهملة، كانت - في حقيقة الأمر - قد وُضعت تحت كاسات الشاي، وفي جزء منها قرأ:" إن الأطباء لن يفهموا مرضي، إن جسدي ليس مريضاً، وإنما روحي هي المريضة". وكانت كلمة روحي هي المريضة مكرّرة خمس مرّات، وخلال إعادته لقراءة هذا المقطع الذي بدا أنه رسالة من أحد مراسلي بريد الجريدة، غلى الإبريق والشاي في جوفه، واندلق، ما جعل جاد الحق يرتبك، ويتجه إلى تجيب معترفاً بخطئه، وهو يحبس دمعته.

- أين كنتَ شارداً؟

- كنتُ أقرأ.

- ماذا كنتَ تقرأ؟

ليس من السهل على أيٍ من أصحاب الذواكر أن يُكرّر مقطعاً من جريدة، بنقاطه وفواصله وإشارات الاستفهام والتعجب، غير أن عيني جاد الحق جاد الله كانتا كما كاميرا تلتقطان الحرف، وتخزّنانه في الرأس؛ ليرتسم في ذاكرة جديدة، وقد يكون هذا السبب في إعادته لما قرأ كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً.

لم تكن الآلات الناسخة قد دخلت في الاستخدام بعد، غير أن جاد الحق جاد الله، كان آلة ناسخة، لا تضيع الصورة، كان يقرأ الصفحات المكتوبة عامودياً؛ لتطبع في ذاكرته البصرية، ومن ثم؛ يعيد قراءتها أفقياً، كما يقرأ القارئ النمطي، ويكفيه أن يقرأ لمرّة واحدة حتى يعيد ترداد ما قرأ، ما يبعث الدهشة في قلوب ناس يبحثون عن المعجزة، بعد إرث واسع من ذاكرة قلّما فرّقت ما بين المعجزة والمعصية، بما جعل الكثير من كتّاب الصحيفة يعتقدون بأن شياطين قد سكنت رأس هذا الصبي وجسده.

قرأ جاد الحق لكاتب يوبّخ كاتباً، بطريقة هي إحراقٌ لما تبقّى من أثاث في منزل مُدمّر، كان في المقالة استحضارٌ لتاريخ الشعر ومقارنة له بشعر اللحظة، بما لا يعدو أن يكون توطيداً لتدمير الاتجاهات الجديدة في الأدب السوري، وقد اتخذ طريقاً جديدة نحو تأثيرات الشعر الفرنسي، والآداب الفرنسية، بل تأثيرات كلّ الفنون الأوروبية، وهي ثقافة ليس ثمة ما يميزها أكثر من الدمار الذي ألحقته الحرب العالمية الثانية بمنتجيها الذين وظّفوا ما بعد الحرب لغةً أطاحت بالفلسفة المادية، لحساب حاضر يطفو فوق

ركام المدن الخربة، وكأن الخراب بات نزوعاً رومانسياً، تعويضاً عن مكائد المادية الأوروبية، وقد أغلقت البوابات في بلاد، أغرقتها الحرب، وباتت تبحث عن الخلاص عبر أوردة، تتدفق دماً جديداً في قلوب كتّابها.

كان الشعور بقدرة الله الكونية يسيطر على نجيب، ما بعد يقينه من الذاكرة العبقرية لجاد الحق جاد الله، باعتبارها الدليل الأسهل على القدرة الإلهية في إنتاج المواهب الإنسانية، ولأنه اختصر طريق الاعتراف هنا، ناول جاد الحق جاد الله مقالة كاملة، ثم:

- يعني، أنت تعرف القراءة والكتابة؟

هزّ جاد الحق جاد الله رأسه، بما يشي بالإيجاب، وحين ناوله نجيب المقالة:

- اقرأها.. قال لجاد الحق جاد الله.

تفحص جاد الحق جاد الله المقالة، ثم طوى الصحيفة:"هذا هو سر نيتشه ومفتاح فلسفته، فهو يتفحص، ويختبر، ويسعى إلى الإنسان السوبر، وقد نعت كلّ الفلاسفة الغربيين بالقول إنهم حمقى". وما إن طوى نجيب المقالة بين أصابعه، وهو يحدّق بجاد الحق جاد الله حتى صرخ:

- يا إلهي، حفظتها؟ إنك ولد معجزة.

قال لجاد الحق جاد الله، ثم جلس مسترخياً في مقعده، ولاحظ وهو يتأمل جاد الحق جاد الله، أن العيش لم يؤدّ خدمةً تذكر لهذا الولد، فقال لجاد الحق جاد الله، وسيجارته تكاد تحرق شاربه:

- إذا ما أسعفك الحظ، وأسعف مواهبك، فبلا شك ستكون رجلاً ثرياً، وستكون عظامك من الذهب.

- الذهب؟

لم يكن نجيب بالغ الفقر، كما هو حال محرري الصحف، ولكن؛ كان أمراً سخيفاً، بل بالغ السخافة أن يضع في معصمه ساعة ذهبية رقيقة، بيتدول معطل، يكشف حاملها الذهبي لون نهايات أكمام قميصه المتسخة، وما لم يكن سرّاً أن نجيب اعتاد إحضار لفائف طعامه من منزله؛ ليتناول طعامه على دفعات متفاوتة، وعلى مدار يوم بأكمله.. لقمة يزدردها على عجل، ثم يتابع تدقيق مقالات الصحيفة، وبين اللقمة واللقمة يصحح وضع نظارته الطبية، يقربها ويبعدها عن عينيه، ومع كلّ محاولة يزداد يقيناً بأنها تزيد

من تشويش الرؤية لديه، والحق أن نجيب كان معطاء، بل بالغ الكرم، ولهذا طالما مد يده بنصف رغيف إلى جاد الحق، وهو يقول له:

- خذ، يا بني، كل.. رغم عظامك.. ما تزال شاباً، وعليك أن تنمو.

الميزة الأكثر رسوخاً في حياة نجيب، كانت الأحذية، حتى إن أحد أسباب اتساخ قمصانه على الدوام، كان بسبب تلميع أحذيته بأكمامها، فقد كان على قناعة بأن الأناقة هي الحذاء، وما تبقى من الرجل، ليس أكثر من استكمال لحذاء يلمع.

- الرجل حذاء، إن أبرز ما في نابليون بونابرت حذاؤه. كان يقول لزائريه جاداً.

تردد صوت نجيب في رأس جاد الحق جاد الله قادماً من ما يزيد عن ستة عقود خلت، وكان جاد الحق جاد الله، يتفحص قدميه العاريتين، الباردتين، ويكابد عظامه التي تتكسر أو توشك، وهو لم يزل في ساحة مشفى المجتهد، متيقناً أن الوقت فات تماماً لإثبات الأشياء، فإرادة الحياة، وسعة التأمل، لم تعد كافية لانتشاله، ودمشق تدمر، وسيارات الإسعاف تقلّ الجرحى والأشلاء الممزقة من كلّ الأمكنة، في بلاد دخلت في حرب، اختلف على تسميتها، ما بين حرب أهلية، وثورة، وانتفاضة، ومؤامرة أممية، وهكذا فعندما تكون الذاكرة هي العدو، سيكون على جاد الحق جاد الله أن يحث عظامه على التفتت، وهو ما لحظته ياسمينة، مصغية إلى هذياناته، وهو يكرر ما يبعث على الاعتقاد بأنه يحتج على عيشه الحياة عبداً لتجربة، كانت ياسمينة تعتزم منعه عن الحركة، وولداه يوازنان كرسيه المدولب، بما لا يسمح له أن يقع، ووسط هذا الاضطراب الهائل الذي تعصف به أصوات القنابل والسيارات المفخخة القادمة من أمكنة مجهولة، وأخرى معلومة في العاصمة، كان حرّاس المشفى يحثون حاملي جاد الحق جاد الله على الخروج من المشفى إفساحاً لسيارات الإسعاف بالدخول، وولداه يتقدمان بخطى محسوبة لانتشال والدهم من دموعه، وقد ملّحت وجهه.

- هي الذاكرة، إذن؟ منطاد كبير يرفعك بهدوء وبطء؛ لتتجول مطلاً على ساحات عمرك.

كان يقول مخاطباً نفسه، ويصب لعناته على الذاكرة، خصوصاً على اليوم الذي دخل فيه بوابة جريدة دمشق المساء، حين استدعى نجيب

كثيرين من كتاب البلد وصحفييها؛ ليعرفهم على الولد المعجزة.

- إلى كم نصف يمكن أن نقسم التفاحة، سأله واحد من الكتاب الثرثارين، وقد تعمد جاد الحق جاد الله أن يزيح اسم الكاتب من ذاكرته.

- أجابه جاد الحق جاد الله:

- إلى ما لا نهاية من الأنصاف.

- يا الله.. هذا ألبرت إينشتاين بشحمه ولحمه.

صرخ الكاتب الثرثار، ثم ألقى نكتة بالغة السماجة، وهو يحكي كمن يبصق كلامه، ويقول:

- سيكون لهذا الولد مكانة مهمة في مقابر العظماء، وبعدها يسأل:

- نجيب... من أين التقطت هذا الولد؟

وهي ترتب أوراقه، وتعيد خطيه إلى مكانهما، كانت زمزدة تحكي لقتيبة شهاب، عن ابنها بالتبني، وتحكي عن حي الضبارة، عن المياه الآسنة في الأزقة، والكراتين الفارغة التي تتكوم فوق أسطح الصفيح، وعن خفارة جبرا، وما لفته في كلامها، هو ما خصت به جبرا من أوصاف، وما لم يبدُ مفهوماً بالنسبة إلى قتيبة، هو كيف أن المكان يحدث رعشة في حامله، وكيف بوسع كلّ هذا الفقر أن يجمع حوله كلّ هؤلاء الناس، لم يكن قتيبة يتحاشى الاعتراف بأنه مسكون بحنين أن يعرف بيئة زمزدة، وألغاز حياتها، وهو وإن تكتم على عشقه لها، فما لا شك فيه، أنه كان يفتح نوافذ على كتمانه، تطلّ منها زمزدة كاشفة عالمه الداخلي، وهي تستمتع أيما متعة في أن تمدّ أنفها من ثقوب أسراره، وتقول له إنها تصغي إلى دقّات قلبه، ثم تكتم أنفاسها مدركة أنها أشبه بذاهبة إلى الإبحار دون ماء.

عند مطلع النهار، ضغط قتيبة على عقله مفسحاً مجالاً للقلب، مدفوعاً إلى التجول في أزقة الضبارة، وكان قابل أول من قابل، ملك القوارض، الرجل الذي يُهيأ لك، أنه ينتمي إلى عالم الجرذان، وحين سأله عن مكان خفارة جبرا، رفع ملك القوارض كمشة من الفستق السوداني، وناولها لقتيبة، وهو يقول له:

- إنه فستق عبيد.

- العبيد؟

لم يكن أحد من السوريين يقبل إطلاق صفة عبد على المتحدرين من العِرق الأسود، كانوا قد خرجوا من أحضان ثورة الاستقلال، حاملين رموزاً من شخصيات وطنية، منها الدرزي والمسيحي والكردي والسّني والعلوي والإسماعيلي والشيعي، وكانت الفوارق فيما بينهم، تتحدّد بالمراتب الاجتماعية والطبقية، وليس بالتمييزين العِرقي أو الديني.

بدأت طفرة واضحة في عالم الصناعات التحويلية، شاءت أن تعطي مكانة مميزة لمن يسمّون البروليتاريا، الطبقة التي اتخذت طريقها؛ لتنتظم في نقابات، وهي مجموعات من عمّال النسيج والصناعات الغذائية، كما الصناعات الكيميائية البسيطة، وقد ارتكزت على إنتاج الصابون.

كانت رائحة الصابون الحلبي تفوح من شعر ملك القوارض، وهو يسير أمام قتيبة باحتفالية، فاسحاً الزقاق له، للوصول إلى خمارة جبرا، كان باب الخمارة موصداً، وعلى تتالي طرقات باب الخمارة، ظهر جبرا كمن أفاق على كابوس.

- تفضّل، قال جبرا لقتيبة.

- أنت تستيقظ متأخراً، همس قتيبة لجبرا بمودة.

حين دلف قتيبة ومعه ملك القوارض إلى داخل الخمارة، أزاح جبرا ملك القوارض هذا من طريق قتيبة، موحياً للملك بأن لا يتابع الدخول، وحين مكث قتيبة فوق كرسي من كراسي الخمارة، قال له جبرا:

- لا أظنك من الرجال الذين يثملون.

ليس من الوارد ولا الممكن أن يبعث قتيبة الشك في مضيفه، ولكن الأشياء التي تحتفظ بها سراً، لابد وأن تتمتع بقيمة كبيرة، وسعياً وراء هذا الهدف، كان قتيبة حريصاً على الإيحاء بأنه يحمل سراً عظيماً.

- تفضّل، إنني أصغي إليك، ولكن؛ ما رأيك بفنجان قهوة؟ قال جبرا لضيفه.

ما لم تكتشفه زمزدة، هو أن قتيبة نوع ثالث جنسياً، وهو ما التقطه جبرا منذ أن صافح ضيفه داعياً إياه إلى الجلوس، غير أن جبرا، ولعبثٍ أصيل في روحه، طالما تجاوز المقاييس والنُّظم الأخلاقية المتفق عليها من مجاميع السكّان، وهذا ما جعله أكثر قبولاً وأقل غيرة من التداعيات التي كالها قتيبة في وصفه لزمزدة، وفي تعلّقه بها، ولاحقاً في بحثه عن

خلاص ابنها بالتبني، وكان جبرا وهو يستمع إلى قتيبة، يراه بعين الشفقة، ما خفف وطأة قلقه مقن يشفق عليه، ولابد أن جبرا لاحظ إصابة قتيبة بمرض، يجدر تسميته بـ: "غرام زمزدة".

إنهما اثنان مصابان بالمرض نفسه، فلابد أن زمزدة طاردت جبرا - أيضاً - في أحلامه ومناماته، وكان أكثر عناداً من أن يعترف بما آل إليه، وهو الرجل الذي اتخذ قراره بأن يقطع الحياة كما يقطعها نزيلٌ في فندق، لا كما يحلو للبشرية أن تبحث عن مواطنية، أو إقامة علاقة دائمة مع المكان.

- نعم، إنه ولد ذكي، قال جبرا مجيباً عن سؤال قتيبة.

قال جبرا ذلك بعد أن أنبأه قتيبة بأن على جاد الحق جاد الله أن يلتحق بعمل في الصحيفة، وكان قد شق له الطريق إليها، وحال أن سكب القهوة في فنجان قتيبة، غادر جبرا الخمارة متجهاً إلى بيت زمزدة، تاركاً قتيبة بمفرده، واقع الأمر أن المكان استهوى قتيبة، لا لرفاهية المكان، ثمة روائح منتنة كانت قد تركتها أجساد خائرة منذ ليل الأمس، روائح تختلط بروائح الكحول بروائح تنبعث من مبولة مكشوفة على مناضد الخمارة، ودون أدنى ريب، فلقد كانت الحشرات تتحرك على جدران المكان، وقد ضلّت طريقها إلى حيث أعشاشها، كان هذا المكان فراغاً جديدا لحقائق جديدة، عن بشر، لم يتسنَّ له معرفتهم، وهو الكاتب المسرحي الذي أعدّ مجموعة كاملة من مسرحيات وليم شكسبير، نافضاً الغبار عن مفاهيم جديدة ورؤىً مكتشفة، جال فيها ما بين يوليوس قيصر وهاملت، وتوقّف طويلاً عند شخصية عطيل، وكانت أعماله المسرحية قد بدأت تثمر في فرقة المسرح الحز، وبات يتطلّع ضمنياً إلى أعمال أخرى على صلة بموليير، ومسرحيات لتشيخوف، راغباً ذات يوم بأن يترجم مسرحية بستان الكرز؛ ليعرضها على فرقة المسرح الحز؛ حيث تجد ممثلين يبالغون في رفع أصواتهم، وفي الخطو فوق الخشبة كأنهم دمى من شمع.

حين دخل جاد الحق جاد الله الخمارة، ووقف أمام قتيبة، ووراءه وقفت ياسمينة، ظهر فخذ البنت من مزقة في تنورتها، كانت المزقة مساحة سائبة تتهادى متدرجة إلى أعلى فخذها، وكان فخذها أكثر بياضاً من وجهها وعنقها، باستثناء خط أبيض، يختلف عن لون العنق، رسمه خيط نجمتها، وكانت تتطلّع ببلاهة عبقرية، متأملة ساعة فضية تتدلى من عنق قتيبة، ولم يتسنَّ له أن يتفهم سبباً لإطلاقها ضحكة مجلجلة، وهي تنظر إلى فرق شعره، وقد انتصف رأسه.

لم يكن بطن ياسمينة قد انتفخ بعد، غير أنها كانت قد كسبت نزالها مع جاد الحق جاد الله، ربما بعد جولات طويلة، تحشش فيها زغب ساقيها، واستمرت يده متلمسة تضاريس جسدها؛ لتتقلص وتنبسط، وهي تكرّر آمرة:

- حاول.

حين تطلّع قتيبة إلى ياسمينة، رحّب بها كما هزة، ودعاها لأن تجلس إلى جانبه:

- أنت تحبينه.. ها؟ سألها مشيراً إلى جاد الحق جاد الله.

كانت ياسمينة أحوج إلى الإعلان الصريح، الواضح، وحين أوشكت أن تجيب عن سؤال قتيبة، دخل وارث أسنان أمه، كان عازماً أن يطفئ سكرة الأمس بكأس عزق صباحي، وهذه قاعدته:

- لا يفلّ الحديدَ سوى الحديد.

وحين همّ بالجلوس، ارتبك، وتردد، ثم حدق بقتيبة بنظرات مستطلعة لاستكشاف سر الرجل المرفّه، وغمز بعينه، في إشارة جنسية واضحة.

من السهل على جبرا طرد أيٍ من زبائن خمارته، ولم تكن عملية الطرد من مملكته تتطلّب أكثر من تحريك سبابته:

- انقلع.

بإشارة من سبابته، قال جبرا لوارث أسنان أمه، وإشارته لفتت قتيبة، وكان يرى فيها اختزالاً عظيماً للغة، وهو اختزالٌ لا يمارسه سوى نبيّ، أو مُستبدٍ، وجبرا دون ريب، كان يتحول من مجرد رجل، إلى هول طاغية، إن شاء ذلك، وفي الحالين، فهو نبيّ أوباش الضبارة، وراعي إمبراطوريتهم.

قبل أن يتابع طريقه خارجاً من الخمارة، سأل وارث أسنان أمه:

- هل أغلق الباب عليكما؟

ما إن أنهى قتيبة رشف فنجان قهوته، حتى أطلق جبرا نصف سؤال متوجهاً بكلامه إلى قتيبة:

- زمزدة؟

- نعم، إنها هي، سيدة رائعة.

- وجاد الحق جاد الله؟

- إنها تخاف مما ستؤول إليه أحواله.. إنها تبحث له عن مستقبل طيب. أجاب قتيبة

- زمزدة؟

كررها جبرا، وكان اسمها كما حبات برد تهطل من سماء شتوية، وكانت زمزدة إلى جانب فرنسا، تحكي لها ببساطة وعذوبة تطفوان على كلامها:

- إنه رجل طيب... ليته أبي.

فرنسا سيدة خبيرة، انفلتت من أحلام الحدائق التي تبث سحرها في الحالمين، وتعلم تمام العلم أن الحياة ليست ملكاً للمهزومين، وأنها (الحياة) لا تمنح نفسها سوى لمن يغتصبها، هكذا هي الحياة بالنسبة إلى فرنسا، فما إن تضع يدك على رسنها، حتى تجد نفسك مرغماً على أن تعاملها كبغلة:

- الحياة بغلة، يا زمزدة.. بغلة.

قالت ذلك، ثم التفتت إلى ساقي زمزدة:

- شعر الساقين يثير اشمئزاز الزبائن.. قومي، انتفي شعر ساقيك.. قومي.

كلام فرنسا.. رواية وداع، هي كذلك، ولو استطاع الموتى أن يتكلموا، لاستيقظت أم عبد الهادي محمد من قبرها، نافضةً غبار الكفن، وحكت عن صباها، وهي تقرع أجراس رجال، دلقوا مصائرهم تحت قدميها، ثم انتهت في لعبة، هي لعبة الجسد، وهو يُرتب أوراقه خارج إرادة حامله، ليجرح بأظافره فتوةً، ليس بالوسع أن تعيش أكثر مما يُرسم لها، وما إدراك فرنسا لعتبة الكهولة، سوى هذه الرواية، رواية أم عبد الهادي محمد، ولا بدّ لها أن تتشبث بروايتها، مستعيضة عن فوات شبابها، بشباب زمزة.

- ستكونين خليفتي، قالت فرنسا لزمزدة، وتابعت:

- ولكنك لن ترتكبي الأخطاء التي ارتكبتها.. لن تتزوجي واحداً مثل فواز، ولن تكتفي بزبون يدير ظهره ويمضي، ستضعين قدميك على طريق القوة، والسطوة، والسلطة، وستكونين سيدة.. نعم، سيدة بالغة الثراء، ينحني الرجال أمامها.. ستمتلكين هذه الكرخانة، فهمت؟ عليك أن تفهمي.. عليك أن تكوني ملكة هذه الكرخانة وكرخانات العالم كلّه.

رغبات فرنسا، وقد تولدت في عمر متأخر، لم تكن قابلة لأن تُدفن، كما لم يكن بالوسع إشباعها، غير أن فرنسا كانت تردد بما يشبه الهلوسة أحلام المال والقوة، وبات جسدها سؤالاً لا بد من إغفاله على الدوام، وهي وان لم تكن مستسلمة لإجابات جسدها الصادمة، غير أنها كانت مرغمة على تقبل حقيقة أنها صارت عاجزة عن ثقب الرجل بعينيها، كما كانت تفعل، متكئة على فرنها القديم الذي يُنضج رغيف أيّ رجل، كانت على علم بكلّ الحقائق التي آلت إليها، وأكثر ما كان يُحزنها أنها لم تخبئ بذار مئات الرجال الذين عبروا سريرها، لا لرغبة في الادخار كما يمكن أن يُفهم، بل لتشذ من عضد ذاكرتها، وترفع يدها كما ملاكم قديم يرفع حزام نصره، وسيكون هذا وحده تعويضاً عن الهزائم التي يلحقها النسيان بروح البطل، وقد باتت أكثر عدوانية واشتعالاً مما في شبابها.

بات على فرنسا استبدال نفسها بزمرّدة، ولهذا حثت فرنسا زمرّدة على أن تفهم الرجال، فالفوز:" في أن تُفهميهم.. أن نظرتك قادرة على إسقاط الرجل عن ظهر حصانه"، قالت لزمرّدة، وتابعت:

- ليس من نفع في أن تفهمي الرجل حين لا يعود للفهم نفعٌ.. الرجل مثل الدواء يؤخذ بموعده، ومثل المرض يحلّ في موعده.

ما أثار استنكار زمرّدة، هو التناقضات الصارخة في أهواء فرنسا، فهي وإن بدت على هذا النحو من الفظاظة، ففي حقيقتها لم تكن كذلك، أقلّه أنها مزجت ذات يوم إخلاصها بمتعتها، وسيبدو هذا فاقع الوضوح حين تستلقي فرنسا مستحضرة أيامها الفائتة مع الكابتن، وسيظهر جلياً من خلال البورتريهات التي رسمها الكابتن لفرنسا، وهي متمددة، ممسكة بثدييها، وقد طوت جسدها والشهوة تظلّل الصورة، وشراشف السرير تحكي الواقعة.

- على الرجل أن يشعر بأنه يطاردك؟ وعليك دائماً أن تشعريه أنه يوشك أن يمسك بك.. هل فهمت؟ حين تركضين أمامه، اجعليه يشعر بأنك بجناحين، وحين يطير وراءك عليه أن يتخيل أنه بجناحين أيضاً، عليك أن تدفعيه؛ ليكره حاضره ويراك المستقبل، في كلّ لحظة تكونين فيها الماضي يخلعك من قدمه.

ما إن توقفت فرنسا عن الكلام، حتى أغمضت عينيها، ولكنها لم تفرغ من الكلام بعد، وقد باتت حكيمة تغفو، مُودعة حكمتها في أذني زمرّدة:

- يا ابنتي.. يا ابنتي.. يا ابنتي.

وهو يقف أمام فارس في مقهى الرشيد منتظراً أخذ قصيدة فارس الورداني إلى الصحيفة، كان جاد الحق يجبر رئتيه على التنفس، فقد كان ثلاثة من المثقفين السوريين يحكون عن الانتصار الهائل الذي حقّقه جمال عبد الناصر في معركة بورسعيد، ولاشك بأن روايات مقاومة المصريين للعدوان الثلاثي، لفتت أعناق السوريين إلى خنادقهم، واستدعت إرادتهم لخوض الحرب مع الاسرائيليين مجدداً، غير أن جاد الحق جاد الله، وهو يتابع الإصغاء إلى الثلاثة، كان منشغلاً بآنـا ووالدها عزرا، فعلاوة على هجرتهما إلى إسرائيل، فقد أصابهما موتٌ محتمل ما بعد الحرب، فما حدث له معنى واحد:

- موت أمله في عودة آنـا.

كان عليه أن يفتح الورقة المطوية؛ ليصوّرها في عينيه، ثم يطبعها في ذاكرته على عجل، بحروفها المكتوبة، كما لو كانت وديعة في ذاكرة تاريخ طويل سيأتي، كانت قصيدة فارس الورداني أشبه ما تكون بإعلان موت شاعر، لا، بل كانت موتاً مطوياً في ورقة بيضاء، لو قلبتها لعثرت في حروفها على احتجاج بالغ القسوة من رجل يعاتب الله عبر هجائه الفلاسفة الجبريين قائلاً:

- ما دمت تعلم، وما دامت تلك إرادتك.. أيّ عدلٍ في أن أقف تحت قوس حكمتك؟

كان وجه فارس مطوياً، كما ورقته، وخلف تجاعيده بدت الحروف، وكأنها في قيلولة بعد أرق، طال لدهر مضى، ولم يكن فارس على صلة تُذكر بحكايا الحرب، وبالتوقّعات التي ستترتب عليها، وكلّ ماقاله قبل أن يقف مغادراً:

- الحرب.. ولّادة التاريخ، نعم، ولكنها لاتُولّد إلا العمى.

قال هذا، ونهض، ولم يفطن ليخبر شيئاً عن آنا، وكانت آمال صبي الجريدة، أن يحكي الثلاثة عن آنا وعزرا، وعن مهاجرين يهود سيعودون

حالاً إلى حي الأمين حاملين أصابع تُشكل حروف اللغة.. السبابة هي الألف، والسبابة موصولة بالإبهام هي الهاء، وقد لفحت أنفاسها وجهه.

أخبار آنـا وعزرا انقطعت تماماً، وليس ثمة من يعلم شيئاً عن حياتهما ما بعد الهجرة، غير أن الكثير من عرب فلسطين، كانوا على علم بأن جزءاً كبيراً من اليهود السوريين المهاجرين إلى إسرائيل، أقام في أرض، ليست أرض ميعاده التي ذهب إليها، فدمشق بالنسبة إليهم هي، السؤال، المتنفس، دمشق المسترخية، الطيبة، رئة الأرض وشمعتها، ولم يكن هذا حال يهود دمشق فحسب من المهاجرين، فيهود القامشلي - وقد هاجر الكثير منهم إلى إسرائيل – ما يزالون ينشدون حتى اليوم:

- في وسط القامشلية.. أريتولي صبية.

كان عليه أن يختفي من المقهى، مغادراً، حاملاً قصيدة فارس، ضجراً من إعادة قراءتها ومن الشقاء الذي سيلاحقه طيلة حياته، وهو يُكزر: نعم، هذه هي القصيدة.

- ماذا؟ سأله نجيب.

- وحق الله، إن هذا ما كتبه.

- وأين الأوراق؟

- ضاعت مني.. هكذا سقطت من يدي.

"لو نظرنا للقضة بمنظار الحوادث الطبيعية، كان عليّ أن أخصي هذا الولد، وأعيده إلى حيه بين الجرذان، ولكنه حفظ القصيدة عن ظهر قلب، وأعاد كتابتها كلمة كلمة"، قال نجيب لكتاب صحيفته، ثم أردف ضاحكاً:

- لا.. بل وصححها، ونقّحها، ولو لم يكن يشعر بالإثم؛ لأضاف إليها أبياتاً جديدة.

من يومها، أخرج نجيب، جاد الحق جاد الله، من خدمة الشاي والقهوة، إلى قسم التصحيح في الصحيفة، مؤكداً عليه:

- لن أسمح بأيّ خطأ... ها.

تضاعفت أجور جاد الحق جاد الله، فقد حلّ في شغله الجديد مكان مصحح هرم، لا يلبث أن يجلس وراء الطاولة حتى يخرج زوادته، ويلحّ في طلب الشاي، ومن ثم؛ يغفو، وبات جاد الحق جاد الله مصححاً رئيساً،

يقرأ مقالات الكتاب والصحفيين، ويُعيد قراءتها بعد عودتها من التنضيد الرصاصي، كانت أصابعه ملطخة على الدوام بالحبر الأسود، وما من أحد لاحظ يوماً خطأً مطبعياً أو نحوياً واحداً في الصحيفة، ومن يومها، بات اسمه في حي الضبارة:

- الصحفي.

حين وصل الحي، كان قد مضى شهر على استحمامه الأخير، ولم يَكَدْ يفتح باب غرفته، حتى أطلّت ياسمينة؛ لتقترب منه بخطى صغيرة، حاملة بيدها زجاجة عطر، لاشك بأنها مسروقة من بيت مشغّليها، وإذ لم تتيقن من ترحابه، هزّت كتفيها؛ لتهمّ بالمغادرة، مُشيرةً بإصبعها الصغيرة أن يفتح العلبة، غير أنه وما إن أمسك بالعلبة حتى ناولته ماكينة حلاقة، متلمسة ذقنه، وقد نبتت له لحية، وبدا خط الشاربين أكثر وضوحاً من أيامهما السابقة، كان خط شاربيه قد ضمّ الشكل النهائي لقدره.

قال لها بأنه سيستحم، ولم يكن ثمة ملجأ أكثر أماناً من دخولهما معاً إلى الغرفة، وإحكام إغلاق بابها.

مصابيح أكواخ الحي أشبه بثقوب في ستارة النيل، ولا بد أن الصمت يضاعف حس اللجوء لدى فتيين اثنين، سيشكّل كلّ منهما درعاً للآخر، أو واقياً من الوحدة والخوف، وحالما تشابكت أقدامهما، سقطا إلى جانب طشت انماء المغلي؛ ليظهر بطنها ناتئاً، وتقول له:

- أنا حبلى.

- حبلى من مَن؟

كان بمقدور جاد الحق أن يستظهر كل اللحظات التي تقابلا فيها، وهو يجوب مبنى ذاكرته، زدهة زدهة، وممراً ممراً، ولم يكن ثمة فسحة لأية توريات بصرية، بما في ذلك جسداهما الملتفّان تحت إنارة قنديل الزيت، في عناق يكثفه عراؤهما.

مثل خذ الدراقة بدا وجه ياسمينة، استحضر وجهها فور مغادرته الصحيفة بعد أن قرأ مقالة نقلت ما قاله قيصر عن بروتوس:" لا أخشى من الفاجرين، أو من الطامعين باللذة، أخشى من الناحلين والشاحبين"، ومن أسرار جاد الحق جاد الله أنه كان مندهشاً على الدوام من صحة ياسمينة ونضارتها، خصوصاً ما بعد الاستحمام وكشط الأوساخ عن جسدها، ولهذا

وجد نفسه مدفوعاً لأن يقول لها متسائلاً:

- ستكونين أماً، وسأكون أباً؟

أجابته بقبلات متتالية، وما إن ارتدت ثيابها على عجل، حتى باغتها بالقول:

- هيا بنا إلى العم جبرا.

تلا الصمت الصمت، فحش الأمومة المباغت، حوّلها من البنت العابثة المهبولة، إلى امرأة كاملة، تنتظر أن يخرج وليدها من عتمة أحشائها، وبدت وهي تحاول الاستجابة لطلب جاد الحق جاد الله في الذهاب إلى جبرا، مثل من يعمل على حساب النتائج، وكانت قد امتلأت اعتقاداً أن ما كان مسموحاً لها قبل الأمومة، ما عاد كذلك ما بعدها، فبين الأم وابنها فقط، ستكون العفة، وسيكون الحب الإلهي، وها هي ذا متيقّنة من حبها لجاد الحق جاد الله، لقامته، وعينيه المتحدرتين نحو الأرض، لسبابته التي يقرض أظفرها بأسنانه، لقدمه اليمنى، وهي تهتز محمولة على إبهامها، ولانتظاره إجابة منها على اقتراحه بالتوجه إلى جبرا.

في خمارة جبرا، هنالك تعايش بين أشد الناس فحشاً، وأشد قواعد الأخلاق غطرسة في صرامتها، غير أن ما آل إليه جبرا من وجوم واختناق واكتئاب يزحف على روحه، حوّل الخمارة إلى مساحة للصمت، على غير ما درجت عليه عبر تاريخها، وأحال الأحاديث الصارخة، إلى أحاديث هامسة، ما يجعل روادها يقفون على حافة الثمل على الدوام دون أن يتدحرجوا إلى مرحلة السُكر النهائي الذي يجعل الرجل مفتوناً بالإعلان عن ما يحمل في نفسه وروحه.

تعال، اجلس إلى جانبي، قال جبرا لجاد الحق جاد الله فور دخول جاد الحق جاد الله الخمارة، لكن جاد الحق جاد الله كان يجهد لإخراج جبرا من المكان والاتجاه إلى الخارج، ما حفّز الزبائن الفضوليين على معرفة سر العلاقة بينهما، وفيما يشبه الوقاحة، وقف وارث أسنان أمه؛ ليقول لهما:

- سنصم آذاننا عن معرفة أسراركما الحربية، في الخارج برد، ستطقطق عظامكما من البرد.

لم يلتفت جبرا إلى تعليق وارث أسنان أمه، ولم يجد أحد من الزبائن سبباً واحداً لضحكة الوارث، وهو يضع راحة يده فوق فمه؛ لتحول دون

سقوط أسنانه، بدت نكتته باردة، وبدا كفن غاص في الوحل.

تزوّجها، قال جبرا لجاد الحق جاد الله، قبل أن يفتح جاد الحق جاد الله فمه، وقبل أن يسأله، ودون أن يعطيه فرصة للإجابة أو تجديد السؤال، مضى جبرا يحكي عن العزلة، والتجربة، واختبار الحياة، وفور أن نهض من تعثر مفاجئ، ارتجّ له جدار الليل والصفيح، وقد ضاق الزقاق بهما، توقّف جبرا، وهو يضع يده فوق كتف جاد الحق جاد الله مستمراً في الكلام:

- اسمع، يا بني، حين تقرّر أن تمضي حياتك وحيداً، ستكون عصياً على الحب، أو الكراهية، على الشفقة أو القسوة، على الألم أو المتعة، على الإيمان أو الإلحاد، على النصر أو الهزيمة، ستتحول إلى مثل هذا الحيط النتن.

طرق جبرا بيده على جدار الصفيح، ليرتج الصفيح ثانية، مقلقاً نوم الزقاق، وحدهما، الجماع والثمالة يدفعان سكّان الصفيح إلى الغرق في النوم، وبدون الثمالة والجماع، تتحول الحياة إلى أرق متصل، تعقبه مشاحنات عائلية. فها قد ظهرت في هذا الليل، أصوات اثنين من الأزواج تستنسخ روح المكان، وتهزّ سكينته، فيما زوجة تؤنّب زوجها، مطلقة شتائمها في كلّ الاتجاهات، مشبهة زوجها بعضوها، ما دفع جبرا للتأكيد ثانية:

- أ رأيت؟ إنها تشبهه بأغلى ما عندها.. حتى وهي تشتمه، فهي تشبهه بقرنفلتها.

- كيف؟ سأتزوّجها كيف؟

- قل لها زوّجتك نفسي، وستجيبك زوّجتك نفسي، وتصبحان زوجين.

اتّبع جبرا طيلة ماضيه حياةً قاعدتها أن لا تتبع نمطاً، كان يتنفس من الجهة التي يحلو له أن يتنفس منها، وكان يسافر؛ حيث يمكنه النوم على الواقف، إن شاء، وفي الأزقة، أو تحت الجسور، إن شاء أيضاً، وكان يرتدي قبعة طرية، ثمّ يرمي بها إلى البحر؛ ليستعيدها ثانية بعد أن يلفظها البحر، وينتعل حذاء بفردتين من لونين مختلفين، ويمشي موارباً، أو إلى الخلف، وإذا ما ضلّ طريقه، فلا بأس أن يعثر على طريق آخر، لهدف جديد، محصّلته: لا هدف.

هذا هو جبرا الماضي، المتنقّل بين السهول والبوادي والبحار، وكي

يتخلّص من العودة إلى ماضيه، تمسك بخمارته، وفتح نافذة روحه على زمزدة، وحلم بها خفية، ولم يفكر ولو لمرة واحدة أن يباغتها بالقول إن عمره سيكون أطول، وهي إلى جواره، وإنه يتألم، وإنها سترفع عن خاصرتيه مهماز الحياة الذي يوخزه، قل لي، يا جاد الحق جاد الله:

- أ لم تر زمزدة؟

- لا.. لم أرها.

- وهل تعرف مكانها؟

- إنها تشتغل.

- مع فرنسا؟

- يمكن.

- ألا تود البحث عنها؟

- لا.

- أ ليست أمك؟

- لا.. أمي ميتة.

- أ ليست بمثابة أمك؟

ما من أحد ارتاب في حي الضبارة بأمومة زمزدة، فمحصلة الهمسات التي تدور حولها، تركزت في أنها هاربة من مشاكل عائلية، لم تشغل أحداً من سكان الحي، والعميان لن يمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً، لكشف الطريق أمام العميان، فقد اكتفت جاراتها من النساء بالإيماء والغمز منها، وكانت غامضة على الدوام، لا لأنها راغبة بإخفاء حقائق حياتها، ولكنها كانت تشعر بغربة لم تفهم كنهها، وهو أمر استشعره جبرا، استشعار الجرح للسكين، متكتماً على رغبته العميقة في ملامسة رؤوس أناملها، لم يكن من اليسير عليه أن يتيقن من مشاعرها نحوه، وهي تخطو مبتعدة، بجسد منفعل بذاته، تتثنى وترتفع، لتصحو من نعاسها، وهي ذاهبة إلى المصبغة في عمق الفجر، وقد غطت الألوان الصارخة ملابسها، لتفرض حضورها على جبرا، دون أن يتسنى له، أن يفرض وجوده عليها.

ثقة ما تبدل فيه منذ رآها لأول مرة، وثقة ما تبدل بعد هجرها الحي،

وفي التبدلين، بات جبرا يتألم، وكلّما قصقص آلامه، وجدها تنمو من جديد، كما مخالب تأكل روحه، وكان يتساءل:" ما الذي دعاني إلى كلّ هذا التحول، ومنه إلى كل هذا الموت؟".

للمرّة الثالثة، يضرب جبرا جدار الصفيح بيده، وللمرة الثالثة، يُحدث ضجّة في الحي، وما عصف رياح الليلة، سوى استكمالٍ لضجيج قبضته، قال لجاد الحق جاد الله:

- اسمع... إن ما تفتقده هو وحده ما يبقى في روحك؛ ليتحول إلى ناب، يأكلك.

قال ذلك، وبدا كما فيلسوف محتضر:

- منذ أن وُلدنا ونحن نخضع لوساخته، دون أن نستطيع مقاومته، أ تعلم ما هو؟ إنه الوقت.

لم يفهم جاد الحق جاد الله - وهو اليافع - سرّ ما يقوله جبرا، فما افتقده ليس سوى آنـا اليهودية، وليس ثمة مخلوق بمستطاعه تحت عتمة هذا الليل التقاط صوت أنفاسها، وما حكاية ياسمينة - بالنسبة له - سوى آليات العادة، فقد اعتادها، وكانت بالنسبة له، يدين وشفتين ومداعبات نشوة، تقوده إلى النوم، وفي النوم، يستعيد آنـا، ويقلّص مسافة غيابها، كان على الدوام بانتظار أن يأتي الليل؛ لينام، فالنوم يعني استرجاعها إليه، يستجلبها كما هي، برائحتها، وعينيها الذابلتين، وشفتيها المتراقصتين.. هذا هو الوقت بالنسبة إلى جاد الحق جاد الله... فما يعنيه من الوقت هو النوم، كهف لقائه بآنـا، وكانت ياسمينة ناقلته إلى هذا الكهف، ووسادته التي يتخلص عبر إلقاء رأسه عليها من الكوابيس والرعب، تزيّنها شفاه تتبادل القُبَل، وتمتصّ غضبه على بشر، أغرقوه في الألم منذ وُلد، كان جاد الحق جاد الله ما بعد مغادرة آنـا يسروعاً، يتحوّل بعد الموت إلى فراشة، ولابد أن تكون ياسمينة شرنقته، وما الوقت بالنسبة إليه سوى رماد يتساقط من بركان الذاكرة، وها هو اللحظة عجوز، يقعي فوق كرسي مدولب في ساحة مشفى المجتهد، وإلى جانبه، وقفت ياسمينة، وابناه، بين لهاث عساكر يدخلون المشفى حاملين جرحاهم، والكثير من القتلى، وأصوات المدافع ترتفع وترتفع، ورشقات الرصاص تأتي من حقول الصبير في كفرسوسة، ومن جهات مجهولة في العاصمة؛ لترسم بوادر حرب أهلية، وتكون الحياة فريستها.

حين التفت إلى زوجته، ياسمينة، سألها:

- من أين يأتي كلّ هذا الرصاص؟

معركة، أجل، والجميع متورّط فيها، وميدان الصراع ليست له حدود جغرافية، أو عسكرية، وكلّ من المتقاتلين يبحث عن نصر يضيء معركته، حاصداً لنصره آلاف الأشلاء المزرّقة المدفونة في مقابر جماعية، بات من الصعب حصرها، وجاد الحق جاد الله الثمانيني، ترفسه أصوات الماضي البعيد ورشقات الرصاص القريبة، بعد أربعين دقيقة من وضع الجبيرة فوق ساقه ووصوله إلى ساحة المشفى محاطاً بابنيه وزوجته.

قبل ما يزيد عن خمسة عقود من اللحظة، لم تدع له حملة مداهمة كوخه في حي الضبارة (وكان معبداً لم ينتهك أحد حرمته)، فرصة ليقول لرجال مباحث الشعبة الثانية، وهم مجموعة من الرجال الأشداء الذين جلبتهم الوحدة السورية - المصرية، ليقول إنه القرد الصيني الذي لا يسمع، ولا يتكلّم، ولا يرى، ولم يدَعْ رجالُ المداهمة طفلَه الصغير، وقد بات يقفز، ويداعب خصلات شعر أمه، ويمزر أصابعه فوق ثدييها، أن يتابع اللّهو، بشعره المزيّن بالشرائط التي لفّت ياسمينة جدائله بها، فلقمان جمعة، وكان من أشدّ حرّاس النظام سطوةً، فجّر الكثير من الركلات في رأس جاد الحق جاد الله، وهو يسأله إن كان جاسوساً إسرائيلياً، وكان جاد الحق جاد الله يجيبه على الدوام:

- لا.. أنا أحمق، يا سيدي.

- ومن قال لك إن الجواسيس ليسوا بحمقى، يا ابن الوسخة؟

حججه في تأكيد حماقته، لم تبدّد تلك التهمة، إن ما أسعفه من تتالي ركلات سجّانيه أن اختلط عليهم بكاؤه بضحكه.. هذا كلّ ما في الأمر، فالسجّانون المتغطرسون، لم يُخفوا ما أصابهم من تعجّب.. هذا كل ما في الأمر، على الأقلّ، كان هذا ما استخلصه هو، وهو يحكي لزوجته ياسمينة.

حصل هذا بعد سنوات من زواجه من ياسمينة، بعد أن قالت له:

- أقبل بك زوجا؟

ومع أنه اليوم رجلٌ متزوّج، غير أنه في قرارة نفسه احتفظ بعذريته لأنـا، ولم تكن ياسمينة قد احتاطت من خيالاته، ولم تكن تتسلّل إلى جمجمته، فبعد مولد طفلها الأول، باتت أماً، وما إن بات وليدها الأول يمسك

عنقود العنب، ويحيله إلى فمه، كما زغلول في عشه، حتى أدركت أن زوجها هو أذكى رجل في الكون، وأنها لن تكون سوى إلى جانبه، ولهذا ذهبت نحو طريق جديد، بعد أن استدانت؛ لتشتري ماكينة خياطة سينجر، وكان عليها أن تُصغي لجارتها الوافدة من بيروت، فيما الثانية تعلّمها كيفية قصّ الكم، وتدويرة القبة، وزرع الأزرار في فتحة الفستان، كما في الكيفية التي ترضي بها زبونتها، وكانت ياسمينة أكثر قابلية للتعلّم، غير أنها لم تكن تحمل نفس الكفاءة في الوصول إلى زبائن مرفّهين، يبحثون عن الموضة في بيوت الأزياء الراقية، فاكتفت بأن تعود لمنزل مخدوميها السابقين؛ لتقول لسيدة المنزل:

- سيدتي، سأخيط لك فستاناً هدية.. جرّبيني.

لم تكن روزالين، ربة المنزل بشعة، لكنها لم تكن جميلة أيضاً، كان لها ساقان معوّجتان تداريهما بفستان، لا يكاد يكشف عرقوبيها، غير أنها كانت مثل عائلتها، عائلة بتقاليد عثمانية، في اتباع سلوك صارم، ولم يكن خروج واحد من أولاد العائلة الذكور وانفراده مزات عديدة بياسمينة؛ لتحبل منه خروجاً عن التقليد المتبع لدى ذكور العائلة، فالجنس مع الخادمات واجب مطلق لدى الذكور، وخدمة واجبة لدى الخادمات، غير أن ثمة اختلافات ما بين السيدة روزالين وعائلتها، وربما يتأتى اختلافها عن عائلتها، من كونها تشبعت الثقافة الفرنسية، فيما العائلة ما تزال تعيش الموروث العثماني، كانت السيدة روزالين جاهلة تماماً بالمدينة، وقد اكتفت بقراءة جبران خليل جبران باللغة الفرنسية، وكتابه النبي، الذي صعدت بواسطته إلى حجرة الله، وتعرّفت عبره عن كثب على سز الروح التائهة التي لم تعد تحتمل الروح الخشنة لطبقة اجتماعية، استحوذت على المال والنفوذ، وامتدت على طول البلاد وعرضها وارثة السلطنة، ومن ثم؛ وارثة الفرنسيين ما بعد نفوذ لم ينقطع عن العثمانيين، ربما علامته الأكثر بروزا تبدت في التوكيلات المصرفية الكبيرة التي استحوذت عليها العائلة، والتي يمكن قراءتها بدءاً من كريستال "لاليك" وصولاً إلى السجاد الفارسي ذي الملمس الحريري، كما الأرائك الباذخة التي طالما حلمت ياسمينة بإسناد خدها إليها.

كانت روزالين واقفة، وياسمينة تحكي معها، وهي تنظر إلى ياسمينة، بافتنان، لا يُصدّق:

- هل تعنين ما تقولين؟

- نعم، يا سيدتي، والله العظيم، إنني قادرة على إخاطة أي فستان يحلو لك.

- يعني إذا أعطيتك مجلة، وفيها صورة فستان، هل تستطيعين خياطة مثيله؟

- بالتمام والكمال، يا سيدتي.

حين ابتدأت ياسمينة تأخذ مقاييس جسد السيدة، لابد وأنها استشعرت برودته، غير أن ما فاجأها، بل وشكّل صدمة فظيعة للخادمة التي أصبحت خياطة جديدة، هو التعري الذي لا يتطلّبه الموقف، فقد خلعت السيدة كلّ ملابسها كفن يسرق النار بسرّية ورفق وغموض، وتمدّدت دون حراك، وداعبت ثدييها، وكأنها تستدعي امرأة أخرى، ثم طلبت من ياسمينة أن تحكم إغلاق الباب والنافذة.

لم تكن ياسمينة طيلة خدمتها في بيت روزالين، قد لحظت أن لسيدتها أية ميول مثلية، وما لم تكن تفهمه، هو الحزن والانكسار البادي في عيني السيدة، وهو حزن أخذها إلى مكان أبعد من مجرد الاستلقاء إلى جانب السيدة، كانت تعتقد أن هذا الألم سيحطّم سيدتها، وهو ما اعتادت عليه ياسمينة باستبدالها اللعب بالواقع طيلة حياتها، وهو ما قادها إلى حبل غير مشروع من ابن سيدتها قبل سنوات، وهو - أيضاً - ما سيقودها إلى جنس مثلي اليوم، غير أنها لم تستطع إخفاء تقزّزها خلال العملية، وفي الوقت ذاته، إشفاقها على عيني السيدة البنفسجيتين، مالحظته روزالين، التي نهضت فيما بعد من استلقائها، حاملة طيات ثوبها، عاريةً تماماً، طالبةً من ياسمينة أن تتجه إلى المطبخ، وأن تعدّ لها فنجاناً من الشوكولا مخلوطاً بالفانيلا، ومن ثم؛ لتستوقفها قائلة لها:

- وفنجان لك أيضاً.

كانت روزالين سيدة بالغة التهذيب، خصوصاً في علاقتها بالخادمات المنزليات، ولم تكن تبدي أي استعلاء عليهن، بل وأكثر من ذلك، كانت تترك لهن خزنة سرقة أشياء من ثلاجة المنزل، ومن الملابس القديمة، ومن الأحذية المهجورة، وحتى من سراويلها الداخلية. غير أنها وقد رضعت ثدي ياسمينة، وامتصت حلمته، لم تكن تعلم - في حقيقة الأمر - أنها تشارك حفيدها ثدي أمه؛ ولم تكن قد عرفت حقيقة حبل مخدومتها، وهو ما بقي سرّاً، لم يعلم به أيّ من البشر، بمن فيهم ياسمينة، وقد عاشرت أكثر

من واحد من صبيان العائلة؛ بحيث كان من الصعب عليها تحديد من هو الأب الحقيقي لوليدها، لم يكن هذا حال ياسمينة فحسب، فالبشرية مجتمعة، تستطيع استحضار يقين الأم، وليس بوسعها استحضار الأب في كونه حقيقةً، فالأب كائنٌ مُحتفل، فيما الأم يقينٌ مطلقٌ.

حين عادت حاملة فنجاناً واحداً من الشوكولا بالفانيلا، وذعت ياسمينة سيدتها، وكانت السيدة قد مدّت يدها إلى ياسمينة؛ لتقول لها:

- خذي.. هذه نقود ستنفعك لتأسيس مشروعك الجديد.

في طريق عودتها إلى صفيح الضبارة، مزرت ياسمينة يدها على فمها، ماسحة آثار قبلات السيدة، وكان جاد الحق جاد الله يجلس إلى جانب طفله في كوخهما يعيد كتابة سيرته الذاتية بنهم، تحت وطأة أوامر النقيب لقمان رجل المكتب الثاني، الذي قال له:

- أريد أن أعرف كلّ شيء عنك، ابتدأ جاد الحق جاد الله سيرته بالقول:

- - سيدي الرئيس، وتابع:

- لقد هاجرَتْ إلى إسرائيل، ومنذ هجرتِها انقطعت أخبارها، وهنالك من يؤكد لي، وعبر الإذاعات أيضاً، أن البنات الإسرائيليات يقاتلن إلى جانب الرجال في الجيش اليهودي، ولم أكن أعلم أنها ستهاجر، ولو كان لي علم بهجرتها، لم أكن لأتوانى عن إبلاغ السلطات عن هذا الأمر، إنني أرجو من سيادتك تفهم حالتي، وغض النظر عن هذه الهفوة غير المقصودة التي لن أغفرها لنفسي.

فضّل جاد الحق جاد الله مراجعة ما كتب، والتدقيق في تفاصيله، ولم ينس في تقريره للشعبة الثانية، وقد طلب منه كتابة سيرته الذاتية كاملة، أن يكتب شيئاً ما مفترضاً عن موت أمه في حقل حشيش مكشوف على القمر، وهو ينزلق من بين فخذيها، وعيناه تتأرجحان متطلّعاً إلى وجه زمزدة، وكان عليه أن يتخيل مأتم أمه، وقد كان يتحرّك فوق أوراق الحشيشة بغموض وسرعة، وخطر في باله أن يكتب أسطراً عن رغبته في حمل ورود إلى قبرها، وهكذا فضّل البقاء لساعات طويلة يراجع ما يكتب، حتى ترك قلم الباركر الصيني ندبةً في إصبعه الوسطى، وبدا جفناه متوزمين، وبالكاد تمكن من كبح جماحه عن متابعة الكتابة عن زمزدة، وقد هجرته في يفاعته، وسيخطر على باله التنويه عن المخطوطات المخبأة لديه، وهي مخطوطات عزرا، التي عثر جاد الحق جاد الله على مكان

لدفنها ملفوفةً بالقماش بمداراة، وضعها في حفرة في أرض كوخه، وردمها بإحكام، متخيلاً أنها تنطق بلغة حية، وهو يراها ويسمعها، فطمئناً على صحتها النفسية والجسدية، إلا أن معضلةً كبرى حالت دون أن ينبئ المكتب الثاني بسرّه هذا عندما ابتدأ بالكتابة عنها، غير أن ما كتبه في حقيقة الأمر لم يكن يتناول المخطوطات بالقدر الذي كان يتناول شخصه هو، مفترضاً أنه:" أحبّ كلّ ما هو حي، وأحبّ أن يعيش ويبكي"، وكان وهو جاثٍ وفتيل قنديل الزيت يتأرجح فوق كلماته، قد وقع في تبعثر وشتات غير مفهومين، وهو يستعيد أمومة زمزدة، لم يكن يعثر على مفتاح لسرّ احتضانها له، ومن ثمّ؛ تركها له وحيداً، كانت زمزدة قد ابتعدت عن الحي، وعنه، ولم يتبقَّ له من انتظارها سوى اليأس من عودتها.

أزف الليل، قبل عودة ياسمينة إلى الكوخ، وبدأ الناس يفدون إلى الحي عائدين من أعمالهم، جيران، وشغيلة، ومجهولون، وحين انسلّ فاتحاً باب الكوخ، كانت ياسمينة مقبلة من الزقاق الجانبي باتجاهه، وكانت له طاقة لا تُضاهى على الرؤية في العتمة، فقرأ انكساراً ما في ملامح زوجته، وصار مُحاطاً باعتقاد راسخ، مفاده أنه سيسهر الليلة مع الموت.

كلّ يومٍ كان يموت، ثمّ ينهض من الموت متوجّعاً؛ ليعود ثانية إلى الموت، ثمّ ينهض، وهو يشدّ عزيمته، لم يكن يطيق الكفن، والرباط الذي يُحيط بقدميه وهو مُسجى، وكان يكابد كي يستعيد طاقته على الحياة، وحالما يستعيدها تتجدّد مخاوفه من الموت.

ماعدا حفارة جبرا، لم يكن جاد الحق جاد الله يغادر منزله سوى إلى الصحيفة، مسكوناً بخوف من خفايا تحطّ على كاهله، كلّ شيء كان يدعوه إلى الخوف:" الليل، الصمت، الصراخ، كوابيس أمٍّ متخيّلة، رؤىً تغرقه في زنى المحرم"، كانت أشدّ مناماته إيلاماً، هي تلك التي تتنقل فيها زمزدة بين رجال كثيرين، يرتدون عمامات بيضاء وجلابيب مرفوعة إلى الأعلى، وهم يحيطون بها، تاركين ندباً زرقاء على بياضها، وهي تتألم، وتجهش بأصواتٍ أقرب إلى صوت ذئبة، وكان ينهض من نومه فزعاً، ولا يعود - بعدها - قادراً على النوم.

- الأمّ؟

ما مِنْ ذَكَرٍ واحد إلاّ واجتاحته منامات الأمّ المنتهَكة، وهي منامات نادراً ما تموت مع موت الأمّ، كلّ ما في الأمر أن إماتة هذا النوع من الألم يموت بقتل الذَّكَر للذَّكَر، وليس ثمّة مَن يعرف إذا ما كانت دوافع الحروب مرتبطة

بمثل هذه الحقيقة البشرية القاتلة، وليس ثقة من ينكر يقين قتل الولد لوالده حتى ولو بدتْ الدوافع غامضة، ذاك القتل الفتكزر، وقد تلبس جاد الحق جاد الله الذي كان يستحضر والده بأشكال مُفترضة، هي مزيج من الولي الوسيط مع رجال متعذدي الأشكال والأجساد والأصوات والملامح، كانوا يتسلّلون إليه من ماضٍ وهم، يتحرّك داخله في حركة لولبية، تشبه حركة الأفعى.

أمه؟ ليست فاطمة على الدوام، وليست زمزدة كما هي زمزدة، هي مزيج من امرأتين، ما إن تدبّ الحياة فيها حتى تطير وسط ريح عاصفة.

- سأبحث عنها، قال لياسمينة فور أن اقتربت منه.

- لن تعثر عليها، لو كانت تريدك أن تعثر عليها، لعثرتْ عليك. أجابته ياسمينة.

- هي أمي.

- هي ليست أمّاً لك.

غزت البنات المصريات مبنى الروبير وغرفه، وكنّ جئنَ دمشق من أزل المهنة؛ لينافسنَ البنات السوريات على زبائنهنّ شحيحي الخبرة، ولن تنسى فرنسا طيلة ما تبقّى من حياتها أقدام البنات الوافدات العارية المتأرجحة من نوافذ المبنى، كانت تمدّ رأسها من نافذتها متطلّعةً إلى غابات الحور، وعلى مقربة منها السيف المعماري لساحة الأمويين، الذي رفعته دولة الوحدة المصرية - السورية، وكانت تبدو من نوافذ السيف النصب بزجاجه الملوّن كل الأعلام العربية، مبشّرةً بالوحدة العربية الأشمل ما بعد وحدة الإقليمين، سورية ومصر، وإشادة هذا النصب، كانت فرنسا تستبق أفكارها بلهفة، بانتظار عودة زمزدة من بيت قتيبة شهاب، وكانت على علم بأن زمزدة تسعى لحطّ رحالها هناك في بيت قتيبة العجوز متخلّيةً عن عملها في الروبير، فوفرة البنات حالت دون الأجور القديمة التي كانت بنات الروبير ينلنها، بالإضافة لجروح عميقة، أصابت جسد زمزدة، كما روحها، حتى بات الزبائن يشتكون منها، وربّما يبتعدون عن معاشرتها، وطلبها. في النهاية، توطّد لدى فرنسا أنها ستنتهي وحيدة، بائرة، في هذا المكان، وقد تكون نهايتها شبيهةً بالنهاية الحزينة لعجوز كرخانة باب الجابية، وقد لفظت أنفاسها الأخيرة، مطلقة سعالاً حاداً، بصقت معه البلغم الصدئ العالق في بلعومها، بلغم راكمته سنونُ التبغ والانتظار على قارعة رصيف كرخانة، يتجوّل في أزقّتها البداوة، والصبيان الهواة مستطلعو الذروة الأولى، وقاطعو الطريق، وفاقدو الأمل، وحاملو الهراوات وأمواس الكبّاس ذات الطقّات السبع.

شعرت فرنسا بقوة خفية تهمس لها بأنها باتت سفينة غارقة، واتخذت قرارها النهائي بأن الحياة مُحزنة لكلّ من يطفو فوق أمواجها، مع ذلك، كان تيار الحياة أقوى منها في تلك اللحظة، ولم تكن قادرة على حسم نهايتها بيدها، كما كان يحلو لها أن تفعل، وكانت ترجو الله أن يتدخّل، فمع أنها امرأة شكّكت طيلة عمرها بوجود الله، ومع أن أيامها لم تخلُ من الإلحاد والتجديف، ففي غمرة هواجسها المريضة، مدّت عنقها من النافذة؛ ليصرخ بها ثلاثة صبيان، وبصوت مرتفع مرفق بصافرات شفاههم:

- أعمال حزة تحت السزة، يا فرنسا؟

كانت فرنسا خائفة من الفراغ، ومن المجهول، وكانت وهي تتدلى من الشباك استجابة لصفير الصّبية، تتأرجح متمسكةً بالهواء، وما من شاهد يعرف إن كان الهواء قد مدّ حباله إلى أيديها؛ كي تمسك به، كلّ الشواهد كانت تقول، بأن الصبية الثلاثة فزوا هاربين، مطوّقين بالخوف من هول وقوعها، وقد ارتطم جسدها بالأرض؛ لتطفو ووجهها نحو السماء، وفوق شفتيها ما يشبه ابتسامتها الفتية على الدوام، وكان الدم يرسم علاماته، ويخرج قطراتٍ من فتحتي أنفها، بينما تبلّل فستانها بالبول كاشفاً عن ردفين ضخمين، ضاق سروالها بهما.

الموت.. سياف الألم، وضع حدّاً لجموح فرنسا، وأغلق نافذتها إلى الأبد، حدث ذلك بصمت، لا يوازيه سوى ضجيج ما تحت نوافذ الروبير في مدينة، تغفو موعودةً بفجرها.. الموت حصّاد الرغبة واليأس، السأم والأمل، الضجر والفرح، الهجر والمواعدة، فاتورة الولادة، وعربون السؤال الأزلي، تكوّم تحت أسرار ليل الروبير، وقد سترت سماؤه جثة فرنسا.

لم تسمع أيٌ من بنات الروبير صوت ارتطام جسد فرنسا بالأرض، فقد سقطت بصمت، وكان يسيل من ضجيج المكان صوت مطربة القطرين فتحية أحمد، وهي تغني يا حلاوة الدنيا، يا حلاوة، وهي الأغنية الأكثر انتشاراً، في بلاد تبحث عن طرب مؤقّت، يؤجّل مصائر بنات عراة محفوفات بأوشام تغطي سواعدهن، يستدير فيها القلب منتهياً، كما رأس سهم، فيما السهم يخترق القلب إلى الأسفل، وعلى الساعد الآخر أسماء مختزلة لرجال، أقسموا على الحبّ، وفي غفلة من القسم، استأصلوا ذكرياتهم، وهجروا حبيباتهم تاركين نُدباً في أرواحهن، غالباً ما كانت تتسبب في حرمانهن من الحليب والدموع؛ ليقبعن في الروبير، وهن يتلصصن على رجال فحول، دون أن يتسنى لهن كتابة آلامهن.

بدت فرنسا الميتة باهتةً وشاحبة، والسّر الذي لم تكن تبوح به، سوى بكلام مبهم، وقد أودعته عند صباح سبح، هو اكتشافها بأنها مصابة بوهن الرغبة، فبدأت تحلم بعناق الموت، شاقّة طريقها متأملةً في عالم ذكور الروبير وفتياته اللواتي كن يستمتعن بنهاراتهن بالمسلسلات الإذاعية؛ لينهضن متابعات روتين انفراج الساقين، ومن ثم: تشطيف أقفيتهن؛ ليتحولن ببطء من بنات بيضاوات أو شقراوات، إلى ذوات شعر أشعث وبشرة خضراء، تمتصهن آفات رجال، يلتهمونهن على عجل.

موت فرنسا أربك أسئلة بنات الروبير، كما كانت حياتها على الدوام مربكة، وما كانت همساتهن المتشككة، سوى استنكار لموتها، وليس طلباً أو رجاءً منهن لحياة جديدة لفرنسا، بل إيماناً منهن بأن فرنسا كانت كائناً معانداً للموت، وعلى صلة عنيدة بالحياة، وربما، وبسبب من هذا الاعتقاد كنّ يرددن كما كورس:

- مش معقول.

كنّ كما النوارس يرفعن شراشف بيضاء، ويغطين بها جثة فرنسا ملوحات بشراشفهن في الهواء، آملين أن تنهض الميتة على بياضها الملطخ ببقايا حيوانات رجال، يذرفونها فوقهن ببلاهة وثقة.

حين وصلت الشرطة العسكرية إلى الروبير مرفقة بدورية من الشرطة الجنائية، كتب المحققون تقريرهم باستخفاف، معتبرين أن موت فرنسا لم يزد عن كونه انتحار مومس، ولم يزد تقرير الخبير الجنائي عن سطرين، كتبهما، وهو يقهقه ضاحكاً، وسط دندنة ألحان سوداء، لشرطة أعفتهم طريقة موتها من التوضيح، واستدراج الشهود، غير أن بعضهم كان يرغب بالاستزادة في التحقيق، كتبرير ضمني للصعود إلى غرف الروبير، والتحديق ببناته مفترضين مسبقاً أنهم سيطالعون عرض عري، وسيذرفون لعابهم فوق عراء بنات، يتداعين إلى تبديل ملابسهن، وهن يحككن جلودهن كاشطات عضات البراغيث، وقد ملأت غرفهن في تلك الليلة، ومن بعدها، يُقسمن بأكساسهن أنهن لا يعلمن شيئاً عن موت فرنسا، ولا عما اختبأ في قلبها من أوجاع.

حين وصلت أنباء جثتها ملفوفة بشرشف إلى حي الضبارة، كان زوجها فوّاز يكرع كلاماً بائتاً عن خيبته، لكنه لم يكن ليميز ما بين الأموات والأحياء، وكان يتغلغل في أعماقه أكثر صمتاً من أيّ من أيام حياته الفائتة، وحين نهض، وهو يجز قامته المجروحة مستقبلاً جثة فرنسا، عاد وانهار فوق وحل المكان، في غضون ذلك، وصل خبير السعادة وارث أسنان أمه، وتبعه رجال ونساء كثيرون؛ ليعقدوا مؤتمرهم في الزقاق المتعرج، منددين بالموت، راسمين تمجيداً يائساً لأيامهم القادمة.

لم يؤثر اللحم الطازج الذي أعدوه احتفالاً لتوديع روح فرنسا على قناعاتهم الراسخة بأن فرنسا ماتت؛ لأن الله اختار لها أن تموت، وبمرح يشوبه صوت مختنق باكٍ، يُشبه نباح الكلاب، قال فوّاز:

- باتت أيامي معدودة.

حصل هذا بعد الدفن، دُفنت في قبرٍ فقيرٍ، في منطقة ترمي أمواتها دون شواهد قبور، فقد نقلها وارث أسنان أمه في صندوق شاحنة هالكة نحو جنوب دمشق، وهناك، أهال عليها قليلاً من التراب، دون أن يتوقّف عن رشف العَرَق من بطحة معلّقة فوق خاصرته اليمنى، وهو يقرأ الفاتحة على روحها الطاهرة، فيما نساء الحي ورجاله ينتظرون عودته، وكان جاد الحق جاد الله عائداً من رحلة بحثه عن زمزدة، بعد بضع زخات مطر، مطارداً بأشباح طفولته.

كلّ شيء يابس في هذا العالم، كتب جاد الحق جاد الله، وهو يرثي فرنسا، لكنه في رثائه لها، شدّد على أنها "تشبه طائراً غريداً"، متناسياً حجم الكراهية التي كانت تكنّها له الراحلة "الطيبة"، "ذات الضحكة التي تجعل فمها يأخذ شكل نحلة مهتاجة، وكان - وهو يتابع كتابة الرثاء - يجوب ذاكرة اللغة، بسرّية، وكان يشعر بالظمأ؛ ليؤكد أن فرنسا "باتت واحدة من ركّاب قاطرة الراحة الأبدية"، ولم يقف حتى أطلّ الفجر؛ ليتابع كتابة الرثاء جالساً على كرسيه في مبنى الصحيفة، مختبئاً عن أعين محرّرين، لا يشك في احتقارهم للألم وسؤال الموت والخلق، مشتعلاً بحمى غامضة، وهو يغسل وجهه بدموعه.

- ما بك؟ سأله رئيس التحرير.

وقبل أن يأخذ جاد الحق جاد الله فرصته في تجفيف دموعه، نزع رئيس التحرير الورقة من يد جاد الحق جاد الله، وقرأ:

- حادث موت في الروبير.

لم يسبق أن قرأ نجيب، رئيس التحرير، لغةً على هذا القدر من الوجع، كان يتأمّل ما كتب جاد غارقاً في غرابة وحقيقة ما يقرأ، ولم يكن يحتاج عن ما يزيد عن جمل ثلاث؛ ليطلق صرخة إعجابه:" انه الروبير، قسم من الزمن الضائع، موت فرنسا يستعيده إلينا، ولقد رأيناه فيما يأتي من الزمن".

لغةٌ أخرى منهكة، مثابرة، معوجة، غموضها لا يقلّل من إشعاع خزيّة وانسياب كلماتها، لغةٌ لا تبحث عن اليقين؛ لتضيق فسحة السؤال، هي سؤال لا يتعثر بيقين البشرية المتوارث، كان جاد الحق جاد الله قد نزفها تحت عنوان " حادث موت في الروبير"، وكان رئيس التحرير لا يزال يتأمل ما كتب جاد الحق بشيء من الإعجاب القلق، دون أن تخفي عيناه اللتان

تتسعان، ثم تضيقان؛ لتعودا إلى الاتساع دهشته مما يقرأ..قال رئيس التحرير هامساً.

- ما هذا؟ أنت كاتب عظيم. قال لجاد الحق جاد الله، وأضاف، وكأنه يزفُّ بشرى:

- سأنشرها بالمانشيت العريض على الصفحة الأولى، وستكون مُذيلة باسمك، وسأخصص لك مكافأة مجزية.

حين يضطرب مواجهاً لحظات صعبة، كانت أصابع جاد الحق جاد الله، والتي تأخذ شكل جذور الشجر تبرد، وكانت الدماء تجري فيها على عكس الدوران الطبيعي لحركة دمه، كانت أصابعه تتثلج:

"لقد بردت"، قال جاد الحق جاد الله، واسترخى فوق كرسيه، وبعدها نهض منحنياً بحدبة وظهر مُقوس:

- أرجوك.. لا، ياسيدي.

حاول نجيب أن لا يسمع رجاءات جاد الحق جاد الله، أو بالأحرى لم يرغب أن يسمعها، وقد امتلأت عيناه بذخيرة من أسئلة، كاد يرشقها في وجه الولد الفصخج، ولم يكد جاد الحق جاد الله أن يتسلّل ثانية إلى رجاءاته بأن: "أرجوك، يا سيدي.. أبوس يدك"، حتى أدرك نجيب أن في الولد سرّاً، ربما لم يحن الوقت لكشفه.

- طيب، اختر اسماً تحبه، قال نجيب.

- لا أعرف.. كلّ الأسماء لا تتجاوز أن تكون اختزالاً لنا.

- طيب، ماذا عن اسم هلال، هلال رحمة؟

- لا يختلف عن اسم رحمة هلال، يا سيدي.

- طيب... هل نضيف إليه اسماً ثالثاً: هلال رحمة زكي؟

- سيكون أكثر طولاً مما ينبغي، يا سيدي.

- زكي هلال.. قال نجيب

- المهم أن لا يكون اسمي..

لم تكن أفكار جاد الحق جاد الله قد تبلورت بعد، ولم يكن يُحبذ أن

يكون من البشر حاملي الرؤى، أكثر من ذلك، كان في قرارة نفسه يُدرك أنه مُجزد خطأ ارتكبته الطبيعة، وأن عليه أن يكون منسياً، حتى وهو حاضر في زواريب حيه، وأمام خمّارة جبرا، فيما وارث أسنان أمه يتكئ على باب الخمّارة مُستعيداً الوقائع الصغيرة التي حدثت إبان دفن فرنسا.

" والله العظيم، ورسله، إنها لم تتوقف عن الغمز والتراب يطفو فوق وجهها، فما إن انهال عليها التراب حتى سخن، وبات حبات جمر ملتهبة.. كان بوسعنا أن نشوي ثوراً على لهيبها، ولا شك بأن جثث الرجال الذين يحيطون بجثتها كانت تتحرك، كانت رماحهم تخرج من قبورهم، وكنتُ أسمع تنهداتهم بأذني هاتين، وكنتُ أرى بعيني اللتين سيأكلها الدود رجالاً موتى، يتحرقون مادين ألسنتهم اشتهاءً لها".

كلام وارث أسنان أمه، استدعى الكثير من الضحك، ومع كلّ زفرة في كلام وارث أسنان أمه، كان يصطخ أسنانه، ويمسح لعابه بكم قميصه، وكان يتابع؛ ليطيل أمدَ لذة الإشارات الجنسية التي يبعثها في مستمعيه، مرسلاً بغمزاته إلى الماضي، باعتبار الماضي هو بيت جميع سكّان الحي، وهم الذين يعرفون تفاصيل بعضهم بعضاً.. رفوفهم، آنيات أجسادهم، أسرّتهم المتهتكة، زفرات موتاهم، وصرخات أجنتهم، وكانوا يتسلّلون مجتمعين إلى قبر فرنسا، نابشين التراب عنها؛ ليعيدوا دفنها ثانية بعد تعريتها.

على أية حال، كان وارث أسنان أمه قد قدّم النسخة الأولى من وقائع دفن فرنسا، واحتفظ بالبقية للقاءات جامعة مقبلة؛ ليدلف إلى الخمّارة محدودباً، كما قرن تيس، تاركاً مجموعة من الرجال والنساء في مزاج مرح، هو ما يصوغهم على شكل قبيلة، كلّ ما يربط خيوط نسيجها ضحك ماجن، وقد جرّدتهم الحياة من أي شكل من أشكال الانصهار في مدينة، لم تعترف بأيٍّ من حقوقهم الأخرى.

ما يعرفه الجميع، ويتناسونه على الدوام، أن وارث أسنان أمه لصّ محترف، وسكّيرٌ مثابر لذلك تجمهروا، يحيطونه مكثرين من الأسئلة عما يمكن أن يكون قد سرق من جثة فرنسا.

- ولا شيء، لم أسرق من جسدها شيئاً، قال مقهقهاً. وتابع:

- كنتُ أرجو الله أن يؤخر موتها عشر سنوات فقط.. عشر سنوات؛ لتستبدل أسنانها بطقم أسنان، لو حدث ذلك، لكنتُ قد وقعتُ على أسنان

جديدة بدل أسناني هذه.

قال ذلك ملوحاً بيده، وكأنه يودّع جمهوراً في صالة مسرح، وبين متجمهرين فيهم من يستنكر جريمة الغمز من الموتى، غير أن الثابت أنه ما من صوت مستنكر بمقدوره اجتياز أية مسافة خارج الدائرة التي يداعب فيها وارث أسنان أمه نكهة الجنس المرسلة إلى أفواه جمهور متلهف.

ما إن دخل وارث أسنان أمه الخفارة حتى التفت إلى جاد الحق جاد الله، وكان جاد الحق جاد الله جالساً بجوار جبرا.

- ما هذا الذي على أصابعك؟

سأل وارث أسنان أمه، مستفسراً عن الحبر العالق فوق سبابة جاد الحق جاد الله وعلى الحافة اليسرى من إصبعه الوسطى.

- إنه حبر.. ها؟ تابع الوارث متسائلاً.

كان جاد الحق جاد الله خائباً من أمرين معاً، أولهما أنه وحين كان يعبر صبيحة اليوم غرف الجريدة الخالية، لم يفلح في أن يكتب سطراً واحداً على الآلة الكاتبة، وكان خائباً كذلك من مقالات صححها، لكتاب يعثروا كلاماً، يمكن تبديل مواضعه دون أن يتغير شيء من المعنى، أقله أن ليس ثمة معنى لكلامهم، وفوق ذلك، كان عليه أن يتأمل وهو فوق كرسيه ثمرة الأجاص التي يحملها هوزان، الشاب القادم من القامشلي، وقد انكسر ساعدها، وتقطعت أوتارها، وكانت بزق كردي.

حين تطلّع هوزان إلى جاد الحق جاد الله، قال له:

- أنا قادرٌ على العزف بلساني، لا تخف.

ما إن بدأ هوزان العزف بلسانه، حتى استدرج الاف السنين الخالية، كان يدندن أغنية كردية حزينة، تكرّس صورة عشق عن أجداده الأوائل، الذين استنبتوا قمح تل أبيض منذ آلاف السنين، وكان هوزان يرتدي قبعة مستديرة، وقميصاً أخضر، بكفين منفوخين، ويتدفّق مرهوب الجانب من شكارى الخفارة، ليس - فقط - بسبب وسامته وفحولته الظاهرة، أكثر من ذلك، بسبب رأس الحصان الذي يحمله فوق كتفيه، والأجراس التي يعلّقها في أكمام قميصه، وفي جاهزيته القصوى إلى القتال، إذا ما أعاد أي من الشكارى تكسير لحنه، كما كسر مارقون من المتشذدين قومياً بزقه.

كان يعزف في مسار صوتي متقن، ولم يكن أيّ من جمهور الخفارة

ليرفع صوته، مشدودين بإحكام إلى صدورهم، وكأنهم خائفون أن تهرع منهم قلوبهم، وكان وارث أسنان أمه حماراً فلواً مهزوز القوائم، وهو يقطع الطريق من الجدار المتكئ عليه إلى طاولة جانبية بعيداً عن جبرا.

كانت معزوفات هوزان تحاكي جبرا شخصياً، فالانخطاف الذي طاله منذ أن عثر في قلبه على زمزدة. كان انخطافاً سرياً، متكتماً، ماكثاً كما عجوز في رأسه، عربة تجزه على وقع حوافر خيولها، وها هي ذي زمزدة تنهض مع دندنات هوزان، حاملةً معها بيت كلّ حالم، لترى كلّ ما فيه، بما في ذلك ما ليس مختبئاً.

كان على جاد الحق جاد الله أن يلحظ دمعة جبرا تتموّج منتفخة على خده، بعضها ما يزال مختبئاً تحت حراشف ذهوله، ووجهه مطليّ بصمتٍ جارف، وقد أرخى شعره فوق عينيه حفاظاً على أسرار قلبه.

- يا الله، قال جبرا، ونهض متجهاً إلى الخارج.

أوه.. حمار قبرصي.. قال جبرا لرجل يقطع من أمام الخمارة متعثراً بحماره في ليل الأزقة، وبعدها تطلّع إلى السماء طالباً المزيد من الهواء لرئتيه، وكان المارة يروحون ويجيؤون، بعضهم ناعس متثاقل، وبعضهم أخرق، يخطو ملقياً عليه التحية بهبل.

- ربما تعود.. ستعود، قاطع جبرا نفسه واثقاً.

يمكننا أن نخمن أن جبرا كان يأمل، حتى وهو يعرف أن ليس ثمة أمل بعودة زمزدة، ولكنه كان يفتقر إلى القدرة على رؤية الأدلّة، وهي أدلّة يمكن تفسيرها، إذا ما تعقد المرء تفسيرها تفسيراً خاطئاً، فالحب يؤاخ، وثرثار، وعارٍ، وكائن يمكن قراءته دون أن يكون بالوسع ترجمته... هو هكذا، سرّ حصري معلن، يكثّف الكون فينا، فحين تخطف نظرة إلى عين الفجب ثمة إشراقة مترجرجة مثل بقية شمس فوق سطح الماء، وزمزدة وحدها من يمكن أن يعطيه الأدلّة، لكنها لم تعطه دليلاً واحداً، فقد كانت تعبره، وعينها منكسرة إلى الأسفل، جهة الجحيم؛ لتتابع سيرها مودعة خطواتها في سريره؛ حيث تتمدد الأحلام إلى جانبه.

أخبرتني زمزدة، وكانت استقرّت لياليها، في بيت قتيبة شهاب:

- هل تحبين هذا النبيذ؟

سألها قتيبة بصوت رقيق، مسدلاً جفنيه عن مراقبة نظراتها القاتلة،

وبكلّ ما هو مُقدّس في العالم الأرضي، كان يتطلّع إلى دروبها، وهي تعبر صالة البيت نحو الحمّام، مُتيقّناً من أن رحيلها سوف يلقي به ثانيةً إلى عالم مهجور كانت زمزدة قلقة على غير عادتها هذه الليلة، كانت مسكونةً بابنها جاد الحق جاد الله، ولكنه ليس ابنها، وهي وإن لم تكن تعي حقيقة الأمومة، كانت تستعين بغرائزها؛ لتعرف أن الأمومة هي عدوان الجسد المُذكّر على الأنثى، وقد سدّد قوسه نحوها، وليس ثمّة مُذكّرٌ في حياتها حملها على أن تنفخ بطنها.

وهي تتابع النظر إلى وجهها في ماء المرآة، كانت صورتها تتكرّر، وكان حطب مدفأة الحمّام ينفث دخاناً مُكثفاً، لرائحته ملمس، فيما مربّعات البورسلين واطئة تحت سقف الحمّام، وبالوسع مسح البخار عنها براحة يدها.

في الخارج، مكث قتيبة يعدّ لها محلول الشاي بالذرة، وكان يمدّ نظره من باب المطبخ إلى الصالة، متابعاً النظر إلى تمثالين صغيرين لبرج إيفل، وحالما خرجت ملفوفة بمنشفة، قال لها:

- تعالي، نسافر إلى فرنسا.

وهو يحكي لها عن فرنسا، عن بائعات الزنبق، وعن مرونة التجديف في القوارب بمياه السين، كانت تلتفّ بانحناءة النائم، وخيالها مع فرنسا في كرخانة الرويين، ومع أيامها الخالية، وبنات يتنافسنَ على البذاءة وإطلاق الشتائم، والكشف عن مؤخراتهنّ، وهنّ يتسلقنَ نوافذ المبنى عارضات صورهنّ على زبائن، يقفن تحت النوافذ؛ لتغطس في نوم، نهض قتيبة على إثره ملاحقاً أشباحها في الحمّام؛ حيث رمت سروالها الداخلي، وحمّالة صدرها فوق الأرضية، تاركة آثار قدميها الصغيرتين فوق البلاط المبلّل.

كانت ليلتها ليلة رأس السنة، وكانت نهاية السنة تعني بالنسبة إلى قتيبة: الفراغ، الانتظار، ولم يكن قتيبة مصاباً باليأس، إنما كان مُصاباً بما يمكن تسميته غياب الأمل.

هو جرس الكهولة ذو الماسة السوداء، النداء البرونزي لوقائع السير نحو الموت، وكان عليه أن يكافح؛ ليسابق الموت.

النوم؟ يظنّه إلهاً، ولكنه إلهٌ يشبه الموت، ويلتقيه، ولهذا كان قتيبة دائم الخوف من النوم، كان يخاف على زمزدة منه، وكان يرغب في إيقاظها، وكان وهو يتأمّل جفنيها، يقع تحت تأثير لا قوام له، بقدر ما هو محطّم

لكلّ أشكال البحث عن السبب.

حين جثا إلى جانبها، خلع خاتمه من يده، وأدخله بمودّة وحذر في راحة يدها نصف المفتوحة، ضمّت يدها على خاتمه؛ ليبدو قتيبة أقلّ حزناً من ذي قبل، نهض من جانبها، وهو يُدثّرها، مغطياً ساقيها بمعطفه، كابحاً نفسه من التفرّس المغوي الذي يوقظ جموحه نحوها، مودعاً تحت الغطاء أسرار جسدها، وجرائم رغبته.

- جرائمه؟ جرائم رغبات قتيبة؟

هو السؤال الذي ما يزال يطارد جاد الحق جاد الله حتى اللحظة، محمولاً على محفّة أيّامه الأخيرة في ساحة مشفى المجتهد.. هنا؛ حيث تتململ الجثث ما بين علب الموتى، والسيارات الناقلة للجثث، والجثث المنقولة نحو المقابر، أو المحمولة على أكتاف بشر، سئموا انتظار الغائب، وفرّوا من بيوتهم المتهدّمة، محاطين ببقايا أمل في الحياة وقذائف المدافع ورشقات الصواريخ ترسم مصائرهم.

قذائف الموت وسيارات الهلال الأحمر تروح وتؤوب، ومع إنذارات صافراتها، كان على جاد الحق جاد الله أن يتيقّن أنه لم يعد بوسعه انتظار المزيد من الوقت؛ ليدلق ذاكرته فوق مساحة مشفى المجتهد، مبلّلاً ذاكرته بالوحول والدماء وآثار أقدام تتطاير في هواءٍ معجونٍ بالنواح والزغاريد، وكان يتساءل عن تلك الرغبات المكتومة التي تدفع بأمّ ثكلى أن تستقبل جثّة ابنها بالزغاريد..

- يا لهذا العويل المرح!

قال جاد الحق جاد الله مخاطباً نفسه، وكانت ياسمينة على وشك أن تقول له:

- أغمض عينيك عن هذه الأصوات..حين لا ترى لا تسمع.. العين وحدها تلتقط الأصوات..

- إذا ما تابعت الكتابة بهذه الروح، فستكون من الكتّاب الخالدين.

هذا ما قاله نجيب لجاد الحق جاد الله صبيحة اليوم الثالث من انتحار مومس الروبين، غير أن الخلود ليس أكثر من زمن، لاينتهي بالنسبة لجاد الحق جاد الله الذي يرغب في أن ينتهي كلّ شيء، ما يعني أن نبوءة نجيب قد حطّت ثقيلة فوق جاد الحق جاد الله، فانكمش مصغياً إلى عيون الجثث المفتوحة التي تحدّق فيه؛ لتومض بأصوات مرتعشة، لها عين النبال الذي يسدّد سهمه بنظراته القاتلة.

الخلود؟! يا لهذا المثال الغبي! قال جاد الحق جاد الله مخاطباً نفسه، ثم همس متابعاً:" الكلب الميت يساوي في التراب قيصراً ميتاً"، ثم التوى على جذعه كمن يتضاءل بإرادته، وما إن دخلت جورجيت إلى مكتب نجيب، حتى نهض بحفاوة مبالغ بها؛ ليقول لها:

- هذا هو الشاب الذي كتب موت الروبير.

بدا جاد الحق جاد الله مهجوراً، حقلاً منسياً حين لم تلتفت جورجيت إليه، وبدت جورجيت نافذةً مُسدلة الستارة، وبإشارة تضامن صريحة، كرّر نجيب مشيراً إلى جاد الحق جاد الله:

- سيكون كاتباً ذا شأن.

لا أحد من كتّاب الصحيفة الذين تجمهروا حول جورجيت لاحظ أن جاد الحق جاد الله ينظر بطرف عينه إلى فخذي جورجيت المكشوفتين، وليس من اليسير تتبع نظراته التي أخذت طريقها نحو شق ما بين فخذيها، كان في مرمى نظرات جاد الحق جاد الله، غير أنها - وبفصاحة الغرائز الخبيرة - التقطت جورجيت نظرات الصبي، وقد أفقدته البصر، تعمّدت أن تدفع نفسها إلى أن تُبقي عينيها مسبلتين نحو صدرها، ومن ثم؛ تدير نظرها نحو نجيب لتقول له وراحة يدها المفتوحة تشير إلى جاد الحق جاد الله:

- ما يزال طفلاً.

حال أن نهض نجيب؛ ليحضر مقالة كتبها جاد الحق جاد الله تحت عنوان: " احتفالات المقابر"، حتى هرع جاد الحق جاد الله خارجاً من مكتب نجيب، اتجه إلى مطبخ الجريدة.

كان يُكرّر وكأنما يحفظ درسه من جديد، هنا الشاي، وهذا السكر، وعلي أن أغلي الماء، وبعده أكيل السكر، وحين يغلي الماء، أدلق الشاي، وليس أمراً طيباً أن أسمح للشاي أن يغلي في الإبريق، وما علي فعله هو أن أدع الشاي يختمر في الإبريق، ومن بعدها، أضعه في الكاسات، ومن ثم؛ أتجه إلى الضيوف، وأتقدم وعيناي منخفضتان إلى الأسفل؛ بحيث أستطيع رؤية حذائي جيداً، ودون أن أرفع بصري، أقدم الشاي للضيوف.

هذا ما فعله جاد الحق جاد الله بالضبط، وحين توقف أمام جورجيت وصينية الشاي ترتجف بيده، تابعت جورجيت حديثها عن موسيقى العبيد "هذه الموسيقى هي الجاز وأجدادها هم الزنوج"، ثم التفتت إلى جاد الحق جاد الله، دون أن تلتفت، وتابعت حديثها عن أولى رحلاتها إلى شيكاغو، ومن ثم؛ استطلاعاتها في الأزقة الجانبية؛ حيث العبيد الذين يتشاجرون على أرصفة الشوارع، وبيوت الدعارة التي تملأ بيوت الصفيح.

هو يعلم أن جورجيت تنظر إليه حين لا تنظر، فللذكورة قرون استشعارها، وللحقى الجنسية رائحة، كما صوت، هي ليست كما الهواء أبداً، إنها بلون ورائحة وطعم، وكقضيب رمان كشاف المياه، كان يتلمس بحدسه ما تبلّل منها عليه.

بتعالٍ، وكانت تخطف نظراتها صوب جاد الحق، حكت جورجيت عن الدولارات التي رشقتها على الأرض، والتي حوّلت العبيد إلى ذباب يُطارد يدها، وكان كتاب الصحيفة يستمتعون بالإصغاء، كما بالعطر الفاتن المنبعث منها، وربما كانت حواسهم مضطربة أيما اضطراب، كانت ترتدي كاباً مسائياً، وتصبغ شعرها بالأحمر، وتحت الكاب فستانٌ بفتحة عنق واسعة، أرجواني، يقف على سلّم الألوان المبهجة محاطاً بالأبيض والأسود، كاشفاً عن نهد نزق؛ لتبدو جورجيت كما كلّ الحقائق الباردة ساخنة في أحلام كتاب، معظمهم قدم من الأرياف القصية، كنتاج عن أوقات شدة، تتطلب أفعالاً متهورة.

كان صوت الذباب يصدر أزيزاً فظيعاً يرتطم بأذني جاد الحق فيحيلهما إلى مقبرة لذباب، هكذا، تساقط الذباب في أذنيه حتى أوشك أن يفقد سمعه، غير أن ثقة ما يسمع بعينيه اللتين كانتا تحدقان بخط كلسونها،

وقد انزاح صوب شفها النهم الأكول.

من بين الكتاب، ثمة كاتب في الأربعين، أو نحو ذلك، يجلس بثياب عتيقة، ووجه حليق، وفم يسيل لعاباً، وفكين مرتخيين، ما جعل قسماته تقدم تعبيراً منحطاً عن شغفه بجورجيت، كانت تُجامله بكلمات، لا تعدو أن تكون مُجزّد إشارات، هي تُضحك بقدر ما يمكن أن تُدمي، وحين قالت له:

- أ لم تنته من الترجمة بعد؟ أجاب:

- فور أن أنتهي، سيكون النص بين يديك.

أكدت جورجيت على نجيب أن يرسل لها النص المترجم مع الصبي جاد الحق جاد الله، وكانت تقول إنها كتبته باللغة الفرنسية، طالبة ترجمته إلى العربية، وأنا:

- حين أكتب بلغة، أكتب بمشاعرها، ولهذا سيكون من الصعب علي إعادة كتابته بالعربية؛ لأنني لست عازمة على تحويل مشاعري من لغة إلى لغة.

قالت ذلك ضاحكة، ثم تابعت:

- على المرء أن لا يُحدث تحولات في مشاعر الأمس.. الأمس للأمس، والساعة للساعة.

خُيّل لجاد الحق جاد الله، أن بين فخذي هذه المرأة كتلةً وارفةً من الظلال، وزاد من خياله رغبته الجامحة في أن يرفع الغطاء؛ ليكشف سرّها المؤلث، ولم يكن وهو إلى جانب ياسمينة في فراشهما الليلي في حي الصفيح، ليداري مشاعره، فقد مارس الجنس مع ياسمينة، مستحضِراً جورجيت، متنقلاً من الطفل إلى ذكَر ذباب يعلو ظهر ذبابة.

قالت له ياسمينة، وهي نصف نائمة:

- اهدأ قليلاً، سأنام فوقك، إنك متعب.

بين ليلة الأمس والليلة ثمة هاوية، فقد بات على ياسمينة منذ الليلة أن تغير رائحتها، واسمها، ووزنها، وتدييها، وزنبقتها، وعمرها، وصوتها، وشفتيها؛ لتغزوه، كان عليها أن تحمل أهداباً ملتفة إلى الأعلى كثمرة ذبابة طائرة، كما أهداب جورجيت، وكان عليها أن تحوم حوله، ثم تمعن في سكّره.

ما إن حصل وانتهى مترجم جورجيت من ترجمة النص، حتى رسم نجيب خارطة بيت جورجيت على ورقة صفراء بقلم أحمر، وناولها لجاد الحق جاد الله:

- هنا، يا جاد.. بمواجهة هذا المشفى.. هنا ستعثر على بوّابة ضخمة من الرخام.. تطرق الباب.. يفتح لك الخادم.. تناوله المظروف، وتعود.

حدث هذا بعد صبيحة اليوم الثالث من زيارة جورجيت إلى مكتب الجريدة، وكان جاد الحق جاد الله قد وصل مُبكراً قاطعاً أزقّة حيه شاقاً طريقه بين أطفال حفاة، وكلاب هزيلة، ودجاجات تتقافز فوق صفيح البيوت.

عند بوّابة عمارتها الضخم، وقف جاد الحق جاد الله، بوّابةٌ من رخام منقوش، برزت من نقوش رخامها مخالب أسد على جانبي الباب، وحين أطلّ خادمٌ أسود من البوابة، دعاه إلى الدخول مؤكّداً لجاد الحق جاد الله:

- المدام تريدك.. قالها بلهجة سودانية، وكانت جورجيت جلبت خادمها من مصر.

الصباح.. لا شيء بالنسبة إلى جورجيت، وهي المرأة الليلية التي لا تستنهض نفسها قبل الظهيرة، وها هو جاد الحق في صالة بيتها، صالة امتلأت بلوحات، لم يصله معناها، أما صور الأبيض والأسود؛ فلم تزد عن كونها إطارات مذهبة، تسبح على حوافها أرواح الموتى.. الجد الأول لجورجيت، وجدّها لأمها، وصورة لأبيها، وهو يعانق أمها، وصورة ثانية لأبيها على متن باخرة، تغمرها المياه تاركة من مقدمتها ما يشبه رأس أفعى.

دخلت جورجيت الصالة، ببساطة أرنبة، بل كانت ترتدي فستان استراحة طويلاً، ينتهي بقبة من فراء أرنبة، عيناها محمزتان كما عيني أرنبة، وقبل أن تأخذ المظروف من يد جاد الحق جاد الله، تلمست قفى راحة يده.

- اجلس، قالت له.

على الرغم من غرابة أطوارها، بدت هادئة، غير أنّ يده الممسكة بالمقعد، حثّته على النهوض؛ ليقول لها:

- الأستاذ بانتظاري، هل تأمرينني بشيء؟

- اجلس، قالت جورجيت بلهجة محفلة بنكهة لبوة.

اللعب مع النساء اللواتي يعرفن كيف يُلقين الأوامر، كالعبث مع الموت، يعرف جاد الحق جاد الله ذلك، فرؤاه، لم تكن لتستعين بخبرته المتواضعة، كانت رؤاه تستدرج من ماض بعيد، ليس له قد يكون من اشتقاقات الجينات البشرية العالقة على أقدام نوعنا، من قال إنه هو هو في هذه اللحظة، وبوسع من أن يتنبأ بأن الانسان هو مجزد عالق ما بين موته وولادته؟ ثم بوسع من أن ينكر تلك الفرضية القائلة بأن روحاً أزلية، لا تحل بروح اللحظة؟

وهو ينفتح على ضحكتها الماكرة، افتتن، كما لو أنه سيذهب نحو عمر مبهم جديد سينقاد إليه، وهي تدعوه إلى فراشها، أما جورجيت التي تتبع نقاء السلالة بحرص؛ فلم تكن لتتبع خطوات من تشتهيهم، وهم في الطريق إلى سريرها، كان يكفي أن تنهض نحو السرير حتى يحلّ الليل، وتتخبط أقدامها مرفوعة في هواء الغرفة.

بنات عائلات الإقطاع وسيداته، لم يتنازلن عن ذكريات طفولتهن، وعن الشيم العريقة التي يمضغنها على موائد العشاء وسط الحلوى باهظة التكاليف، وعن الحفلات الراقصة، وعن كؤوس الفضة التي يستخدمها المشعوذون، ففي أعماقهن، كن يرفضن استقبال الثيران التي يخفن أن تجتث ورود مزهرياتهن، وتقتلع أعشاب أجسادهن، وكانت عائلة جورجيت من بين العائلات التي حصد الإصلاح الزراعي الكثير من أملاكها العقارية في الشمال السوري وفي غوطة دمشق، وكانت تكن كراهية لا تجامل لشخص جمال عبد الناصر، غير أنها لم تكن لتدخر جهداً في توديع كبريائها أمام استثاراتها الجنسية، وأمام متطلّبات جسد، يأمرها، فتأتمر؛ لتجثو مزدهرة، وهي تفكك أزرار بنطال الصبي، كاشفة عن حقيقة نصب؛ يزحف نحو صدرها العاري، مميتاً، نهماً، متغولاً، عصياً على الشفقة، جشعاً، يحمل قناع إله، عابثاً كشيطان.

- لم.. لم أشبع منك، إنك تحرق جحيمي. قالت له.

خمسة جماعات متتالية، وعقب كلّ جماع، كانت تزيل قناع الموت؛ لتعود إلى ارتدائه من جديد.. إنك تميتني، كانت تُكرر، وكان يتلافى أن يتسلّل إلى ما بين فخذيها مستطلعاً أيقونتها، تحسباً من أن يختطفه الموت... وكان يعتقد أن مجرد التطلّع إليها يعني العودة إلى حفرة الأم، وكانت فاطمة، أمه، تركته وليداً طازجاً، ولم يكن بمقدور الوليد أن يرضع

حليباً من صدر جثة.

- تأخرت. قال لها.

- امكث. ستبيت الليلة عندي، وسنكتب الشعر.

حين ذاك، كانت القصيدة الفرنسية قد بدأت تشق طريقها نحو ملتقيات الأدباء في دمشق، وإن ببطء، وكانت جورجيت تتلقف القصائد؛ لتقرأها على مسمع مجموعات من الأدباء الذين يتطلّعون إليها بافتتان، وهي تستقبلهم في صالة بيتها الفخم؛ لتقدم إليهم مزيجاً من تشوش الحواس.. شيئاً ما مرتبكاً ومبهماً، إحساساً جديداً، نوعاً جديداً من الجوع يعززه الأثاث الفخم للمكان؛ حيث ستنقلهم إلى صالة الطعام، مازين تحت أعين الخدم بقفازاتهم البيضاء، وهم يتقلون صواني الفضة والخمور الناعمة، والإوز المشوي الذي يجعلهم يتلمظون ماذين ألسنتهم مهمهمين كالقطط، وجورجيت تتقدم مالئة صحونهم، وهي ترتدي فستاناً أسود عاري الظهر، وشق ظهرها يحفر أخدودا ما بين فصلين من فصول امرأة، كان ظهراً رائعاً، ولا بد أن ذلك المترجم كان من بين المدعوين، وكانت تقرأ قصيدة من ترجمته هو، باعتبارها قصيدة من وحي خيالاتها، وكان يردد مستسلماً:

- يا الله، يا الله.. ما أروعك من شاعرة.

على العكس من ياسمينة، لم يكن جاد الحق جاد الله قد التقط مشاعر الأبوة، كما التقطت هي مشاعر الأمومة، ومع أنه بات أباً لطفل، كان يبحث في أنقاض ذاكرته عما يعينه على التعرّف على ما يمكن تسميته بالأب، هو الأمر كذلك، أما ياسمينة، وقد أرضعت وحبلت؛ فمازالت شغوفة بطفلها، تبني له قصور أوهام، وتخيط له ملابس، بما فيها ملابس بنات، وتحمله ونصفها يخرج من باب كوخها، فيما تنبعث أصوات معزوفات هوزان الكردي من خمارة جبرا.

ربما عزف هوزان ما يزيد عن الساعات الخمس بفمه، متنقلاً بين مقطوعة موسيقية كردية ومقطوعة كردية أخرى، وكانت أنفاسه عصابة لصوص، تتسلل فاتحة نوافذ بيوت الصفيح، مخترقة تشققات جدرانها، تنام مع الرضع، ويصحو على أحزانها نائمون، مكفنين بكامل أردية النهار تخوفاً من جراح برد ليل، لا تندمل.

قلق ياسمينة من تأخر عودة جاد الحق جاد الله، قادها إلى الخمارة، وطفلها ملفوف إلى صدرها، لا، بل مزروع فيه، وحين وقفت أمام جبرا،

سألته إن كان يعرف مصير جاد الحق جاد الله، وإن كان رجلها قد تعرض إلى شيء من السوء.

قطع دخولها أنفاس هوزان، وبعد أن اتضحت عيناه؛ لتبدوا نافذة لأخيلة مشتهاة، قال لها:

- سأعزف له؛ ليعود.

- ماذا؟ تساءلت ياسمينة.

- نعم... حين أعزف للثعبان؛ ليخرج من وكره، يخرج.

يا الله، يصفني بالثعبان، قال جاد الحق، وهو في مشفى المجتهد هذه اللحظة، يتململ في كرسيه المدولب، طالباً من ياسمينة أن تعود بالذاكرة ما يزيد عن ستة عقود.

سألها برجاء:

- هل قال ذلك عني؟

- لا أتذكر ما قال.. ولكن؛ إن شئت.. نعم. قال، المهم أن لا تتحرك كثيراً، ستعود إلى بيتنا، وهناك سأتذكر، وأقول لك ما قال عنك.

قالت ياسمينة ذلك، وسألته وسط نفير سيارات الإسعاف:

- هل كنت عندها تلك الليلة؟

كان على جاد الحق جاد الله أن يرخي مكابح الذاكرة كي تنفلت من عقالها.. أن يتذكر..نعم، وتدحرج من كرسيه المدولب إلى غرفة رئيس تحرير الجريدة.. إلى نجيب ولفافته تحرق شاربيه، وتأكل جزءاً من شفته العليا.

شيطان... قال نجيب بيسمة خبيثة حال أن دخل جاد الحق جاد الله صبيحة اليوم التالي إلى مقر الجريدة، ودون أن يطلب من جاد الحق جاد الله تفسيراً لإنهاك بادٍ عليه، قال له:

- أكلتك ها؟

لم يجب جاد الحق جاد الله عن السؤال، كلُّ ما فعله أن صفق عقبيه، وخرج حاملاً مجموعة من المقالات التي تحتاج إلى تدقيق، متعثراً برجل وارف القامة، كان قد رآه للمرة الأولى، وعلى وجهه تعبيرات غاضبة، جلس

الرجل دون تحية إلى مقعد مقابل نجيب؛ ليقول له:

- سقطت دولة الوحدة.. وصل الانفصاليون إلى الحكم.. الجيش من قزز إسقاطها بالتحالف مع الإقطاع.

قبل أن يحلّ المساء، كانت العشرات من بنات كرخانة الروبير المصريات يحزمن حقائبهن عازمات على مغادرة البلاد، وكانت شوارع دمشق شبه فارغة سوى من دوريات الشرطة العسكرية... بدا المساء أكثر وضوحاً مما عليه في العادة، والعمارات الممتدة ما بين شارع النصر ومنطقة المجتهد شبه خالية من البشر، وكانت سيارة واحدة بيضاء تأخذ شكل السلحفاة، بيضاء من ماركة فولكس فاكن، تقطع الشارع مخملة بضعف طاقتها من الركاب، وكان جاد الحق جاد الله يمشي وسط الشارع، فحاطاً بدفق تصادم ذزات أخيلته، فتطلّعاً إلى مدرسة ممرضات بنات مشفى المجتهد؛ ليعثر على بنتين متعانقتين على حافة نافذة مطلّة على منطقة باب مصلّى، تبدوان لوحةً مسكونة بحارستين، تطلان على ما هو متعذّر الإدراك.

كان المومسات وعمال الفحم من المصريين ضحايا دولة الوحدة، تماماً كما الحالمون بالوحدة العربية التي تتالت نكساتها سنين لاحقة، لا تُحصى.

في حي الصفيح، كان المشهد أكثر ارتجاجاً وأقلّ صمتاً عما هو حاله في المدينة، فأنابيب المجاري كانت لا تزال تتدفّق نحو البيوت؛ لتختلط مياه الشرب بالإشنيات والبعوض، وكان عمال تكسير الفحم من المصريين يهرعون عائدين إلى أكواخهم تخوفاً من أعمال انتقامية ضدهم، حازمين رماد أعمارهم استعداداً للرحيل، وفي اليوم اللاحق، رحلوا.

ثلاثةٌ من عمال تكسير الفحم، دخلوا الحي حين كان جاد الحق جاد الله قد وصل مطلعه، ولم يلحظ على سكان الحي الساهين أيّ تبدّل على الإطلاق، فانفراط دولة الوحدة، لم تكن لتعنيهم في شيء، كما لم تكن وحدة القطرين تعنيهم.. إن كلّ ماسيتبدل بالنسبة اليهم، هو هبوط الليل، وانتظار بزوغ النهار؛ ليطوّروا مهاراتهم في اصطياد فريسة العيش، وكانوا فرائسه على الدوام، وكلّ ما كان يثير أسئلة جاد الحق جاد الله هو:

- افتقارهم الشديد لردود الفعل العصابية، أو للمرارة الشخصية التي تكيلها فوق رؤوسهم مياه المجارير، ونشرات الأخبار الصاخبة.

كان يرى أن خبّ البقاء سيقودهم بالفطرة؛ ليكونوا أعضاء طبيعيين في

صفيحهم هذا، وإذا لم يعثروا على صفيح، سيتقبلون النوم في العراء، فالعناد - وقد أبقاهم على قيد الحياة، والإبقاء على أجسادهم؛ لتكون صالحة للاستعمال - سمح لمجاميع سكان الحياة السفلى أن يتقبلوا العيش في جحور الجرذان، ولن يسألهم النهار عما يفعل بهم الليل.

لطالما ابتعدت ياسمينة عن التدقيق في الأسئلة المعتادة التي تطلقها الزوجات، أسئلة من مثل:" ماذا فعلتَ اليوم؟ ومن قابلتَ؟ وهل سارت الأمور على ما يرام؟"، غير أنها ودون أن تعطيه أية فرصة لتفسير غيابه عن فراشها الليلة الفائتة سألته:

- هل كنتَ تعلم؟

- أعلم ماذا؟

- أنني حبلى؟

- آه.. لا بأس.

قبل أن يبادر إلى الاستلقاء بكامل ملابسه في الفراش، اقتربت منه بحنان، لتجلس إلى جانبه وقد رفعت فستانها للأعلى كاشفة عن بطنها:

- ما يزال بطني كما كان... بعد شهر أو شهرين ستجده، وقد انتفخ، ألا يحلو لك أن تودعه؟

ما إن مدّ يده ملامساً بطنها حتى ذهب في نوم عميق، ملتفاً على جسده كما جنين، وكان يزحف ببطء إلى بطن أمه، متكوّراً فيه، مُتمسكاً بمشيمتها، مُحاطاً بنساء نذابات، يرفعنَ أصواتهنّ إلى الأعلى فالأعلى، وهنّ ينشدنَ نشيد النوم... نشيد النوم الأبدي.. نشيد الموت، كان يتعرّق سابحاً في منامه، وكانت ياسمينة إلى جانبه تصغي إلى هذياناته وكوابيسه الفظيعة بشفاه يابسة وقلب يخفق:

- انهض.. بالله عليك، أن تنهض.

ما إن أزاح جسده من فوق كرسيه المدولب، حتى فتح عينيه على عيني ياسمينة، عينان التقيا في لحظة إشعاع بوميض مُتبادَل، رأى وجه ياسمينة العجوز، وقد بات حقلاً جافاً، قالت له، وفي عينيها شيء من الخوف:

- لا تتحرّك... بالله عليك، لا تتحرّك.. نعم.. سنغادر هذا المكان في

الحال.. الأولاد ذهبوا لإحضار سيارة أجرة... سيارات الإسعاف منشغلة عنا،
ماذا سنفعل؟ إنها الحرب.

أولمت جورجيت لموت دولة الوحدة، ودعت إلى وليمتها ضباطاً برتب عالية، ورجال سياسة، وكتاباً، وشعراء، وفنانين، ومثل معظم المشاهير كان وجهها زنبقياً مترجرجاً، وهي توزع ابتساماتها باتجاهات مختلفة، وقد حافظت عبر التفاتاتها المتكزرة على مد نظرها بخط شاقولي، مذخرة نظراتها المنحنية إلى حيث تتطلّع صوب عيني جاد الحق جاد الله.

وحده من بين جموع المدعوين، لم يكن يرتدي ربطة عنق، ودون شك، كانت ياسمينة قد رتقت جوربيه من الأمام ستراً لإبهام قدمه، وهو إبهامٌ بالغ الطول، غير أنه، وفي غمرة الاحتفال، حافظ جاد الحق جاد الله على مكانته، فهو المنسيّ، وهو، وكما جاء في مذكّرات تركها مرمية بين مخطوطات عزرا اليهودي:" أريد أن أكون الله، أرى ولا أرى، أسمع ولا أسمع، لا أغفو ولا أصحو، لا اسم لي ولا صفة"، وكان كتب في ذيل مذكّراته اعتذاراً من خيانته لنفسه:" كلّ ما في الأمر أنني رغبتُ في أن لا ألد ولا أولد، فوُلدت ووَلدت"، كان يحتفظ بقلمه، صلة وصله الوحيدة مع هذا العالم، وبدافع من الإحساس بالواجب، غادر مكانه في زاوية الصالة متسلّلاً من بين المحتفلين إلى مطبخ بيت جورجيت؛ حيث الخدم من أجناس مختلفة، وبمهارات مختلفة، نساء بالغات السمنة، وبنات تكاد عظامهنّ تنفر من أكواعهنّ، وثمة امرأة تهز ردفيها، مطلقة مع كلّ هزّة أصواتاً فاجرة تدليلاً على إرهاق حلّ بها، فيما تنصت الخادمات واجمات إلى صوت جورجيت، وهي تضع حداً لنهاية الاحتفال بقراءة منتقاة من قصائدها:

-لا البحار تحمل أمواجاً

ولا الشواطئ ترتدي زيّها

قواقع الملح تهمس صوتي

وحيدة أنا ومتعذدة، كما خصلة في شعري.

ذاكرته المستكينة لبذخ جورجيت، تعرّفت على ما كتب، وكان كتب كلاماً كهذا، بل هذا الكلام حرفاً حرفاً، باستثناء أنها استبدلت كلمتي وحيد بوحيدة، ومتعذد بمتعذدة، بين جمهور يُحملق مصغياً إلى كلمات جورجيت، وهي تتابع أشعارها؛ ليصفق جمهورها بأناقة، منهياً إصغاءه بوداع جورجيت التي ثابرت على نظراتها الأفقية، فيما نزل زوارها درجات السلّم، وأعناقهم ملتوية إلى الخلف، متفحصين الجسد المضاء لسيدة الحفل، وقد زينت فستانها الليلكي بحبيبات تلمع، وكذا بدا خط الإظهار واضحاً، وقد حذد شفتيها بالأرجواني، بعد أن مارست عمداً انتقاء أكثر الفساتين طاقة على إظهار ردفيها المتكوّرين وخصرها الضامر، وما من ريب في أن رأسها كان مشغولاً بامتطاء رجال، ينزلون السلّم بظهور منحنية.

لم يكن جاد الحق يبحث عن مأثرة واحدة، ولم يكن يسعى إلى نيل الحكمة، أو إلى قطف شيء من ثمار العبقرية، كلّ ما في الأمر أنه كان يعرف أن البشر فاسدون، قال جاد الحق جاد الله لنفسه، ولكن جورجيت رغبت في معانقته، ليس هذا فحسب، بل رغبت في مضاجعته، علناً، تحت أضواء صالتها الكاشفة، والخادمات يتلصصن عليها، وهي تتنقل في جرائمها من مقعد إلى مقعد؛ لتنداح على سجادة الصالة، راجية الله أن يطيل زمن ذروتها، فالخطيئة إن لم تُطل، وإن لم تُعلن عن نفسها لن تكون خطيئة، ولهذا بدت عيون الخادمات المتنافسات على التلصص محتجّة، وقد زادتها احمراراً أصابع جاد الحق جاد الله التي داعبت مواضع، رغبت جورجيت في مداعبتها، وهو يستقدمها بتباطؤ وحذر نحو النشوة.

خادمات جورجيت، وقد تخلّينَ عن فضيلة الترثرات التي تتلبس عموم النساء، كنّ حريصات على خلع أعينهنّ حال خروجهنّ من بيتها، فقد كنّ أشدّ تكتّماً من الرهبان والقساوسة، وكنّ يعرفنَ الكثير الكثير عن سيدتهنّ التي طالما طلبت منهنّ أن ينمنَ مع شبان صغار، يأتون إليها، ويخرجون مُحفلين ببللها، وكانت جورجيت تُحبذ الفتية على كبار السّنّ، كما تحبذ لصلصات خادماتها على جسدها المتأرجح المنتشي، وأكثر ما كان يغريها نظرات الصبيان الفزعة، وهم يولوجون فيها متسببين لها بآلام لاحقة، هي ناتج قناعتها بأن عليها أن تذهب في كلّ شيء إلى نهايته.

كانت على قناعة راسخة بأن على المرأة أن تذهب نحو الذروة، ليس

ذروة الجنس فحسب، بل ذروة كلّ شيء، بما في ذلك ذروة المال والقوة والسطوة والسلطة، وكانت من أولى المتباهيات بالحديث عن حقوق المرأة، حتى تخال بأنها احتكرت النسوية، وباتت الناطق باسمها.

لم تكن رغباتها مغلوبة على أمرها، غير أن تلك النظرات المتفحصة للفتى الشهي، أحالتها إلى امرأة متطلّبة لأكثر الوضعيات تلبية لفلسفتها، وضعية امتطاء الرجل، وهكذا مكثت ليلة كاملة، واثقة من أنها وقعت تحت سلطة هذا الولد، وكلّ ما عليها هو أن تعكس الصيغة؛ ليكون هو من وقع تحت تأثيرها.

جاد الحق بلغ سنّ الرشد أبكر مما يجب، وأسرع مما يجب، وليس من دافع واحد يجعله راغباً في أن يكون شخصاً على قدر من الاستقامة، ولم يكن متشغلا بفهم القوة الدافعة وراء مشاغله، كلّ ما في الأمر أن الجسد الإنساني يحمل طاقة مضافة هي الطاقة المختبئة في الرغبة، وسيراقب مدفوعاً برغبته انشغال البشرية بالألم واللذة، بالنصر والهزائم، بالثراء والفقر وجوائحه، وفي لحظة من لحظاته، كان بوسعه أن يتحوّل متى شاء إلى كيفما يشاء، فما إن تسلّل من سرير جورجيت إلى كوخه في حي الضبارة فجراً، حتى اتّخذ من نفسه فرساً، وبات يحثّ السير خبباً محملاً بجسده، وكلتا قدميه تضربان بمهمازيهما فوق صدره.

ترك ياسمينة نائمة ضامة طفلها إلى صدرها، ومضى يرفع مخطوطات عزرا من مدفنها، وما إن غرق في ورق المخطوطات الأصفر المتيبس، حتى فتنته الأرقام، والحسابات، والرسوم، ومن ثم؛ الأخبار الأثرية، أخبار النقوش العجيبة، الأثريون..القبائل القديمة، القبور التاريخية المسيحية والبيزنطية، وستراقب ياسمينة من تحت غطائها خلجات تتصاعد مع أنفاسه، وقد توخدت مملكة روحه المنقسمة... يجب أن يكون واحداً قال لنفسه، ولكن؛ مادامت آنـا بعيدة عن مملكته، فليس ثمة حصنٌ للمملكة.

ما لم يعرفه، أن آنـا انتقلت مع والدها عزرا إلى مستوطنة بتاح آرئيل، ومع أن عزرا جهز مهرها، غير أنها اكتفت بروحها، موطدة العزم على أن لا تتزوج، ومن ثم؛ عثرت لنفسها على بار صغير، زبائنه من يهود مهاجرين، يفنون أوقاتهم في خدمة مزارع وبيارات، ويصغون إلى ألحانها حين تجلس وراء البيانو، صامتين، واجمين، يداورون رغباتهم في المزيد من الخمرة، وكانت آنـا غافلة على الدوام عنهم، وحين يسرق عزرا نظرة إليها، لابد وأن يلحظ حزنها مختبئاً، مخفراً، يرفض الاحتكام إلى مقاييس اللغة

الرياضية التي يحكيها اليهود، بدافع من الميراث القديم الذي تسلّلت إليه روح الصيارفة.

كانت صورة جوزيف تارزيان معلّقة في صدر البار، فتياً، مبتسماً، رافعاً كمّ قميصه الأبيض إلى الأعلى، وقد وضعها فوق خدّه، وصفّف شعره بدقّة بالغة، وابتسامة نضرة.

يا الله، إنه هو؟ قال جاد الحق جاد الله مُخاطباً نفسه، وكان جوزيف وراء جدار بلّوري في استوديو تصوير تارزيان الجديد، وقد اكتراه في منطقة إلى الغرب من ساحة المحافظة في دمشق، وبالقرب من منطقة فكتوريا، إنه هو، كرّر جاد الحق، واتّجه؛ ليفتح باب الاستوديو.

لم يرفع جوزيف رأسه عن صورة، كان يقوم بإزالة البثور عن وجه صاحبها، وحين طالت وقفة جاد الحق جاد الله أمامه، سأله جوزيف:

- تفضّل، يا أخ، هل من خدمة؟

لاحظ جاد الحق جاد الله أن أصابع المصوّرين كاذبة، فالرتوش التي تزيل بقايا الندوب والبثور عن وجه الرجل صاحب الصورة، ليست سوى مخادعة للطبيعة، وكذا نكراناً لحقائقها، وحين مدّ بصره مدقّقاً في الصورة، كرّر جوزيف سؤاله بنزق:

- تفضّل، يا أخ... هل من خدمة؟

- آنـا.. قال له.

- عن من تسأل؟

لم يكن جوزيف قد عرف أن الفتى الماثل أمامه، هو ذاك الصبي الأشعث، الذي لا يرفع بصره أبداً، فقد بات جاد الحق جاد الله، بعد سنين ليست طويلة، فتى طويلاً، نحيلاً، بقسمات تحكي، ولا تحكي، وبلحية نابتة فوق وجهه، وقد خطّ له الوقت شاربين ناعمين زغبين فوق شفته العليا، ليبدو كما أيقونة مسيحية، بدا جاد الحق يسوع مائلاً للسمرة.

- أنت؟

دون ريب، استيقظ جوزيف بعذوبة من نوم الذاكرة، وأشرق الخبّ فيه، كما لو كان واقفاً هذه اللحظة تحت نافذة آنـا، وأخيراً، وبعد صمت لم يطل، احتفل جوزيف بتجديد ذاكرته، ما يؤكّد أنه لم يتحرّر من حبه لآنـا،

ما جعل مجيء جاد الحق جاد الله إليه سعادة تجثو على ركبتيها تحت أقدام المصور المتأمل، الذي كان قد تزوج؛ ليفصل ما بين جسده وجسد زوجته بباقة ورد كبيرة، وضعها في قلب صورة، غلّقت دون رعاية في ركن من الاستوديو.

- أ هذه زوجتك؟ سأل جاد الحق، وأشار إلى الصورة.

- نعم.. أ تعرفها؟

- يعني أنت تزوجت؟

- نعم، تزوجتُ.. ما الغريب في الأمر؟

نشرب الشاي ها؟ سأل جوزيف، ودون أن ينتظر إجابة، اتجه إلى الداخل، وهو يحكي كفنٍ يهذي، بادئاً بالقول إن الذين فخّ نصبته البشرية لنفسها، وإنه على يقين من أن الأنبياء مجتمعين، ليسوا سوى حفّاري قبور، وجنازين، وأشار إلى نفسه قائلاً إنه من أبرز ضحاياهم، وفور عودته من غرفة خدمة الاستوديو، طلب من جاد الحق جاد الله بنوع من الرجاء:

- انهض، لألتقط صورة لك.

ثم:

- انظر هنا.. إلى يدي.

وكان يرفع يده باتجاه اليمين، وهو يكرّر:

- حاول أن تبتسم.

كرّر جوزيف للمرّة الرابعة أو الخامسة الضغط على مسمار العدسة، ومع كلّ محاولة، كان جاد الحق جاد الله يغمض عينيه، بما جعل التقاط صورة له شبه استحالة، ومع ذلك، أعاد جوزيف المحاولة دون يأس حتى يئس.

- ما بك؟ كلّما ضغطتُ الزر، تغمض عينيك. قالها بتذمر، ثم أردف:

- لم يسبق أن حدث مثل هذا معي، انظر لقد صورتُ هؤلاء جميعاً.

وهو يمعن في الصور، لاحظ جاد الحق جاد الله أن غالبية الصور لضباط جيش ورتباء ومجندين، جميعهم ينظرون إلى الجهة اليسرى من الصورة، بشوارب مقلّمة، ونظرات معتمة، وربطات عنق بعقد بالغة الصغر، وضاغطة على الرقبة، ونسر يلمع فوق قبعاتهم العسكرية، ولم يكن يعلم

من هم هؤلاء، ولا المصير الذي سينتظر البلاد على أيديهم.

من بين الصور المعروضة كانت هنالك صور لسامي الحناوي، وأديب الشيشكلي، وعبد الكريم نحلاوي، ومجموعة من الضباط الصغار الذين باتوا يجزون سفينة سورية، ويبحرون فيها إلى أيامها اللاحقة، ومن بينهم صلاح جديد، محمد عمران، حافظ الأسد، وضباط آخرون كثر، رسمتهم الصور، وأطفأت أضواءهم الأيام التالية، مصطفّين على خط واحد من جدار الاستوديو؛ لتقابلهم صور لبنات، يدرن وجوههن كاشفات عن أكتافهن، والأكثر إثارة من بينهن صورة لمطربة لم تكن لتتسلّل إلى إذاعة دمشق إلا خلسة، وبات اسمها تأريخاً لوصول البعث إلى السلطة، وهي المطربة ودي شامية، فيما كانت صورة فرنسا إلى جانبها ضاحكة، كأنها لن تتعثر في طريقها إلى المقبرة بالرجل وارث أسنان أمه، الذي لم يزل يحكي حكاية دفنها بعد صياغتها في خيال جديد، نحته بهدوء، ليقول هامساً، متوجّهاً إلى مجموعة من المتحلّقين أمام بوابة خمارة جبرا، أنها:" والله العظيم، والله العظيم، مدّت لسانها ممزّقة الكفن، ثم أخرجت من مزّقة الكفن أصبعها الوسطى".

- نعم، كانت فرنسا تفعل ذلك، وكانت تطوي إصبعها، ثم تعيدها منتصبة.

كان يحكي، مثبتاً عينيه على طيور دجاج، تنقر فضلات الزقاق، كان وارث أسنان أمه، يعتقد جازماً أنه سيبلغ من الثراء ما لم يبلغه رجلٌ في حي الضبارة كلّه، وربّما بنى اعتقاده هذا على مثابرته على شراء أوراق يانصيب معرض دمشق الدولي، ومع أنه كان يخسر في كلّ مرّة، غير أنه كان قادراً على تعويض خسائره بإعادة بيع الورقة الخاسرة إلى رجل ما يحلم بالثراء أيضاً، وفي كلّ مرّة، كان عليه أن يستخدم مجموع خيالاته مؤكداً أنها الورقة الرابحة، دون أن يتسنّى للشاري معرفة أن الورقة المقصودة قد فات عليها الربح؛ لأنها من فعل الأسبوع الفائت، وثمة من يقول أنّه كان يبيع على مدى ثلاثة أسابيع أوراق يانصيبه الخاسرة إلى رجل واحد، وفي كلّ مرّة كان يعيد إقناعه على نحوٍ بالغ العبقرية والنزاهة والشرف:

- أ لم تحلم بأنك ثري على مدى أسبوع؟!

- نعم.

- إذن... أ لم تكن سعيداً طيلة الأسبوع الفائت، وأنت تتمشى في الضبارة، باعتبارك ثرياً؟

- نعم.

- لقد أثريتك على مدى أسبوع كامل.. أ ليس الأجدى برجل عاش مشاعر الثروة وعلى مدى أسبوع متصل، أن يقول لي: شكراً.

- شكراً.

- مع السلامة، إذن... لا تنس في الأسبوع القادم أن تأتي لأبيعك ورقةً سبربح.. وحق الله، ورقة الأسبوع القادم ستربح.

لفت ياسمينة، وما تزال في ساحة مشفى المجتهد، أن زوجها يضحك، وبقدر ما كانت فرحةً لفرحه، بدت خائفة من أن تكون ضحكته هذه ضحكةَ الموت التي يخافها الأحياء، ربما لاعتقادها بأن زوجها يحتضر، فكسور العظام للرجال الهرمين لا شفاء منها، وربما بدافع اعتقادها هذا هفت بتحريك الكرسي نحو الباب الخارجي للمشفى، دون أملٍ يُذكر بوصول أي ناقلة تنقله إلى بيتهما، فالاشتباكات حظت بمناطق دوّار كفرسوسة، ورشقات الإطلاق المتبادل احتفلت بموت آخر فرصة، تشير إلى أن ثمة نجاة من الرصاص العشوائي الذي يتطاير كما الذباب فوق أنوف ووجوه العابرين الراكضين من حوله.

كانت ياسمينة واحدة ممن ابتغن أوراق اليانصيب المهجورة من وارث أسنان أمه، ولم تتجاوز في أحلامها، ابتياع بذلةٍ لجاد الحق جاد الله، وربطة عنق، وقميص منشى من قبته، وأزرار أكمام مذهبة، ومن بين أحلامها اللاحقة استبدال ماكينة (سنجر اليد)، بماكينة (سنجر قدم)، مع كرسي مريح، ومجموعة من المقضات أفضل من مقضها، ولم تكن تداري تطلّعاتها في أن تخيط أثواباً لبنات حي الصفيح اللواتي يُعِدن تفصيل أثواب مخدوماتهن، بما يتناسب ومقاييس أجسادهن، ولم يكن بالأمر الصعب تصغير الفساتين، بقدر ما كان تكبيرها بوصلات من قماش فساتين أخرى أمراً بالغ الصعوبة.. وصلاتٌ هي قصاصات من الفساتين التي يجوبها مقض ياسمينة، مقصراً أطوالها وأحجامها، أو مضيفاً عليها، بما جعل بنات الحي كما الحدائق الملونة، وهنّ يتطايرن ماشيات في أزقّة الحي، بأثواب هي مجموع من الرقع تلون الحي مزيلة بقايا الرمادي عن رماد لوحته الصدئة.

عبقرية ياسمينة، صريحة، لا لبس فيها، وليس استحمامها اليومي سوى تأكيد على هذه العبقرية المستجدة، ولكنها لم تكن تلحظ، أن وارث أسنان أمه، سيكون متجولاً في ليل الأزقّة، وقد ملأ بطحته ببقايا عرق خمّارة جبرا؛ ليضع عينه على شقوق الأبواب المتفسخة، وهو يتلصص، ويراها تدلق الماء فوق جسدها، وقد نهض بطنها، وصارت الحياة متكورة تحت يديها العاريتين، وهما تتلمسان أطراف جنينها المقلوب في بطنها؛ ليكون الوليد الثاني لها، متيقّنةً بأنه صبي، وهو يقين تولّد من ركلاته المتتالية، بما ينذر أنه مستعجل على الخروج مجتازاً عتمة بطنها، نحو عالم، لدوران الشمس فيه قوانين أخرى.

عند وارث أسنان أمه، يتحوّل الجنس إلى تمثيلية تهكّمية، كما كلّ شيء سيكون قابلاً للتهكّم بالنسبة إليه، بما في ذلك شخصه، وهكذا أبقى عينه على شقوق الجدار راسماً تفاصيل جسد ياسمينة العاري، لا لشيء، سوى لهدف العثور على حكاية جديدة، يرويها لمستمعين، يسددون بعدها فواتير رغبات فضية، على شكل ضحكات، تجعلهم يتقبّلون وجودهم على قيد الحياة.

وارث أسنان أمه، يعرف بالملموس أنه فائض عن أية حاجة، وأن ليس ثمة من ينتظره أو يطالبه بوعد، حتى بعد أن غدا سيركاً متنقلاً مابين خمّارة جبرا وأزقّة الحي الموحلة، لم يواجه أي قلق من فعلته، ولم يكن يحترز من إطالة مكوثه خلف شقوق جدران ياسمينة، ما جعل زبائن الخمّارة يتساءلون عن سرّ غيابه، وفي الخمّارة، ثمة وافدون جدد، غرباء، لا أحد يعرفهم، بمن في ذلك جبرا، فقد وصل شابان اثنان، حاملين المطارق والمناجل؛ ليبشروا بأن الجنة للطبقة العاملة، وبأن عبد الناصر الذي أمعن في مطاردة الشيوعيين، سيخضع لحكم التاريخ، طالبين من جبرا أن تكون علاقتهما به ثابتة ومتواصلة.

مشهدهما وهما يرددان:"ياعمّال العالم، اتحدوا"، واستعراضهما لمقتل القائد الشيوعي اللبناني فرج الحلو على يد مباحث عبد الناصر، جعل جبرا أكثر إلحاحاً على انتظار وارث أسنان أمه، وحين وصل مباغتاً الجميع بدخوله، أشار جبرا إلى الشابين الغريبين قائلاً:

- إن هذا الرجل... خميرة من خمائر طبقة حينا العاملة. وبعدها التفت إلى وارث أسنان أمه قائلاً:

- ها... أراك منهكاً من الشغل.. ما رأيك بأن تنضم إلى مجموعة المنجل

والمطرقة؟

لم يفهم وارث أسنان أمه الحكاية، فقد بدا أكبر بعشر سنوات من عمره، وهو يكشف تكشيرة وجهه، وحين شعر بأن ما يقوله جبرا مجرّد استدراج للضحك، نظر إلى الشابين الغريبين؛ ليقول لهما:

- إنني أحبّ المطرقة.. لكنْ؛ دعوني من المنجل، آه، لو ترون مطارق بنات حينا.

أن يكون لجاد الحق جاد الله طفل ثانٍ، فلهذا معنى واحد:

- لقد بات رجلاً.

لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى جاد الحق جاد الله، فمع أنه قطع مسافة في الزمن، غير أن اعتياده المشي محنياً، خلق نوعاً من التشوّه في عموده الفقري مولّداً حدبة، وكانت ياسمينة قد لحظت ذلك، ونبهته مراراً أن يمشي رافعاً صدره، لكنه كان دائم السهو عن ملاحظاتها، ودائم الانحناء فوق طاولته الحديدية في مكتب الصحيفة، وهو يدقّق مقالاتها الهرمة، ويثابر على التقاط هفوات لغة كُتّاب، هي مزيج من كوابح اللغة وكوابح التفكير معاً، ومن فجوة بين هذين الكابحين، أعاد كتابة عشرات المقالات الصحفية، الأدبية منها على وجه الدقّة، وكانت مقالات تأكله كالبراغيث؛ ليفرك إبطه بعد قراءة كلّ جملة منها.

لم يقتصر الأمر على هذا، فهو المصحّح الوحيد في الصحيفة، ما يجعل عمله شاقّاً ومرهقاً، وما يدفعه إلى اصطحاب رزم من الورق، وهو يتجه إلى بيته مشياً، وجسده يترنّح، وكأنه يأخذ قيلولة فوق قدمين منتصبتين.

إنه الترامواي ذو السكة والدواليب المعدنية، الابتكار الذي يلهب ذهن جاد الحق ومشاعره،... توقّف جاد الحق جاد الله في ساحة المرجة، وظهره إلى فندق عمر الخيام، ولحظ على الضفة المقابلة مباني، ربما تعود في طرزها المعمارية إلى العمارة التركية، وفي وسط الساحة ارتفع نصب، يحكي من ذاكرة البلد تعبيراً عن استقلالها.. كان عازماً على صعود الترامواي، والإصغاء إلى أجراسه، وهي تسير وتتوقّف على خطين من الحديد المُقشى.

لم يكن في المركبة أيّ ازدحام يُذكر، كان فيها عجوزان يتهامسان، ويطلقان ضحكات خجولة، ومع كلّ ضحكة، كانت المرأة العجوز تحيط فمها براحتيها، بينما يذهب الرجل العجوز إلى غمزها، كأنما يعيدها إلى زمان، يبدو أنه (زمان الهوى)، زوجين شقراوين، يبدوان من سلالة شركسية، لا تخفي أصولها، كانا كما البرتقالة وسرّتها، يتهامسان كفن

يتنفس سراً.

بقي جاد الحق واقفاً، راغباً في التقاط تفاصيل وشوشاتهما، ولكن سمعه لم يسعفه على التقاط أيّ همسة من همساتهما، كانا جالسين في مقعدهما دون أن يحاولا النزول من القاطرة، وقد انتهت إلى آخر محطاتها، واستدارت في طريق عودتها من باب توما إلى برج الروس، عودة إلى المحطة التي أتت منها، والعجوزان لا يزالان يتهامسان، ويدفعان أجرة جديدة باتجاه خط العودة إلى ساحة المرجة.

محتفظاً بقطعة ورقية صغيرة مبلّلة بلعابه تشير إلى أنه سدد مدفوعات الرحلة، ناول جاد الحق جابي الترامواي قطعةً معدنية في طريقه إلى متابعة خط عودته من حيث أتى، وكان - في حقيقة الأمر - عازماً على تأمل همسات العجوزين، وضحكاتهما.

حين نزل، بمواجهة فندق عمر الخيام، اكتشف أن أوراقه ومقالات الصحيفة اختفت من تحت إبطه.. كلّ ما انتابه من مشاعر حينها، كانت مشاعر احتفالات القمل الممتدة إلى طفولته المبكرة؛ حيث الفلاحات يمشطن جدائلهن، ويكلن الليالي بمكيال أعداد القمل التي يفركنها ما بين الإبهام والسبابة، وينتزعنها عن جدائلهن، في مجازر قمل، تتلوها ضحكات، ومن ثم؛ نوم، هو الموت الوحيد الذي تتلوه يقظة.

لم تكن زمزدة من بين فاركات القمل، ولا من مستخدمات القطران اللواتي يستعضن به عن القتل اليدوي لحشرات بالغة الصغر، تمتص فروات رؤوسهن، فاستحرار القمل، حمل معه جلسات احتفالية، لا تخلو من مداعبات أصابع، تغزو مناطق الشعر الكثيف في زوايا غارقة بين ثنايا الجسد.. مداعبات هي إعادة اكتشاف الأنوثة لأنوثتها، أو تأكيداً عليها.

لم يكن هنالك أطفال لا مبالون في تلّ الغزال، فأطفال التلّ يكبرون بسرعة، تتماشى مع رخاوة جلسات الفرك، واتساع فضاءاتها، فالمكوث لساعات وراء أبواب بفجوات، لابد وأن تتسع لأعناق الأطفال الممتدة الذين يعرفون عن كثب ثقوب أمهاتهم، وقد تحدروا منها متزلقين عنوة إلى سماءات مكشوفة، تقود خطاهم بين ليلة وأخرى إلى العودة نحو ذات العتمة التي خرجوا منها، غائصين، متأملين احتفالات قمل جداتهم وأمهاتهم.

مثل جميع النساء الخجولات، سحبت زمزدة جاد الحق جاد الله من

يده، وصفعته على وجهه، مشددة عليه أن لا يعود إلى مد عينيه نحو جهات النساء المجهولة، وحين مشى إلى جانبها مطأطئاً رأسه، طلبت منه أن يبقى هكذا، فالنظر إلى الأعلى، يجعل المرء عاجزاً عن تلافي حفر الطريق.

وها هي، زمزدة بشحمها ولحمها، وهذا قتيبة إلى جانبها، يدخلان معاً فندق عمر الخيام، كان رأسها مرفوعاً للأعلى، وصدرها ناهضاً، وشعرها معقوصاً على شكل كعكة.

- إنها زمزدة، قال جاد الحق جاد الله، وقد غرق في الدهشة. ثم:

- لم يسبق أن رأيت برهاناً على عظمة الخلق، كما زمزدة، قال لنفسه.

ثريات السقف المتدلية، وركن استقبال الفندق، ومجموعات النساء والرجال التي ملأت صالته، لم تضع زمزدة في الزحام، فقد كانت خصلات شعرها، كما سرب فراشات، تغطي رأسها، لم يكن بوسع جاد الحق بالغ الطول التسلل إلى بهو الفندق دون أن يلفت الأنظار إليه، ودون أن يقف واحد من حراس الفندق؛ ليسأله إن كان مدعواً.

- مدعوٌ إلى ماذا؟ أجاب جاد الحق جاد الله.

لم يتذكر حارس الفندق سوى الاسم الأول لمصور زيتي فرنسي، حمل لوحاته؛ ليعرضها في صالة الفندق، لوحات لنساء مستلقيات، في نظراتهن مزيج من خبايا، يخفينها منذ ولادة النوع الأول للبشرية، نظراتٌ أشبه بنظرات الفرس الوحشي، ولم يكن من الممكن قراءة الملامح التشريحية لأجسادهن في نماذج، تشبه جسد ياسمينة، أو جورجيت، أو آنا، أو حتى نساء القمل، وقد اتخذن حيزاً أكثر تضاؤلاً من ذاكرة جاد الحق جاد الله.

كانت نساء فرانسوا مثلثات ومربعات ودوائر ومكعبات، وبألوان تقدم نفسها بلغة صريحة منحصرة في الألوان الأساسية السبعة، ولكن؛ مع خلفية رمادية على الأغلب، وكانت زمزدة تتجوّل بين اللوحات، وهي تشبك ذراعها بذراع قتيبة.

- هي بلحمها وشحمها، قال جاد الحق جاد الله ثانية، بل قالها للمرة الثالثة.

مع ذلك، أحاطت الشكوك روحه وقلبه، فها هي ذي تتجول، وما تزال تشبك ذراعها بذراع قتيبة؛ لتتوقف مشيرة إلى هذه اللوحة، وتلك، كان

معطفها يُعلن ثراءً صريحاً بياقته المحاطة بالفراء، وكانت يدها منشغلة بلفافة تبغ موصولة إلى مبسم من عاج، ينفث دخاناً صاعداً، ملتفاً، راقصاً فوق سمائها، تبتسم، ولا تبتسم، ناقلة حيرة ملامحها إلى حيرة، استوطنت روح جاد الحق وقلبه.

يا الله، لو كانت أمي... قال جاد الحق جاد الله، ولم يشأ الاقتراب أكثر، فتفة حديث بدا حميماً ما بين قتيبة وفرانسوا، ولم يكن لدى زمزدة أي إحساس بالغربة، كانت تبتسم، مثبتة نظراتها على قتيبة، مزيلة بذلك أية انطباعات يمكن أن تتشكل لدى الرسام الفرنسي الذي لا بد وأنه يحمل روحاً متعالية على سكان مستعمرات أمته ما بعد استقلالها دون أن تسقط من ذاكرة مستعمرها.

قدّم قتيبة دعوة مفتوحة لفرانسوا لزيارة بيته، وأخبره أنه وزمزدة يقضيان أياماً طويلة ما بين باريس ومرسيليا، وبضحكات مرتفعة وأصابع تتحرك في هواء الصالة، أخبره أن زمزدة باتت عاشقة للمتاحف، وأنها قادرة على استحضار اللوفر، بتفاصيله، ونقوشه. و:" لو تركتُها على سجيتها، فليس ثمة قوة تمنعها من المبيت في كاتدرائية نوتردام"، وبضحكة منسابة، كان قتيبة يربت على كتف زمزدة، وهو يحكي مع فرانسوا:" زمزدة سمكة، حورية ماء، وإن لم تُصدق، اسألها كيف كانت تتسلّل تحت الماء إلى جزيرة لاسيتيه؛ لتصل إلى كاتدرائية نوتردام، وهناك تتجمد، وتصبح قطعة من النقوش المحفورة في صخورها".

وهو يحكي، كان يُثبت نظراته بافتتان على زمزدة، ولم تكن زمزدة تخفي نظراتها المشبعة بالامتنان هي الأخرى، وهي تنظر إلى قتيبة، غير أن قتيبة أصبح أكبر سناً مما كان عليه حين تعزف على زمزدة، فالخلايا، وألعاب الكيمياء العمياء، أعملت آلتها المتوحشة في جسده، مما جعله مُجهداً، وهو يتابع كلامه عن زمزدة، وهي تعلم أنه لايستطيع أن يحكي سوى عنها، حتى إنه طالما استلقى إلى جانبها ليالي طوالاً، وهو يحكي عن زمزدة لزمزدة، وكأنها هجرته، ولن يلتقيها ثانية، إنها:" آه، لو تعرفينها، لها رائحة النعناع، هي شتلة تنمو في قلبي".

جاد الحق جاد الله، يعرف أن أمه بالتبني لا تكذب في شيء، وهذه حقيقة لم تتزحزح في جاد الحق جاد الله، ولم يكن يبالي بالسؤال المتدحرج على الدوام على فم جبرا:

- كيف تترك أمٌ ابنها؟

جبرا - وقد أغلق خفارته لليلته الثانية - قبع في الداخل منفرداً، وكان مريضاً شاحباً، يضاعف وحدته بأوامر من رغبته، ودون شك، فالبرد يكثف الإحساس بالوحدة، ويمنح الوحيد شعوراً بأن جسده له وحده، سيما إذا لف جسده بذراعيه، وقد طالت ذقنه، وبدا الشيب فيها أكثر وضوحاً من سنواته الخاليات، لم تكن محاولاته المبذولة لنحر الذاكرة سوى هباء محاولات، فاستدراج إنكار الحياة، بدا عصياً وخائباً، وفي الخارج، كانت الأصوات تهزه، وتعمل على أن يقف على قدميه، ويتجه إلى باب الخفارة الحديدي، ويدير مغاليقه؛ ليفتح باب الخفارة مستطلعاً. كانت الجلبة التي تحدث في الخارج مُشادةً بين مساكين مغمورين، يتعاركون بعد انتشار أنباء تسربت عن انقلاب عسكري، أطاح بسلطة الانفصال مُرَدِدة وصول حزب البعث إلى السلطة.

كان الراديو اليتيم الذي يتابعه كلّ سكّان الحي، هو راديو من مقتنيات فوّاز، أرمل فرنسا، ويتيمها، وكانت شارته الزئبقية الخضراء، تتموج صعوداً ونزولاً.

انفض الاشتباك ما بين المتعاركين، وهم يصغون إلى البيان الأوّل لسلطة قادمة واعدة بالوحدة والحرية والاشتراكية، ولم يكن بوسع الراديو التقاط المزيد من التفاصيل، لولا نصف الحقيقة التي قدّمها وارث أسنان أمه:

- كنتُ أعرف، قال للمتحلّقين حول الراديو، وتابع:

- قيادات الانقلاب كانوا مجتمعين على سطح فندق زهرة الوحدة.

قال ذلك مؤكّداً:

- إنهم - وحق الله - قد مركزوا مدزعاتهم على سطح الفندق.

قال وارث أسنان أمه، بثقة، تُنبئ عن رجل، يَعي ما يقول، ولم يكن يمزح هذه المرة، فالمسائل الكبرى لا تحتمل الولدنة، و:" فزنا، إن الكادحين، وصغار الكَسَبة من أمثالنا وصلوا إلى السلطة".

لم يكن واحدٌ من رجال الحي ولا نسائه قادراً على مجابهة وارث أسنان أمه هذه الليلة، فقد كان أول من التقط المتغيّر، وأول من أشرق المتغيّرُ في رأسه، فالإتجار بأوراق اليانصيب، والانكباب على احتمالات الأرقام، أعطى نتائجه في سحب الليلة، لهذا اندفع بجموح مهر نحو الرجال

المتحلّقين حول الراديو؛ ليقود أول تظاهرة تأييد للبعث، تشهدها البلاد، وكان قد فتح ذهنه على شعارات، لم يكن أحد قد سمع بها من قبل، كلماتٌ مُرجزة، قد لا تحمل أيّ معنى، ولكنها صالحة للترداد الْموقّع على إيقاعات أقدام، تعلو، وتهبط، وتنثر غبارها.

من شدة انفعاله، وخوفاً على أسنان أمه المثبتة في فمه، حملها، وبات يهتف ملوّحاً بها، ولم تكن الأسنان لتعيق نطقه، مادامت الشعارات التي يرددها خالية من الحروف المهموسة كالسين والصاد.

سارت التظاهرة من حي الضبارة إلى باب مصلّى، إلى مشفى المجتهد، صعوداً نحو بوابة سوق الحميدية، باتجاه شارع النصر، وهناك كانت إذاعة دمشق قد بدأت تبث بيانات انتصار البعث، ووصول قياداته إلى السلطة؛ ليكون أمين الحافظ، أول الصاعدين إلى القصر الرئاسي، حاملاً معه نداءات، تُمجّد زعامته، وكان وارث أسنان أمه يعاود التوجه نحو بوابة الحميدية، وهو يهتف:

- ولعت النار براس العلية.. يا بو عبدو، يا حامي البعثية.

ومع هذا الهتاف الجديد، أعاد أسنان أمه إلى فكه، دون أن يوقف الوارث تظاهرته، إلا حينما اخترق السوق المغطى متوقّفاً أمام بوظة بكداش.. كانت صحون البوظة مُغطاة بحبات الكرز ونثرات الفستق الحلبي، وكان وارث أسنان أمه يقوم بتوزيع الصحون على المتظاهرين، باعتبارها أول هدايا الثورة، احتفظ لنفسه بصحنين إضافيين، ازدرد أولهما واقفاً، وثانيهما جاثياً على الرصيف المقابل، أما الصحن الثالث؛ فقد ترك آثاره تذوب في جيب معطفه الذي لم يزدد اتساخاً!

مكث فواز إلى جانب الراديو، ولم يلتحق بالتظاهرة، ومع كلّ وصلة يبثها الراديو، كان يترحم على فرنسا، ولكن؛ وبعد قرابة الساعتين، وصل رقيبٌ من الشرطة العسكرية إلى الحي، يتبعه عدد من الجنود؛ ليتجوّلوا بين الأكواخ مستطلعين إذا ماكان ثمة بؤساء، أو معوزين في صفيح الفذن، وتأكّدوا بالدليل القاطع أن فواز يبكي، وأنه لم ينس فرنسا أبداً، وأنها امرأة من دم ولحم، ما تزال تحط صوتها فوقه، وكان قال للرقيب وهو يلحس دمعته:"هذا الراديو كان لها، انظر حتى إن هذا الراديو يبكي بالفرنسي"، وأزاح شارة الراديو، غير أن بطاريات الراديو التي أوشكت على الجفاف لم تُسعفه؛ ليقف فواز معترفاً أنه سهى عن تزويد الراديو ببطاريات جديدة، ذلك أن استهلاك هذا الراديو للبطاريات يفوق مجمل دخله، وهو

العاطل عن العمل منذ ولادته.

بدا الحي شبه فارغ من السكان سوى من جبرا وفواز، وكوخ جاد الحق جاد الله الفضاء؛ حيث جلست ياسمينة إلى جانب طفلها حاضنة جنين بطنها، وحين دلف جاد الحق جاد الله إلى الحي، وتوقَّف إلى جانب جبرا، لاحظ أن جبرا قلق، وقد وقف مشبكاً أصابعه، ودون أن يستأذن بحث عن مكان إلى جانب جبرا، وجلس.

يمكننا أن نُخمن، أن جبرا يزحف في هذه اللحظة نحو وضع حد لحياته، لكنه لم يفعل ذلك، فقد اكتفى بخلع معطفه، ومن ثم؛ قميصه، وبعدها قميصه الداخلي، وبات عاري الجذع والصدر تماماً، وما لفت انتباه جاد الحق جاد الله، كان وشماً خط على الكتف الأيمن لجبرا، هو رسم لمرساة بخرية، تنتهي بجنزير، يلف الرقبة؛ لينتهي أمر جبرا بالنهوض، والعودة إلى الخفارة تاركاً معطفه وقميصه في الخارج، وفي الداخل، كان جاد الحق جاد الله قد اختار مقعداً، يمنحه فرصة أن يرى دون أن يتكلّم.

- سأعود إلى اليونان، يا جاد الحق جاد الله.. إنها مقبرةٌ، أعرف هذا، ولكن الانتقال من مقبرة إلى مقبرة هو حياة، أ ليس كذلك؟ التغيير هبة إلهية، لا يجب أن نفرط بها، هؤلاء القادمون إلى حكم البلاد سيحيلونها إلى مقبرة.

لم يكن جاد ليتصور أن ثمة ما يزيد في الكوكب عن حقل حشيش فقط، ليس ثمة مقابر جديدة ستضاف إلى تاريخ النوع، وقد دفن أضعاف أضعاف كائناته الراهنة في خدره.. العالم مجزد خدر، حشيشة كيف تنمو فينا، فنتوهم أن ثمة ما هو أفضل أو أسوأ.

- ماذا ستفعل في اليونان؟ سأله جاد الحق.

- كلّ الأرصفة محجوزة لي.. أجاب جبرا.

- حشيشة كيف؟ أجاب جاد الحق جاد الله.

- ماذا؟

- لاشيء، لم أقل شيئاً.

لم يتابع جاد الحق جاد الله أسئلته المسكونة بالرحيل والتغيير وعالم البحار المتخيّل، غير أنه لاحظ أنَّ تحت المصباح الرمادي، رقدت حقيبة مغلقة، غزتْها الرطوبة في أجزاء من زواياها، وتراكمت فوقها الملوحة، كما

لاحظ أكداس زجاجات الخمر الفارغة، وقد كوّمت في طريقها إلى أن ترمى إلى الخارج، ولاح له أن جبرا يُعاني من خيبة مُزمنة، بدا ذلك جلياً في التصرّفات غير المنضبطة التي يقوم بها جبرا، وليس من الصعب على جاد الحق جاد الله أن يجد تفسيراً لما يرى، فقد كان مُنشغلاً - بالإضافة إلى جبرا - بأمرين آخرين، أولهما مصيدة الفئران الصدئة، وقد انحشر فيها توّاً فأرٌ جميلٌ من ذيله، وثانيهما مجموعة المقالات التي أضاعها، وهو يستقلّ الترامواي، قال له جبرا، وكان جاد الحق ما يزال يحدّق في فأر المصيدة:

- إننا هكذا، وأشار إلى الفأر، متابعاً:

- قطعة صغيرة من الجبنة في مصيدة، تجرّنا إلى حتفنا.. لكنني سأحرزك من مصائدي.

تجاهل جاد الحق جاد الله الالتفات إلى جبرا، وكان يعلم أن الرجل لن يخرج من محنته عبر أيّة عظة، يمكن تقديمها إليه، فالواعظون يوقعون في حفرهم - فقط - أولئك البشر المنتمين إلى الزواحف، وجبرا رجلٌ بقوام صلب، وبنية متينة، وفقرات ظهر مشدودة، وسواعد قويّة، وهو ليس من أولئك الذين يقعون في الحفر، وإن تعثّر، فلابد وأن يتعثر بصخرة من جبل، قال ذلك لنفسه متابعاً صمته، وحين التفت إليه جبرا ليسأله إن كان الخبّ حقيقة في هذا العالم، أجاب جبرا نفسه بنفسه، قائلاً:

- التخلّص من الخبّ، وكسر شوكته، يكون بتغيير المكان أولاً.. نعم، إن الخبّ لا يعدو أن يكون المكان.. هو كذلك، وهو إن شئت يأخذ شكل المكان.. الخبُّ البحري غير الخبّ الصحراوي، غير الخبّ في هذا الحي البائس، المكسو بالزبالة والخرق.. في الخبّ البحري تستجلب المجداف والسفن.. في الصحراوي الناقة والجمل، وهنا في هذا الحي ماذا ستستجلب؟ الصفيح الصدئ؟

يا الله! المجاديف؟ استعاد جاد الحق أنفاس آنّا وحكاياها، كانت كما موجة يغرق فيها، وبعدها:

- لقد أتمّ نصف الواجب في حلّ مشكلته.

قال جاد الحق جاد الله لنفسه، ومضى يُصغي إلى جبرا، الذي كان يروح ويجيء في مساحة ضئيلة متابعاً كلامه آملاً في أن ينتزع الخرق البالية عن جسده، دون اكتراث لتأمّلات جاد الحق جاد الله الذي أوشك

على إطلاق ضحكة ساخرة؛ ليقول دون أن يتكلّم، إنك - والله – لا تعلم شيئاً عن ربيع زمزدة، وإنها غادرت صفيحنا وخرقنا، وإنها امرأة من حرير وأجواخ فاخرة، وإنها تخرج الدانتيلا من قبة معطفها، وإنها:" يا الله كم بدت فاتنة، وهي تقف كما أميرة الحلم، بين رجال معقوفي الظهور، زائغي الأعين، لتبدو لوحات فرانسوا منسيةً أمام عظمة الخالق فيما خلق، ووالله، يا جبرا، كانت الآلهة تمشي معها، إلى جانبيها، ومن خلفها، ومعطفها مُتدلٍّ؛ ليتجسد ذلك الطابع الحسيّ لسيدة أبدعتها عين الله، ولم تفسدها مصائد فئران الجبنة... ليست فأرة في مصيدة أحد، إنها المصيدة... هي المصيدة، يا جبرا، هذه أمي".

نهض جاد الحق جاد الله، دون أن يلتفت جبرا إليه، وفي ليلة كهذه، لابد لياسمينة من أن تُحكِم رتاج الباب، وكانت جالسة تُسكت طفلها، وتُهدهده بقطعة خبز، وهي تُردد له أغنية يتكزر فيها اسم ابنها "راجي"، وهو اسم أحالته إليه من جدها لأبيها؛ ليحمل الطفل اسم الجد، ولم يكن أيٍ من عارفي ياسمينة مُتيقناً أن لياسمينة أبٌ أو جدٌ، أو سلالة من ذكور، أخذوا مكانتهم في قبور الدنيا.

بعد مئة عام، عاد اسم جدها للتداول، وهو من رعاها في هجرة والديها إلى البرازيل، فكانت هذه هي الحقيقة الخفية المسكوت عنها، وعندما مات جدها، عادت وحيدة مهجورة كما كانت، وفي البرازيل، لم يكن من أحد يعرف شيئاً عن والديها، فالجاليات السورية، عانت من ضيق الفرص، وانحدار سعر صرف العملة البرازيلية، ورحلة البحر من ميناء طرطوس إلى بحار لا تنتهي، لا بد وأنها كانت محفوفةً بمخاطر جمة، هذا كلّ ماحكاه لها جدها عن والديها مبرزاً انقطاع أخبارهما، وكان مثل من يملأ فمه بالحصى حين تكلّم.

كان جاد الحق يقف على الباب مصغياً إلى أغاني ياسمينة، ما جعله أمام كشف جديد، لم يكن ليتوقّعه أو يقرأه أو تطاله يد حدسه، وبعد أن أطال انتظاره، صمتت ياسمينة؛ لتصغي إلى نقرات أصابعه، وهو ينقر الباب نقرات خفيفة، راقصة، وحال أن فتحت الباب، مُتطلّعة إلى قسماته المتعبة، أمسكته من يده، وجزته إلى صبيهما؛ ليقفا معاً، وهما ينظران إلى خديه بغمازتيهما وضحكته الشقية:

- قبله، قالت لجاد الحق جاد الله.

لم تسأله، لكنها كانت راغبة في أن يقول لها:"تأخرتُ، وصعدتُ

التراموای، ووجدت عجوزین یتعانقان، وأضعت مقالات الصحیفة، وها أنذا، سأعید کتابتهما بخط یدي کلمة کلمة، وحرفاً حرفاً"، وإنه:" کاد یتسفر، وهو یری زمزدة في ضذفة عجیبة، تدخل صالة الفندق، وقد شبکت ذراعها بذراع قتیبة".

کلّ مافعله، أنه قبل طفله، وکانت المرّة الأولی التي یفعلها، ویتذوق طعم قبلة، تجعله یجثو علی الأرض، ویبکي متنهنهاً.

وجد جوزيف تارزيان نفسه أكثر انشغالاً من أي يوم مضى من أيام حياته الفائتة، فعشرات الضباط وصفّ الضباط، جاؤوه حاملين "نيكاتيف" من صور قديمة، أو مطالبينه بالبحث عما يُخبئه منها، فقد كان تارزيان واحداً من مصوّري دفعات التخرج في الكلّية الحربية، وكان مخزنه يحوي على بزّات عسكرية مختلفة الأحجام، كما على حزمة من الرتب العسكرية، وهي تتدرج من صفّ ضابط إلى رتب عالية، تتجاوز رتبة جنرال، كذلك على كفيات من الأوسمة لجيوش مختلفة، والكثيرون من هواة الحرب، كانوا يأتونه طالبين منه أن يصوّرهم؛ ليختار واحدهم الرتبة التي يشاء، وكان يلتقط لهم الصور دون أن يُدقّق، أو يسأل عن مهنة طالب الصورة، أو حقيقة رتبته العسكرية، وثمة من كان يطلب منه أن يقف وراء كاميرته؛ ليلتقط له صوراً، تجافي أي منطق، يتطلّبه العقل، أو الحياة العسكرية، ومن بينهم عسكري برتبة عريف، وقف أمام الكاميرا، وهو يرتدي بزّة ضابط، وفوق كتفه الأول رتبة رئيس بنجوم ثلاثة، وحط على كتفه الثاني رتبة عقيد بنسر ونجمتين، هذا ما كان يحلو للزبون العريف، ولم يكن جوزيف يمانع تبعاً لقاعدة الزبون على حق، وبسبب يأسه ومللِه من أحاديث العسكر الذين لم يُغلق غباز المعارك على بساطيرهم.

كان جوزيف يقف في غرفة الإظهار وراء وعاء محلول المثبت، يُخرج الصور على الكرت المقوى، ثم يتفحصها تحت الضوء الأحمر؛ ليعلّقها فوق حبل في الغرفة المعتمة بانتظار جفافها، غير أنه كان مُرغماً على الخروج من الغرفة؛ ليتنفّس، بعد نوبة ربو، كادت أن تخنقه، بسبب روائح الديفي لوفر الحمضي والمثبتات القلوية، وحين خرج، كان أمامه ضابط بلباس الميدان الكامل، يحمل بيده صورة قديمة، ظهر فيها بين مجموعة من الضباط واقفين في لقطة وداع تجمعهم، وهم - بالترتيب من الأقصر إلى الأطول - يُشكلون دفعة من دفعات الكلّية الحربية، وحين ناوله الصورة، وجد جوزيف أن ثمة ثقوباً، ارتسمت فوق مجموعة من وجوه الضباط في الصورة، وهي وجوه متوزّعة ما بين الصفّ الأول والصفوف الخلفية.

- ماذا أفعل بها، سيدي الضابط؟

- تُصلحها، أجابه.

- هي ليست سجادة؛ لأرتقها؟

- ولكنك من أهمّ مصوّري البلد، قال له الضابط.

- نعم، ياسيدي. ولكن؛ كيف لي أن أستعيد الوجوه من بين هذه الثقوب؟

- دبّر رأسك.

بدت ملامح غضب مصحوب بشيء من التحدّي على وجه الضابط، وقد بزر طلبه لإصلاح هذه الصورة، مستعيناً بمفردات، لها صلة بالأمن القومي، ومع تساؤلاته الملولة، فهم جوزيف، أن عليه استعادة وجهٍ واحد من الوجوه التي تجمّعت، وأكلها المثقب.

- هل تستطيع أن تدلّني على الشخص الذي تريد تثبيت صورته هنا؟

لم يتردّد الضابط في القول:

- إنه هذا.. نعم، أبو عبدو أمين الحافظ.

وبعدها جمد الضابط للحظات، وهو يتطلّع إلى صورة فرنسا التي كانت معلّقة في صدر الاستوديو، كانت نظراتها بؤرئة، تلاحقه كيفما اتّجه، شبحاً عابساً متحدّياً، وحين جلس، مستجمعاً تفاصيل صاحبة الصورة، تضاءل إلى نصف حجمه. كان جوزيف يتابع التدقيق في المكيدة التي رُسمت له، وكان يأمل في أن يخرج منها بتكنيك، هو الكولاج، ولابد أن استوديو جوزيف ساهم بابتكار الكولاج منذ سنوات خلت.

- نعم، هي، قال الضابط لنفسه، وأردف:

- بنت القحبة. أعاد مخاطبة نفسه بصوت هامس، وقد حطّت شتيمته في مسامع جوزيف تارزيان المصوّر.

أنا لستُ بنت قحبة، قالت له فرنسا، ولكنني قحبة، نعم، أنا قحبة، وأنت؟ وأمسكت ببنطاله، حدث ذلك منذ ما يزيد عن عقد مضى قبل انتقالها إلى الروبير حين كانت كرخانة باب الجابية ملاذاً لمتاهات أجساد، تتحرّك بتكتّم شديد بين أزقّة بيوتها، وكان نعيم الواوي ضابطاً برتبة ملازم، يتنقّل حذراً، متلصصاً، مربكاً، مطوّقاً بالخوف من أن يتعثر بواحد من جنود فصيلته، ولم يكن يتوانى عن القول لفرنسا إنه سيهرس كلّ

الضباط الفرنسيين بقدمه إذا ما عاودوا إلى احتلال البلاد، وحين عاد إليها مرّة ثانية، كان مرتدياً معطفاً أسود، ما إن خلعه حتى انبعثت منه رائحة الثوم المهروس، طلب منها حينها أن تغير اسمها، فالأسماء الاستعمارية عيب عليها، وفي تقديره أن فرنسا ستكون مع هذا الاسم: " قحبة مضاعفة"، وتابع طالباً منها أن تخلع عنه ثيابه، وأن تنزع حذاءه من قدمه، وتنبأ لها بأنها ستقوم حالاً بكلّ أنواع الفانتازيات التي تتطلّبها جلسات الجنس المحترفة. وعند ذلك، أطلقت فرنسا العنان لرغباته، وخلعت عنه ثيابه قطعة قطعة، وحين استلقى على ظهره، طالباً أن تركبه، استأذنته للحظات:" لحظات، ياسيادة العقيد، وسأعود اليك". تخاطبه بـ" سيادة العقيد"، وكان يصغي إليها مرحاً.

من فورها، فتحت ستارة غرفتها، كاشفةً زقاق الشارع، وكان كارم محمود يترنّح على رصيفها، نادته على كارم محمود بصوت مرتفع:

- هيه. خذ.. غير ملابسك، وتدفأ.

كانت قطع ثياب نعيم تتطاير متوالية، وترتطم بأرض الزقاق دون إحداث جلبة تُذكر، وما إن وجد نعيم نفسه عارياً عاجزاً عن استعادة ثيابه، حتى ابتدأ يجهش بالبكاء الغاضب متسوّلاً أن تعيد إليه ملابسه:

- إنك تقتلينني بفعلتك.

- لكنك ستقتل الفرنسي، إن عاد لاحتلال البلد.. سيادة العقيد ما؟

- فليأتِ الفرنسي، وليحتلّها.. فقط أعيدي لي ملابسي.

- تقايض الوطن بكلسونك، يا سيادة العقيد؟

فكرت فرنسا أن تعيد إليه ثيابه، غير أن الأمر خرج عن طوعها، ولكنها استعانت ببنات أخريات، كنّ يلملمن فوائض من ملابسهن، تنورة، وقميص نسائي، وجلباب، وغطاء وجه، يومها خرج نعيم من كرخانة باب الجابيه بملابس نسائية، وغطاء وجه، ولم يعد إليها أبداً، أما في هذه اللحظة ودون ريب؛ فقد بدا أكثر ثقة، وهو بانتظار عودة جوزيف من مخبر الاستوديو ليقول له:

- ستكون الصورة جاهزة غداً.

الصور التي التقطها جوزيف فيما سبق، وكانت لضباط قادوا انقلاب البعث، أخذت المساحات الأولى من صحف البلاد، وزيّنتها، ولم تخلُ

إضرابات سوق الحميدية، والإرباكات التي أصابت العاصمة ومدينة حلب، دون بيع تلك الصور، وكان كتاب وصحفيون كثر التحقوا بالثورة الوليدة، متخطين على قدم المساواة ماضي عشقهم لجمال عبد الناصر، وماضي مجاراتهم للإخوان المسلمين والتيارات الدينية، ودون إبداء أي تذمر، رشخوا إيمانهم بـ:

- الاختلاف ليس أمراً حميداً.

غير أن البحث عن التوافق بدا وكأنه توافق على شعار واحد: "كل السلطة للكادحين".

- الكادحون، يا لهذه الكلمة المبتذلة!

حين نعود إلى جورجيت، فعلى الرغم من همسها بهذا الكلام، كان عليها أن تنحدر إلى طبقة الكادحات ما بعد انتصار ثورة البعث، وبذث، وهي تميل برأسها، وتضع يديها على صدرها، وكأنما تدعو جاد الحق جاد الله إلى أن يتفهم، فما إن دخل صالة بيتها، حتى أخذته من يده نحو غرفة مكتبها؛ لتقول له:

- اسمع، يا صغيري، ما تزال فتى يافعاً، العمال والفلاحون استولوا على السلطة، ابحث عن مكان في قطارهم.

كان جاد الحق يصغي إلى جورجيت متيقظاً تلك اليقظة الذهنية التي ستبقى مرفقة بآلام جسدية، بالنسبة إليه طيلة عمره، غير أن وميض عيني جورجيت زاد من حيرته التي يرهقها فكره، فاستسلم لها، وهي تنبهه إلى أنّ السلطة كالمرأة في المجتمع الذكوري، لايتزوجها شرعاً اثنان، وعليك أن تخطو:"نعم، إنّ فتى بموهبتك قادرٌ على اجتياح السلطة، وبوسعك أن تتزوجها... سنة، سنتان، وستكون وزير إعلامها.. كنْ بغياً، وامنحها نفسك.. تزوج الشلطة".

بدا جاد الحق جاد الله، وهو يرتدي بذلة الخزس القومي، والمسدس يتدلى من خاصرته، فتقلاً، ومريضاً، ولا بدّ أنّ عرجاً ما أصابه من جهته اليمنى، وبدا، وهو يعود إلى الحي مسكوناً بهواجس افتقاد عذريته واقعاً تحت ثقل عيون الأزقة، وصفيح بيوتها، غير أن ناس الأزقة احتفلوا به على غير ما اعتقد، فالبشرية وارثةُ الحماقة، منقوعةٌ بخلْها، وليس مسموحاً لها أن ترى في حماقاتها سوى مأثرة مسترسلة، كان صامتاً كعادته، بين محتفلين، يقودهم وارث أسنان أمه، لساعة هي الأكثر رعباً في

حياة جاد الحق جاد الله، وهو يتسثر على عرجه، ويتابع سيره نحو كوخه؛ ليجد ياسمينة تحمل طفلها الثاني، فيما بقي طفلها البكر واقفاً، ونصفه الأسفل مكشوفٌ، وهو يتحسس مسدس والده.

أخبرها على وجه السرعة أنه انتقل للعمل في مجلّة الحرس القومي، وقال لها إنه سيتزوج السُلطة، وما إن شددت نظراتها إلى مسدسه، حتى أكد لها، أن الحزب منحه مسدساً بلا خرطوش، وأقسم أن مذخره فارغ تماماً، وسيبقى على هذه الحال، ثم نزع المذخر من فجوته؛ ليقول لياسمينة:

- انظري، إنّه فارغٌ من الخرطوش.

لم تعتد ياسمينة على رؤية زوجها نهماً على هذا النحو، فشجرة حياته نمت دون أن يمتدَّ الطعام إلى جذورها، ومهما تدفّق الدم فيه، فإنه يتزود بالدّماء من رئتيه حين يملؤهما هواء، ويتنفّس، وعيناه تسددان نحو لوحات مجهولة، تتسرب من زمن أبعد ما يكون عن وجبات الأكل... جاد الحق - الآن - يأكل بكلتي يديه، ولا يلبث أن يحشر اللقمة في فمه حتى يلحقها بأخرى حتى استنفد صحنه الأول، وأتى على الثاني، ومن ثمّ؛ الثالث، وبعدها نهض ليتقيأ، عائداً من جديد إلى المائدة؛ ليأكل، ويتقيأ ثانية، وكانت ياسمينة تتساءل إن كانت شهية زوجها انفتحت على شهية السلاح، وقد تدلى مسدّس من خاصرته... قالت له إن السلاح يزيّن الرجال، وبدت واثقة أنها طاهية جيدة، وأبدت في تساؤلاتها اللاحقة حيرة مما إذا كان زوجها قد سهى طيلة حياتهما المشتركة عن حقيقة كونها كذلك، متابعة أن الطبخ نفس، وأن أنفاس المرأة يمكن أن تملأ طناجرها، كانت تريده أن يتحلّل من ملابسه؛ لينام إلى جانبها، ليحكي فقط، فقط:" احكِ لي، قل لي إن كنتَ تعرف أنني أحبك، وإنني أتمنى أن أحبل بصبي آخر، صبي لن يتأخر حتى يمتلئ بيتنا أطفالاً، ونصبح عائلة كبيرة وواسعة".

ما يقارب من ربع قرن مضى على زواجهما، ملخصه كلمة واحدة، قالها مستلقياً، ويداه متصالبتان فوق صدره:

- مستوحش.

أثقلته تضاداته الروحية، فالالتحاق بالتعبير المحكي أجهده، ومناماته، وقد حضرت إليها أمّة فاطمة، باتت تنهك ما تبقى من خيلٍ في جسده، وهاهي ذي أمه تعود إليه، حاملة عنقود عنب، بحبات بالغة الصغر، كان

يتابع مضغها، متيقناً أنّ عنبها سيقتله، فهدايا الأموات للأحياء دعوةٌ للالتحاق بهم، ما دفعه إلى النهوض من نومه؛ ليتقيأ للمرة الرابعة في ليلةٍ واحدة، راغباً فيها من التخلّص من هدايا أمه التي لم ير وجهها قط، وكان يصرخ:

- لا تأخذ من الموتى، ولا تعطهم.

حال أن أفاق ثانيةً من حموض حطت في فمه، وأمعنت غثياناً في معدته، خرج إلى حيث لا يعلم، ليبيع أقدامه إلى حي الأمين، ونافذة آنـا، وهو يستعيد اكتشاف مملكة الذكرى؛ ليعرف أن ليس ثمة سخر يساوي سخر آنًا، وأن ليس ثمة رحلة عبر الجسد، تساوي الرحلة في جسدها، وقد تحوّلت رحلته إلى لعبة استدعاء لشفتيها وأصابعها:" حرف الألف يساوي السبابة، والهاء هو تدويرة السبابة، وقد التصقت بالإبهام، والباء شفتان مطبقتان، تنفجران كما انفجار غيمة"، ولم يلبث أن أخرج من لعبة الدمى هذه، فقوات الأمن العسكري، وقد رفعت محرساً لخزاس متحفّزين تحت نافذة آنـا، كانت جاهزة لاعتراض لعبته، وكان يقف بالقرب من كنيس مهجور على مقربة من نافذتها، فأسرار الكُنُس، لابد وأن تُحرَس، وكل بيوت اليهود في دمشق كانت تحت حراسة الأمن العسكري.

كان جاد الحق جاد الله يخضع لأوامر أحلامه، غير أنّ أوامر الخزاس الفتشذدين، بدت أقوى من استمراره بالتطلّع إلى نافذة آنـا، وقد يبست أصص ورودها، وغابت عنها إطلالات بنتٍ ما إن تفرد جديلتها حتى تعود إلى تجديل شعرها ثانية، في لعبة، كانت على الدوام ارتهاناً لوقت، سيطل منه جوزيف تارزيان، وعيناه ترتفعان إلى الأعلى صوب النافذة، ومن الزاوية نفسها التي يقف فيها جاد الحق جاد الله.

وقفته في تلك الزاوية، أثارت حفيظة الخزاس، فتقدّم واحدٌ منهم متسائلاً عمّا يختبئ وراء نظرات جاد الحق جاد الله.

لم يستطع أن يجيب عن سؤال الحارس، كلُّ ما فعله أنه ألقى برأسه نحو الأسفل، هارباً من سؤال الحارس، ومن كلّ الأسئلة المتلاحقة كما وحوش، تُطوقه بأسيجتها؛ ليتحطم فوق نتوءات إبرها الشائكة، لكن الحارس لم يتوقّف عن متابعة الأسئلة:

- أنتَ فلسطيني؟ هل تحمل هويّة؟ هل جئت لتسرق الكنيس؟ أم لتفجّره؟

وهو يمدّ يده مفتشاً ثياب جاد الحق جاد الله، أخرج الحارس هوية، وتأملها، كانت بطاقة تعريف من الحزب القومي، ومن مجلّته الناطقة باسم الثورة، كان على الحارس أن يُكرّر اعتذاره من جاد الحق مردّدا كلمة، يا رفيق، ما أعطى فرصة لجاد الحق جاد الله بأن ينسحب من خياله مُتجهاً إلى باب توما، قاطعاً مسافة أكثر شقاء باتجاه ساحة السبع بحرات؛ ليتوقّف عند أعظم الملاهي الليلية وأكثرها استثارة لرغبة الغائب عن إجابات، لم يعرف كنه الأسئلة التي لابد، وأن تقود إليها.

توقّف طويلاً عند صور إعلانية في واجهة الطاحونة الحمراء، كانت صوراً لراقصة عمود، عارية أو شبه عارية، مُحاطة بعشرات الصور، لعرض تعرٍ، لفرقة ما يزال يجهل اسمها، وهو يتحرّق من طول ليله، بانتظار أن يبزغ الفجر، ويأخذ طريقه إلى مجلّة الحزب القومي، وهناك، وقف لدقائق متأملاً صورة لقبضة يد واثقة، تحمل مشعلاً ملتهباً، وفي الخلفية صورة لفلاح يجني سنابل قمح، وقبالته ما يشبه الآلة الفولاذية التي تعني تكافل العمال مع الفلاحين من أجل الوحدة العربية، وتوطيد الاشتراكية والثورة.

- قل لي، يا رفيق، قال له رئيس التحرير، وصمت.

ظنّ جاد الحق جاد الله أن ليس هنالك شياطين، وأن ليس للأبالسة وجود حقيقي، واستخلص أن خيالات الإنسان هي شيطانه، وأنه سجين شيطانه هذا، وكان يسعى لقصقصة أجنحة خياله، أو الحدّ من تدفّقه، فالواقعية هي أن تتلمس الأشياء، وأن تكون الأشياء بمتناول يدك؛ لتكون في متناول إدراكك، وسوى ذلك أكاذيب، تصنعها الخيالات المريضة، وعليه أن يُشفى منها، وأن يرفع ظهره للأعلى، فبداية الخلاص من الحدبة هو التدرّب على الخلاص منها، غير أنه ما إن رفع ظهره ليجيب عن سؤال رفيقه، حتى شعر بآلام جارحة في عموده الفقري، امتدت خدراً إلى رؤوس أصابعه، وكان وهو يتلمس صور القادة فوق طاولة الرفيق رئيس التحرير، لا يستشعر أن ثمة حواس أو نهايات عصبية لأصابع قدميه ويديه، أجاب جاد الحق جاد الله رئيس التحرير المجلّة بزهد وتواضع:

- نعم، يا رفيق.

- سمعتُ أنك كاتب جيد، سنجزيك في كتابة افتتاحية المجلّة.

بعد انتهائه من كتابة الافتتاحية، والتي أكدت - فيما أكدت - على مجابهة العدو، تيقّن جاد الحق جاد الله من كونه بات نصفين، نصفاً له،

ونصفاً لمجلة الخزس القومي، ومن يومها، بات يتصرف ويحيا على هذا النحو، بين مقالات تنحو باتجاه توطيد عزيمة المجابهة، ووحدة الطبقة العاملة، والثورة الريفية التي يحاكيها يسار البعث، والمستمدة من كتابات الرفيق ماوتسي تونغ الصيني، وبين كتابات خياليين، بأفكار ميتافيزيقية، تتساءل عن ماهية الوجود، وتأتي في مرتبة متأخرة تلك الدراسات المترجمة التي ترفع من شأن الإنسان الصرصار؛ لترفعه إلى مرتبة اليونابرت - الإمبراطور، ولم يرفض كونه ذلك الصرصار، وهو يتسلّل كلّ صباح واقفاً أمام رئيس تحرير المجلة، مُتحصناً بدروع الابتسامات التي يرتديها، والتي تعني ما هو أكثر من القبول، فالقبول شيء، وتمثُّل الآخر شيء آخر مختلف، وها هو يعود إلى طاولة الكتابة؛ ليكتب نصف مقالات المجلّة، أو ما يزيد عن نصفها، مُمهراً توقيع رئيس التحرير بذيل ما يكتب، ولم يكن يتنبه إلى أنَّ بذلة الخزس القومي التي يرتديها، هي بذلة بسترة عريضة، وسروال ضيق، ما كان يزعج زوجته ياسمينة، فأعلنت عجزها عن إصلاح السروال، وانشغلت في تضييق السترة، غير أن ضيق سرواله، كان يكشف على الدوام ضخامة دليل ذُكورته، ما يتسبب لجاد الحق جاد الله بالكثير من الحرج، وهو يعبر الاحتفالات التي يحييها الحزب في مناسباته المختلفة، ولم يكن بمقدور جاد الحق جاد الله أن يُقصّر دليل ذُكورته، كما حال تقصيره لسترته، إنه حقيقي، كان يقول لنفسه، وهو ما تؤكّده جورجيت، وتتفحصه، وتُقرّ أنها لم تر مثله من قبل، دون أن تملّ من مداعبة فتنته، وعلى نحو شائن، كانت تنتزعه من سروال جاد الحق جاد الله، وتُحيل بذاره إلى فمها، كان جاد الحق جاد الله يجلس عارياً في غرفة مكتبها؛ ليكتب لها رواية مُستخدماً نصفه الثاني، نصف الإنسان الصرصار، كانت روايته تحكي عن نساء ضالات، وهي الرواية التي ستصدر عمّا قريب، بطبعة شديدة الأناقة، موقّعة باسم جورجيت، الغارقة في الليبيدو، وبالخطايا مستحيلة الإصلاح، وببقايا ألغاز شغلت كتّاب وصحفيي المقاهي، واحتلّت مساحات كبيرة من الدراسات النقدية لصحف لبنانية، مع ملاحظة صورة جورجيت البارزة على الطبعة الأولى والثانية، وكان برج إيفل منتصباً من خلفها.

- أنت تحبّين الأبراج المنتصبة، قال لها.

- برجك وحده المنتصب، أجابته والكحل الاسود يُثقل جفنيها، وامتدّت يدها تداعبه.

كان نعيم الواوي يصل - في أحيان كثيرة - إلى أقصى حدود الحماسة، وهو يلقي خطباً، تطالب بتمليك الجنة للطبقة العاملة، والعورية منها، بطبيعة الحال، ولم يكن جاد الحق جاد الله يعرف شيئاً عن نعيم بعد، كان نعيم الواوي الضابط السابق ورئيس تحرير مجلّة الخزس القومي، يقف وراء مجموعة من القيادات النقابية العقالية التي تجوب البلاد عرضاً وطولاً، ومعظمهم من أصول فلاحية، وكان هؤلاء يقفون لساعات طوال، وهم يخطبون بحماسة في عمال المعامل، دون أن يبدي العمال ضجرهم من هذه الخطب، كانت أجساد العقال وحدها تضجر، فقد كانت أقدامهم تتصلب، وأعناقهم أيضاً، ودون شك، لم يحدث أن تصادف وجود نعيم الواوي في كرخانة باب الجابية مع وجود أي من هؤلاء العقال حين فعلت فرلسا فعلتها، وخلعت عن نعيم ملابسه، ومن ثم؛ أعادته بملابس نسائية مع غطاء وجه إلى زوجته؛ ليؤكد لزوجته السمنة أنه كان في مهمة حزبية - أمنية، تتطلّب تستراً بالغاً، وهكذا، زاد افتتان زوجته به، حتى تفحصت القطع التي يرتديها قطعةً قطعة؛ لتعثر فيها على روائح نساء مختلفات، وبمقاسات مختلفة. غير أن ما أثار استغرابها هو أن يطال التنكر كلسونه، فقد كان كلسون التنكر نسائياً، وفيه فتحة خلفية، وبزيق من الأمام، فانفجر في وجهها مؤكداً لها بأن التنكر يطال كلّ شيء، بما فيه كلسون المتنكر أيضاً:

- من الحيطة والحكمة أن أحسب .. نعم، افترضي أن يُطلَب مني خلع ملابسي، كلّ ملابسي، أ لن يكتشفوا أمري، إذا ما اكتشفوا أنني أرتدي كلسون رجل؟!

بات نعيم ما بعد انتصار الثورة واحداً من قادة الخزس القومي، بكلسون رجل، ولم يكن جاد الحق جاد الله يتوانى لحظةً واحدة عن كتابة المقالات الممهورة باسم نعيم على صفحتين من مجلّة الخزس القومي، صفحة الافتتاحية، وصفحة الغلاف الأخير، وعلى الصفحتين، كان نعيم يضع صورته وسط الصفحة، أو وهو يُطل من زاويتها؛ لينثر مقالاته على جدران بيته، مثبتةً على إطارات زجاجية، كانت تزيد عن أربعين إطاراً، ما

بعد أربعين مقالة أسبوعية، كان جاد الحق جاد الله يكتبها، ثم يحملها إلى سيده قائلاً:

- اطمئن، يا سيدي، ان كلاماً كهذا سيهزّ قامة التاريخ وشراميطه، يا سيدي.

الشراميط؟ تساءل نعيم، وكأنما ذهب بخياله إلى فرنسا متسائلاً، أ هي حية؟ أم ميتة، ولم يكن ليطال إجابة من جاد الحق جاد الله، ولا من سواه، ذلك أنه لم يكن ليستطيع أن يبوح باسمها، وهي من ارتفع صدرها رايةً فوق كرخانة باب الجابية، لتحكم الكرخانة من أولها إلى آخرها، باباً باباً.. نافذة نافذة، ودمعة دمعة، غير أن معلومات مستجدّة وصلته من جاد الحق جاد الله، وهي معلومات أفادت بأن كرخانة باب الجابية:"أغلقت من زمان، يا رفيق"، و:" لقد باتت ورشاً للنجارة والخياطة، ومستودعات ومخازن"، و:" لقد حلّت الكرخانة الجديدة مكان الكرخانة القديمة، اسمها كرخانة الروبير، نعم، كرخانة الروبير".

قالها جاد الله بصوت هامس، كأنه يُفشي سرّاً، وحين طالبه نعيم بأن يكرّر ما قاله، أكّد ثانية، هي كرخانة الروبير، و:

- ليس فيها نساء عور، أو عرج، أو عجائز بلا أسنان، كما حال كرخانة باب الجابية، كلّ قحباتها من الصبايا.

لم يكد العدد الجديد من مجلّة الخرس القومي يصل المطبعة، حتى أوقف طبعها بأوامر من نعيم، ولم يكد جاد الحق جاد الله أن يقف أمامه متسائلاً عن السبب، حتى نهض نعيم عن كرسيه؛ لينبئ جاد الحق جاد الله، بأن الدعارة واحدةٌ من محزمات الاشتراكية الثورية، والماركسية العربية، وأنه سيكون في حرب مع الدعارة، وعلى القيادة أن تأخذ هذه الحرب على محمل الجذ، ودون شك، فقد تكافل أئمة مساجد مع نعيم في حملته على الفسق، حتى اضطر نعيم أن يفرد مساحات من مجلّته لاستطلاع رأي، طال آراء شخصيات وازنة من شيوخهم، وقد قالوها صريحة بأن:"ما ملكت أيمانكم"، لا تنطبق على النساء الساقطات، فما ملكت يمينك، فليمينك وحدك، والساقطات لجميع من يملك يداً يمنى، ما جعل حملة نعيم تؤدي إلى إغلاق الروبير، وتشريد بناته، تاركات رسوماتهنّ على جدران غرفهنّ، رسومات أشبه برسومات المغاور؛ حيث تُختزل الأجساد بخطوط، والوجوه بدوائر، والأصابع بأسهم متناثرة، وفي غضون ترحيلهنّ من الروبير، كانت قرارات القيادة قد اتّخذت بشكل قاطع، فالروبير سيتحول إلى مخزن

للجنود، وبناته من غير السوريات سيرّحلن إلى بلدانهن، وكانت غرفة فرنسا، قد تحوّلت إلى غرفة بسريرين عتيقين، لبنتين لبنانيتين، جاءتا من البقاع الغربي، وتاهتا في محنة الترحيل، ولم تكن أيّ منهن قد أصيبت بالسيلان أو الزهري، حسب المحاذير التي رسمتها قرارات القيادة مرفقة بفتاوى مشايخ فلاك اليد اليمنى.

كان نعيم، الشره لتفحص كرخانة الرويبير، أول من دخل المبنى الفارغ من البنات، ولم يكن بوسع فرنسا الميتة، وقد ألقت نفسها من نافذتها، أن تُجبره ثانيةً على خلع ملابسه، فالأموات يشبعون رغباتهم من التراب، وقلوبهم هي قبر ماضيهم، وإذا ما كانت فرنسا واحدة من الأموات اللواتي ينهضن من قبورهن، فهي تنهض، لا لشيء، سوى لأنها على دراية بكونها قد فقدت صلاحيتها بالتدخّل في حياة الأحياء، وكانت حين التقته في كرخانة باب الجابية، حدست بأنها قد تتسبب بماس لاحقة لبنات مهنتها، وستكون هي الدافع الرئيس في حقد نعيم على الكرخانة، وهو ما أدركته بحدسها وخبرتها حال أن جثا راجياً كما كلب، لتعيد إليه ملابسه، ولم تكن لتمانع في منحه هدية مجانية، هي مضاجعة سريعة تعويضاً عن الإهانة التي لحقت به، وان كان قد فقد قدرته على الانتصاب، وبات ذابلاً، كما قثاءة متعفنة، وبأخلاق بطولية، اكتفى بأن رضع إبهام قدمها.

للأمكنة المهجورة رائحة تشبه رائحة الموتى، والروائح تتسلّل إلى أنف جاد الحق جاد الله، وهو يحث خطاه وراء نعيم في جولة لتفحص مبنى الرويبير، وهما يتنقلان بين بقع لونية وخربشات تملأ جدران الممرات، في محاكاة تفسر روح المكان المعزّل، ولم يكن ثمة فسحة واحدة أمام جاد الحق جاد الله، ليرى أي أثر لزمزدة، أمه بالتبنّي التي أقامت هنا، في هذا المكان المهجور، وقد شهد في ماضيه حركة مجاميع بشر، يذرفون دموعهم على شراشفه.

باتت زمرّدة اليوم، بعينين تعلوهما نظّارة طبية، ذات إطار دائري أسود، تزينها حبة ماس صناعي على حافة حاملها الأيمن، لم تكن تفارق قتيبة، وهو يمازحها من فراش مرضه متخذاً لنفسه صفة الثعلب المتنمّر، وهو يفترض أنها دجاجة، وكان عليه أن يعترف، بوحشية وقسوة الحياة التي عاشها، فهو وقد تزوج زاهية، وأنجب منها، تزوّد بانعدام اللفة معها، وما من شكّ في أنه سعى للانتحار في أكثر من مناسبة، أقله بعد أن ينسحب من نظرات ساخرة لرجال يعدّونه نوعاً ثالثاً، مضيقين عليه فرصة أن يكون كائناً متوازناً، وحدث أن ووجه بكلام صريح، ساخر، جارح، من رجال

خشنين يصفقون كلامهم فرددين:"خنثى"، ثم لا يلبثون أن يتصرّفوا كما عمالقة أغبياء، وهم يتساقطون إلى أسفل المشاعر الإنسانية حين يغمزون لاصطحابه معهم؛ حيث تشكّل رغباتهم الحشية أساساً لكلّ دوافعهم، وفي النهاية، فإنه لم يكن كما اعتقدوا، فكلّ ما في الأمر، أنه متعايش مع حالين في جسده، هما شراكة ذكر وأنثى، وليس عليه أن يكافح من أجل فك شراكتهما، وما زمزدة سوى الأنثى التي تقف بهدوء، وتتقدم منه بهدوء، وتسقيه الشاي بالنعناع، وقد اكتفت تواقة إلى أمان، لم تعثر عليه في الروبين، ولم تنله في تلّ الغزال، وهي على يقين من أن جاد الحق جاد الله ليس ابنها، ولن يكون ابناً لأية امرأة، بما في ذلك أمّه المنجبة فاطمة، و:"لستُ ثعلباً كانت تردد"، و:"أنا لستُ دجاجة كما تقول"، و:"هيا، انهض، حاول أن لا تدع قدميك تتكاسلان، ولا تستسلم للشلل".

حين نهض قتيبة، أمسكتْ بيده، وتجولت به، وهو يتثاقل باتجاه لوحاته الموزّعة على الجدران، وأمام كلّ لوحة، كان يحكي لها عن افتتانه باللون الأزرق؛ ليقول لها:" إنّه جوهر الصفاء المركّز"، وبعدها يسرد تفاصيل اقتنائه بهذه اللوحات، فتجزداً من أيّ حِسّ بالتملّك، هذه لوحاتك، كان يقول لها، ثم يتّجه إلى مقتنياتٍ قديمة، من بينها قطعٌ من الأحجار الكريمة؛ ليمدّ كفّه المنبسط مردّداً:" وهذه زمزدة، هي تحمل اسمكِ، إنها لكِ"، وليست زمزدة سوى سيدة، لم تكن لترغب في امتلاك أيّ من مقتنيات أحد، غير أنها كانت تجامله بأن تضمّ راحتيها على هداياه المتصلة، وكان يفرح، ثم يعود إلى فراشه، وهي تُحكِم الغطاء فوق جسده، ثم تُقبل جبينه ورأسه؛ ليتابع - وهو يغفو - كلاماً، له صلة بالحُبّ، فمغمض العينين، مُطوّقاً برحلاته معها، وهو يضمّ كفّها إلى صدره، فيما الزوارق الصغيرة تشق طريقها في البندقية، وسط سؤال يدهش عينيها الطفوليتين، عن تفاصيل هذه المدينة العائمة.

هي لا تريده أن يموت، ولا تبحث عن ميراثه، ولا تريده رجلاً، وكلّ ما تريده منه أن يتذكّر؛ لتتذكّر - بدورها - ليالي قطاف الحشيش، وميتة فاطمة، وإرضاعها لجاد الحق جاد الله، وهو ملطّخ بمخاض دماء أمّه؛ ليخرج إلى الحياة بمعجزة، ثم يعاند في استمرار المعجزة.

وها هو جاد الحق جاد الله ابنها في الرضاعة، في ساحة مشفى المجتهد، يفتح عينيه، ويغمضهما، رافضاً الموت، متيقّناً أن موته سيتسبب بكارثة بشرية فاجعة، وليس من أحد يعرف سرّه سواه، فهو آخر فرد من سلالة جينية هَرِمة، منظومةٍ وراثية، لم يتبقَ منها سواه، والكارثة أن ابنيه

الذكرين - وهما يحيطان بكرسيه المدولب - لا ينتميان إلى سلالته الجينية هو، وهو متيقن من هذه الحقيقة التي يعدّها حقيقة نهائية، وكذا سيكون أحفاده من سلالة جينية مخالفة لسلالته، كما آبائهم، ولهذا معنى واحد، معنى يقول بأنّ موته يعني إعدام سلالته الجينية إلى الأبد، يعني (انقراض سلالته)، وهو اليقين الذي دفعه ليتحرّك محاولاً القفز من فوق كرسيه، ممانعاً موته، ولم يكن بوسع زوجته ياسمينة أن تمسك به، ولا أن تمنع سقوطه فوق أرض رطبة، موحلة، أمام خُرّاس المشفى الضجرين، الذين ما إن وقع حتى باغت واحد منهم ياسمينة قائلاً لها:

- خذي زبالتك، واخرجي.

هو زبالة؟! تساءل وسط قرقعة عظامه، إن كان حقاً كذلك، وحين دحرجت ياسمينة كرسيه، حاول النهوض مجدداً؛ ليتحوّل إلى ورقة صفراء مكتوب على حافتها:" الموت حكاية مذهلة"، وهو العنوان ذاته الذي كتبه على هيئة مقال في صحيفة "الكفاح" الوارثة لمجلّة الحزس القومي، ما بعد سنوات من انقلاب حدث في السلطة، ومن نتائجه، الظهور المدوّي لضابطٍ بمرتبة وزير دفاع إلى رئاسة الدولة، كان اسمه حافظ الأسد، ومعه، أخذت البلاد طريقاً جديدة، اجتثّ كلّ الذاكرة، وكان على جاد الحق جاد الله أن ينتزع ذاكرته، وهو يقف أمام رئيس تحرير جريدته الجديد، بين مجموعة مصطفّة بانتظام فولاذي؛ ليقول له رئيس التحرير ممازحاً:

- ياه.. أنت زبالة، يا جاد الحق جاد الله. ثم:

- الموت حكايةٌ مذهلة... ها؟

كان جاد الحق يعرف أن الإنسان موجود في الله، ولكنه لم يكن على دراية كافية بأن الله يمكن أن يتجلّى في رجل، وفي مقالته:"الموت حكايةٌ مذهلة"، استعرض جاد الحق جاد الله تفاصيل رجال أقوياء، صلفين، يعيشون في غرف بلا نوافذ، وراء أبواب فولاذية، يمانعون اندفاعاتهم في شرب زجاجات الكوكاكولا، ويتستّرون على ملابس نومهم، فلا يظهرون لجمهورهم إلا ببذلات رسمية، أو بتلك البزّات العسكرية، وقد أحنت النياشين ظهورهم، وذهب أكثر من ذلك في القول إنهم يموتون، بل استعرض طرائق موتهم، حين رسم صورة الزعيم موسوليني، وهو يتدلّى مشنوقاً من قدميه، ورأسه إلى الأسفل، ليطلّ فجر إيطالي آخر، خارج مساحات الزعيم الدبقة، ولم يكن يعلم أن أساسات صلبة، رسمتها الدولة لشعارات تهجس بخلود زعيم البلاد، وقد بات شعارها النهائي:"إلى الأبد".

- نعم، يا سيدي، أنا زبالة.

- تمام، أريدك أن تكررها سبعين مرة، لا.. بل سبعاً وسبعين مرة.

فيما يشبه الهذيان، كررها جاد الحق جاد الله سبعاً وسبعين مرة، ومع أنه لم يكن ثمة عداد واحد يحصي عدد المرات، غير أنه لم يتخط الرقم المطلوب، ولم ينقص منه، وهو يروح ويؤوب في ممر الصحيفة بين رجال مخضرمين، مزهوين، سيرافقهم في رحلته القادمة أزمان طويلة، ومن بينهم ضاحي، مصعب، والأكثر بروزاً بينهم كان عز الدين، وهو الرجل الممتلئ، نابض العروق، الذي لا يخلو من القسوة، وهو مهندس حماسة شعار تخليد الرئيس، والأكثر قرباً من قلب حافظ الأسد.

حين تأمل جاد الحق جاد الله حقيقة أنه آخر واحد من سلالة جينية بشرية، وهو يخلع بذلة الحزب القومي، ملقياً بها إلى الحاوية، كان قد غير سكنه، وبات واحداً من سكان حي الزهراء الجديدة؛ ليحلّ مكان الأكواخ الخربة، بيوت من الخرسانة، بلون واحد، وعمارات متشابهة.

خلع بذلته؛ لأن الدولة خلعتها، وبات موظفو الدولة من البيروقراط والحزب، يرتدون بذلات جديدة، بموديلات تُعاصر الإنتاج الفرنسي والطلياني والإنكليزي، متخلّصين من الثورة الزراعية، وفلسفتها، كما تخلّوا من إرث ماوتسي تونغ الصيني وقمصانه التي (بلا قبة)، ولا بد أن أشقياء هذه الفلسفة، دخلوا السجون، ومكثوا حتى ماتوا فيها، ومن البارزين فيهم، صلاح جديد، ولاحقاً نور الدين الأتاسي، وسليم حاطوم الذي قُتل بالبلطات والأرجل، لدى عودته من الأردن، أعقاب حرب ١٩٦٧، معتقداً أنه سينضم إلى المقاتلين في الجبهة، بعد أن استُدرج مع مجموعة من الضباط المناوئين؛ ليعود إلى سرد تفاصيل مقتله، مع جيل جديد سبح فيه إلى حياة جديدة، بعد أن تقفص في ريف قصي من الأرياف الدرزية.

- ترى، أ ليس من إنسان آخر على هذه الأرض سينقرض مثلي؟!

تساءل جاد الحق جاد الله، دون أن يعثر على إجابة شافية، غير أن انقراضه سيعني - فيما يعنيه - أن الله غير موجود حتى تتجلى مظاهره في ديمومةِ واسترسالِ النوع، ومادام سينقرض، فلمَ الخوف من أن يُحدث ثقباً ما في رأسه، وبيده هو؟ بإرادته الخرّة؟ إن منطقة الوجود لا تخرج أياً من سكانها إلى العدم، ومادامت ستُخرجه هو وحده، فلهذا معنى واحد، هو أنّ بمستطاعه اليوم إحداث حرائق في زوايا منطقة الوجود المظلمة هذه،

وليس ثمة خوف على إرثه، ما يعني - أيضاً - أن عليه أن يُحرز إرادته من الخوف، وأن يتقدم خطوة واثقة من عز الدين، ويتمخط، ثم يبصق في وجهه.

نعم، سأفعل ذلك، ثم صافح ياسمينة مودعاً؛ ليقول لها:

- اسمعي، إنْ لم أعد اليوم حياً، فكلّ ما أرجوه منكِ، هو أن تتزوجي من بعدي.

في سكنها الجديد، اشتدت عزلة ياسمينة، ولسوء حظها، هجرت ماكينة السنجر، لا بدوافع من إرادتها، فما حدث، هو أنه لم يتبقَّ لها نساء، يحطن بها، وهنّ عائدات من بيوت مشغليهن، بأثواب فضفاضة، تستلزم فكفكة وإعادة خياطتها ثانية، والأكثر إيلاماً بالنسبة لياسمينة، أنها فارقت المكان الذي ينبعث منه صوت الليل محفلاً ببزق هوزان، وسكارى خمارة جبرا، وتسكّع وارث أسنان أمه، وراديو فرنسا، وقد آل إلى أحضان فواز المترمل، لم تعد ياسمينة تعرف أياً من المواطن الجديدة لأولئك البشر الذين وقفوا أمام جرافات، ترفع صفيح أكواخهم، وترمي بها إلى شاحنات، تتخذ مساراً طويلاً لإخراج روائحهم من مدينة، انتصرت في معارك أكتوبر ١٩٧٣، وباتت أموال النفط تتدفق عليها، على شكل معونات حربية.

الناجي الوحيد من بين فتية الضبارة، هو وارث أسنان أمه، فقد انتقل من بائع أوراق يانصيب، إلى عاملٍ في الإدارة العامة لمديرية يانصيب معرض دمشق الدولي، وهناك اتخذ طريقاً جديدة؛ ليشغل متسكّعين وعاطلين عن العمل، مقابل حصة، ولم يكن انضمامه إلى السلطة الجديدة، وقد اتخذ مكانة مرموقة بين المحتفلين بمناسبة انتصار الرئيس الجديد، سوى رافعة، جعلته قادراً على شراء دراجة نارية، وبيت في المنطقة الصناعية، فضلاً عن الإشراف على مجموعة من البنات الصغيرات اللواتي جئنَ إلى المدينة؛ ليشغلهنّ خادمات منزليات في شقق مفروشة، وينلنَ مكافآت على أعمال إضافية، يقمنَ بها، خصوصاً تلك الأعمال التي يخرجنَ منها فاقدات لعذريتهن، وقد قطف السائح عشبهنّ النابت تواً.

كانت ياسمينة أحوج ماتكون إلى جبرا؛ لتسأله:

- ما الذي سيفعله هذا الرجل بنفسه؟ ثم بكَتْ من مشاعر قلق، انتابتها على ما سيحلّ بزوجها.

لم يكن ذلك حالها وحدها، فالحنين إلى جبرا بات حلماً شقياً فوق

أكتاف جاد الحق جاد الله أيضاً، وحدبته التي تضاعف حجمها، ولم يكن بوسع جاد الحق جاد الله أن يعرف حقيقة المكان الذي نزح إليه جبرا، وقد جرف البلدوزر خفارته، كلُّ ماكان متأكداً منه، هو أن يافطة الخفارة، المكتوبة بدهانٍ أبيض على رقعة سوداء من التنك، قد انتقلت إلى متفرّع ضيق من حارات الشارع المبلّط في باب توما، غير أنه ما من جبرا داخل هذه الخفارة، فوراء الطاولات الخشبية رجال هادئون، وصحون بالغة الأناقة، وكؤوس لا تلبث أن تدعوك لتتأمل رغوة البيرة سابحة فوق سطحها، وعلى جدار حجريٍ مكحّل بالإسمنت الأسود، ثمة صورة لعجوز، يجلس فوق كرسي مُنجد بالغ الفخامة، لابد وأن يعود إلى حفّار خشب محترف، وكانت الصورة لقتيبة، وهو يجلس، ووراءه وقفت زمزدة مُسندة راحة يدها إلى كتفه.. كانت صورة قتيبة، وقد ارتدى قبعة مُحاكةً يدوياً، ارتسمت فوقها حبات زهر رمانٍ صغيرة، وغلّقت على حوافها أوراق نباتات، لم نعهدها، قبعة من نسج أصابع زمزدة، وحين سأل جاد الحق جاد الله صبياً في مقهى مقابل لخفارة جبرا:

- يا أخ، مَن هو جبرا صاحب هذه الخفارة؟

أجابه صبي المقهى أن: " جبرا رجل محترم، ويكفي".

- هل تصلني به؟ هل تعطيني عنوانه؟

- ليس من حقّي فعل ذلك.

لم يكن جاد الحق يعرف سبباً لتكتّم الصبي تجاه طلب جاد الحق، غير أن جاد الحق، قال للصبي بلهجة، لا تخلو من الرجاء:

- قل لجبرا إنْ التقيت به إن جاد الحق جاد الله يسأل عنك.

- سأقول له.

- عدني بذلك.

- أعِدك.

لم يشأ جبرا أن يسكن في بيت زمزدة، الذي تركه قتيبة ملكاً لها ما بعد موته، فقد اختار سكناً جديداً لكليهما، هو وزمزدة، ولم يكن زواجه منها، محض صدفة، فالأيام الطويلة القاسية التي عاشها بعيداً عنها، والحبّ وقد تعزى من كتمانه، جعل جبرا مسكوناً بالتعرّف على مكان زمزدة حتى بات يظنّ أنّ حبه هذا لابد وأن يسعفه ويمسك بيده؛ ليدلّه إلى مكانها، وهي تغفو وراء نافذة مفتوحة، تُطلّ على حديقة صغيرة، وهي تتأمله من منامها جالساً على مقعد، يتطلّع إلى سماء بلا قمر، وغيوم مدمجة، ونجوم غابت، ووقتٍ مليء بالعاصفة، وما إن نهض متوجّهاً إلى سكنه الجديد ما بعد رحيله من الضبارة واقتلاع خمارته، حتى وجد نفسه يتجه إلى مطعم الرّئيس، هناك؛ حيث الشعراء يحتفون بالاشتياق ولهاث الأحضان والأنهار والبهائم والبحر، ويأخذون جرعات من البيرة والعرق، ثم يقهقهون ضحكات لامبالية متسائلين عن مصير زوجة قتيبة، مع غمزات صريحة، تقودهم إلى الإعلان عن مواقفهم من النوع الثالث من البشر؛ لتنتهي حواراتهم بخصومة، ينقسم فيها المتحاورون ما بين قابل ورافض، وثالث يترك مصائر البشرية لخالقها.

حين طالت جلسة جبرا، ووجد أن مكوثه في هذا المكان وبين هؤلاء العابثين باللغة عبثاً، نهض، ثم عاد؛ ليجلس ثانية، بعد أن ردّد واحد من الشعراء اسم زمزدة، نادماً إياها بالقرباطية التي سطت على ميراث قتيبة، وكان يقف على المائدة، وهو يُلقي قصيدة غزلية، اتهمه بعدها سامعوه بأنها قصيدة سهلة وحكائية، وأن كاتبها وقد ادّعى بأنه شاعر العشاق، لا يتجاوز كونه غلاماً، يتسوّل على بوّابة الشعر، بين غلمان يفتحون بواباتهم لحضرته.

تقدم جبرا من مائدة الشعراء؛ ليسألهم ان كانت زمزدة هي زمزدة التي يبحث عنها، أو إذا ما كانت على وجه التقريب مثلاً. ومن ضحكاتهم، وتعليقاتهم السمجة، استدلّ على مكانها، وعرف أنّ ثمة زمزدة على مسافة، لا تزيد عن ثمانمئة خطوة من هنا؛ ليخطو خطوات، يقلّصها، ثم يعود إلى توسيع خطوته، بين واجهات محال متعجرفة، ومتسكعين أقلّ سلطاناً على

أنفسهم.

كانت كلّ البيوت مقفلة على الداخل، وغامضة، وجميع الأبواب بمقابض، ألغتها أجراس التنبيه الكهربائية، وكان جبرا متلافاً، يقرع الأبواب دون تحسب، غير أن باباً واحداً كان يعلن نفيره، كاشفاً بما لايقبل التلميح أن هذا الباب هو باب بيت زمزدة. وكان كذلك لسبب يسهل فهمه، فقد ألصقت على جداره نعوة، حملت اسم قتيبة، مرفقةً بأسماء عائلته.. زوجته الأولى، وأولاده، والعائلات الدمشقية الخالدة التي كانت على قرابة مع عائلة شهاب، كذلك سلسلة من أسماء مرحومين يإذنه من أقارب قتيبة، وخلت ورقة النعوة من اسم:"زوجته زمزدة".

حين انفتح الباب، وأطلّت زمزدة حاملة معها رائحة الجثة، قال لها إنه يبحث عنها، وإن حياته بلا معنى من دونها، وإنه مكث بانتظار عودتها منذ ولادته، وإنها خُلقت له ما قبل ولادته، ولم ينتظر أن تمد يدها؛ لتصافحه، ولا أن تقول له انتظر حتى أخرج، أو أبدل ملابسي، وأعقص شعري، قال لها إن الوقت بات يتأرجح بين موته، ونزولها معه، وحين خرجت خطوة إلى بيت الدرج، أمسكها من يدها، وهي تنزل السلّم بخطوات مترددة، وقد أغلقت الباب دون إرادة منها، وها هي إضاءات الشارع تعيد إليه كامل قسمات وجهها.

انها هي زمزدة، ولكن الأيام رسمت الكثير فوق أخاديد وجهها، وقد طالته يد الانتظار، والصمت، وكالت له بمكيالها ما يُنبئ عن أحزان، بدت وكأنها مقيمة من دهور فوق عينيها اللتين احتفظتا ببريق شبابها، وكان قلبها يرسم دقاته بين ضلوعها محطماً صمتهما الهائل، وهما يدقّقان النظر في لحظتهما.

بصمت واستسلام، مشت إلى جانب جبرا، لم تنظر إلى وجهه، كما يجدر بمن ادخرت حُباً قديماً، ولم تنظر إلى أحد من المارين في شارع الصالحية، كلّ ما لفتها ظلّهما، وهما يسيران، ويده ممسكة بأصابع يدها، ولم تقف سوى لصبي، يحمل كومة من البوالين المنفوخة الملونة، وقد اقترب الصبي منهما راجياً شراء بضاعته.. خمس بوالين، اشتراها جبرا من الصبي، وما إن أمسك بها حتى أطلقها في الهواء، وهو يقول لزمزدة:

- سنطير معاً.. سنحرر أرواحنا من أثقالها.

بكى جبرا، كمن لم يعرف البكاء من قبل، فقد ضخ مدخرات دموعه

فوق راحتيه دفعة واحدة، وكانت زمردة تتأمله، وهي تتساءل إن كان:

- نعم، أحببتكِ من اللحظة التي رأيتكِ فيها.

ولم لم تقلها؟

- كي أختبر الموت.

- واختبرته؟

- غيابكِ كان موتي.

- واليوم؟

- بوسعكِ أن تنتزعي يدكِ من يدي، وتعودي إلى بيت المرحوم؛ لتميتيني، إن شئت.

بعد نزوح جبرا من الصبارة، حمل مدخراته وغرامافون فرنسا ويافطة خفارته، وحين عثر على قبو في منطقة الطلياني، أسند اليافطة على جدار قبوه، ثم اقتنى سريراً، وطاولة صغيرة، ومقعدين اثنين، واحداً له، وثانياً لزمردة التي ظنّ أنها لن تأتي، ومجموعة من أواني المطبخ، ولم يلحظ أن سكنه سيكون بمواجهة نادي السينما، وأن هؤلاء الشبان القادمين إلى هذا المكان، هم من متابعي نهوض السينما الطليانية، والفرنسية، وسينما شارلي شابلن، وحين ملّ وحدته، وتسلّل إلى صالة النادي؛ ليتفرج على عرض سينمائي، أدهشته فيه رومي شنايدر، وهي تتبول بين ركام الصفيح الملوّن، وترفع فستانها، وترشق مياهها بين ضحكات جمهور الصالة، ما ضاعف غربته، وقد ضغط حسّ العزلة روحه، وتيقّن من كونه بات وحده، و:"لن أكون بعد اليوم وحدي"، قال لزمردة، وهو ينزل درج القبو ممسكاً يدها، ويداري عتمة الدرج وخفقات قلبه تتدفّق على نقرات قدميها.

- هذا بيتك؟ سألت زمردة.

- نعم، وبيتكِ، إن شئت.

- ولماذا غادرت الحي؟

- لأن الحي اقتُلع من مكانه.

- وجاد الحق جاد الله، أين أصبح؟

- لا أعرف عنه شيئاً.. لا هو، ولا أطفاله.

- وصار له أطفال؟

- وزوجة.

كان جبرا حلم نفس أحلامها، وهو في الضبارة، حلم بأنه في قرية يسلبها الضباب الرؤية، وحلمت الحلم ذاته، وكان إلى جانبها في حلمها ممسكاً يدها، وحلمت ما بعد موت قتيبة بأنها تقفز عن سور حجري مرتفع، وحلم وهو في الطلياني الحلم ذاته، وكان ممسكاً يدها، يرفعها عن السور، وهو يجلس فوق حجارته كمن يجلس فوق ظهر حصان من حجر، وحين تسنى لهما أن يستعيدا أحلامهما، عثرا على ألوان منامات متقاربة.

اعترفت أنها كانت تتخطف كلّما رأته واقفاً أمام باب خفارته، واعترف أنه الرجل المؤجّل وأنها الأنثى الغامضة لرجل اعتاد العاريات، اعترفت ألها لم تشأ أن تستدرج نفسها إلى مواعدة رجل متخصص بالنساء المتزوجات، تشاركها به مجموع زوجات رجال الحي، واعترف أنه كان يُغلق باب خفارته برتاجات ضخمة على أزواجهن، ثم يذهب إلى مضاجعة زوجاتهم، اعترفت أنها كما بقية نساء الحي كانت تراه مفتضحاً بين نساء، يتهامسن بسر، لم يعد سرّاً، وحين همّت بالحديث عن أيّام الروبين، ومن ثم؛ عن لقائها الأول بقتيبة، بسط راحة يده فوق فمها برجاءات متقطعة أن لا تستكمل حكايتها، وتابع راجياً أن تنسى؛ لأنه سيعزل ذاكرته من جميع النساء اللواتي عرفهن قبلها، وقد أقسم لها أنه في هذه اللحظة زاهد كما شتلة حبق، وأقسمت أنها في هذه اللحظة بكر كما تراب، لم يُحرث.

سارعا إلى الزواج، هكذا، وكانت طلبت منه برجاء أن يحفظ احترام موت قتيبة وحياتها معه، فهو:

- كان أبي.. ولولاه لما غادرتُ الرصيف.. كنتَ ستراني اليوم على إشارات شارع بغداد، بانتظار زبون عابر، يُصفّر، ويدمي فخذي بالقروصة.

لديّ مُدخرات العمر، وصحّة جيدة، وسأبدأ حياة جديدة معك، قال لها، وبحثا معاً في الشارع المُبلّط في باب توما، وفي أمكنة أخرى؛ ليعثرا على دكان، يليق بجبرا الجديد، وخفارته الجديدة، وحال أن انتهى من إعادة ترميم الدكان، علّق صورتها واقفة في صدر الخفارة، وقد ظهرت وراء قتيبة، رجاها أن تدخل الخفارة لمرّة واحدة:" مرّة واحدة، إنْ شئتِ، وإنْ شئتِ ابقي إلى جانبي"، قال لها، ومكثا ليلة كاملة في الخفارة المُغلقة، وكان يعمل نادلاً في خدمتها، وهي تصغي إلى صوت الموسيقى، وأغان

مختلفة، تنبعث من أسطوانات مثبتة فوق غرامافون فرنسا، الذي اشتراه جبرا من فواز أرمل فرنسا، وجمع عدداً لا يُحصى من أسطوانات قديمة، لمطربي عصر ذهبي، نهضوا مطلع القرن العشرين، وما تزال آثار أقدامهم تحط فوق صالونات دمشق، وبيوت مقتني التحف، كان جبرا عازماً أن لا يُدخل آلات التسجيل الحديثة وأشرطتها إلى خفارته، ولم يكن يواجه ممانعة من الشباب الجدد الذين يدخلون الخفارة، ويشربون البيرة، ومعظمهم من سميعة الرحابنة، وعبد الحليم حافظ، والشيخ إمام، وأناشيد الثورة الفلسطينية، بل منهم من استحوذت على روحه فرقة البينك فلويد، وموسيقى الجاز، وبعضهم ما يزال متشبعاً بالفيس برسلي، وكان بريسلي قد بلغ ذروته، وبات يتدفّق في حناجر ملايين الشباب، ورقصاتهم، كما لو كان نهر المسيسبي.

- أنا أعجز عن فَهمكما، قال لشابين يجلسان على البار في مواجهة صورة زمزدة.

كانا فريقاً من شباب دخل الخفارة ليلاً، ليقولا إن دورية من الأمن العسكري مُكرّسة لحرق الذاكرة، قد اجتاحت سَكنَهم في منطقة شقة المواجهة للقصر الجمهوري، وأحالته إلى رماد حطب، وحين أحكم إغلاق باب الخفارة من الداخل متنبهاً إلى مخاطر ما يقولانه، رجاهما الابتعاد عن خفارته، فقد باتت البلاد حقلاً من المخاطرة ما بعد بدايات تحرّك الإخوان المسلمين، وسلسلة التفجيرات والمفخخات التي زرعوها، كما كان بدايات تشكّل فصائل اليسار الجديد حقل مخاطرة كذلك، فبعض شباب اليسار دخل السجون، ولم يخرج منها، دون أن يُعلن أحدٌ عن مكان جثته.

قال لهما راجياً، مُبرزاً طلبه بأنه سيحتاج إلى ما تبقّى من عمره؛ كي يمكث إلى جانب زمزدة.

- سنغادر.

قالا له، ونهضا، وكانت حبات مطر جوفاء تتساقط على الباب الخارجي للخفارة، وتتسلّل منه خطوط ضوء نحيلة إلى الداخل؛ لتكشف نحول عود الشابين الواقفين بمواجهة جبرا، ما دعاه للقول:

- حسناً، ناما الليلة هنا، فما من شك أن سريركما في السجن، سيكون أكثر قسوة من بلاط الخفارة، وسأعود إليكما بغطاء بعد وقت، وهذا معطفي، تدثرا أمركما ريثما أعود.

خرج جبرا من الخمارة بعد أن نزع أسطوانة غرامافون فرنسا، منبهاً الشابين أن لا يعبثا به، وكانت الأمطار قد زادت من هطولها، ولم يكن جبرا يعرف أين دُفنت فرنسا، وفكر أنه لابدّ وأن تكون الرطوبة قد وصلتها، وهي تتقلّب في نومها الأبدي، كانت زمزدة ملتحفة بيطانية من وبر الجمل، بانتظار عودة جبرا، فيما مزاريب الأسطح تلقي أصواتها فوق رصيف الشارع الموازي لحافة نافذة القبو الذي تسكنه برفقة جبرا.

ما إن خطا جبرا عتبة بيته، حتى قالت له:

- هل الرطوبة تُقلق راحة الموتى؟

كان سؤالها قد خط شيئاً جديداً في رأس جبرا، فالتخاطر لابد وأن يحصل ما بين توائم روح، ولم يكن يخال أن روحه هي توأم روحها، وحين وقف طالباً تكرار سؤالها، قالت له:

- كان علينا أن نصون قبر فرنسا من هطل الشتاء، كان علينا أن نحضنها من البلل، يا جبرا.

القبو المجهول مهجور، وكأن لا ميت فيه، لا أحد يضع الورود على شاهدته، قال جبرا متسائلاً إن كان ثمة مخلوق قد أعياه البحث عن مكان قبر فرنسا، وما إن توقّف عن استرساله في السؤال حتى استدرك:

- سأبحث عن قبرها، يا زمزدة.. سأغسله، سأغسل قبرها.

بدا جبرا أكبر من عمره، فقد تجاوز عقده الخامس بقليل، ولم يكن يعرف حقيقة عمره على وجه الدقّة، قال لها إنه سيعود، ثم حمل غطاء تحت إبطه، وفتح الباب دون أن ينسى أن يقول لزمزدة إنه لن يتأخر.

لم تكن زمزدة تتذمر من الوحدة، ولا من صمت المكان، فالسنوات التي قضتها إلى جانب قتيبة، كانت طويلة مشبعةً بالصمت، خصوصاً أيامه الأخيرة عندما صار النطق يجهده، ولم يعد يبدي لها سوى ابتسامة عذبة، تكشف عن أسنان عاج بالغة الروعة، ببريق ماسة صغيرة مغروسة في نابه الأيمن، كان قتيبة يلمس يد زمزدة، ثم يحملها إلى فمه، ويقبلها، ولم تكن عيناه الزائغتان تتوقّفان عن النظر إلى لوحات مُعلّقة في جدران الغرفة، كما لم تكن عيناه تتوقّفان عن الإصغاء لموسيقى قادمة من وراء دهره، وكان يسمع بعينيه، وكانت تُصغي إلى نظراته بعينيها، وكأنها تتكلّم؛ لتنهض، وتُعيد ترتيب فراش سريره، وبعدها تتقدم بخطوات قصيرة،

حاملة صحن الحساء، وملعقة مفضضة؛ لتقول له:

- كلا، بربك، لا تمانع.. كلا، لا تمت، لا تتركني وحدي.

لم يكن لأولاد قتيبة الثلاثة، ولا لابنته الوحيدة، وكذلك زوجته أية صلة بسنوات عجز قتيبة، فقد كانت العائلة أشد قسوة من أن تتذكره، أو تلتفت إليه، وحين أبلغتهم زمزدة خبر موته، هرعت العائلة؛ لتنهب كلّ أثر يمتّ إلى قتيبة بصلة.. لوحة لفائق المدرّس، وثانية لنذير نبعة، وتوقيع للؤي كيالي على ورقة بيضاء، كان قتيبة قد حفظها بإطار كلّه من الزجاج، كذلك لوحة زيتية بالغة الروعة لفرانسوا صديقه الفرنسي، وكان اشتراها من معرض فندق عمر الخيام، استجابةً لرغبة زمزدة، كما نهبت العائلة مجموعة من الأحذية النسائية التي كان يرتديها قتيبة مفضلاً كعب الحذاء المرتفع على تلك الأحذية الرجالية التي تمتدّ أفقياً، والتي لم تكن مشيته الهادئة لتتطلّبها، نهبوا الملاعق المفضّضة وصحون القيشاني العريقة، وسجاجيد الحائط الفارسية، بالإضافة إلى تفاصيل أثاث منزله، وكانت زمزدة صامتة، مُنكسرة، مغلوبة، ما إن حاولت النطق حتى نهرتْها ابنته البكر، وكانت زمزدة تحبس دمعتها، وفي داخلها ضجّة مُبهمة، لم تصغ منها إثر مطالبة العائلة باستعادة منزل راحلهم، مُجمعين على أنها امتلكت المنزل، حين ملّكها إياه بعد أن فقد أهليته القانونية.

أجل، حين تقدمت ميادة، زوجة قتيبة الثانية وأمّ أولاده إلى المحكمة مترافعة عن ميراث زوجها، استسمحت القاضي بأن تقول له، إن زمزدة مومس، وزوجها الراحل كان عاهراً أيضاً، ولم تلبث وهي مُدرّسة لأصول اللغة العربية أن تؤكد بأن زوجها المرحوم كان رجلاً إباحياً مُشركاً، وأنه أشرك الله بالعقل، كما أشرك ساقطةً بملكيته، وكانت زمزدة على يقين من أنها لن تترافع لتطالب بحقّها في ملكية، منحها إليها قتيبة قبل احتضاره بسنوات، ولم تكن ترغب في أن تربحها اليوم، كما لم تكن تنوي أن تغادر عزلتها إلاّ حين امتدّت يد جبرا ليقول لها:

- بوسعكِ أن تعودي إلى بيت المرحوم، لتُميتيني، إن شئت.

كلا، إن مزحة الموت قد تتكرر، ولن تدخل بقدميها العاريتين إلى كوميديا الموت من جديد، وقد زحف بروحه السوداء إلى شبابها، وكلّ ما عليها هو أن توقِف الموت عند حدّه، وأن لا تسمح لأظافر الموت بأن تخدش جبرا، ولو كان بوسعها أن تطبع بيانات، وتلصقها في الشوارع، لقالت بأن للموت أذنين مسقطتين، ولو لم يكن الموت كذلك، لسمع

حشرجات صوتها، وجنازة قتيبة تتجه إلى الدحداح؛ حيث مدافن عائلته، ومعظمهم من المرحومين.. أعمامه الثلاثة.. والده، خاله وخالته، جدّه وجدّته، ثمانية من أبناء عمومته، صهراه المرحومان المتزوّجان من أختيه المرحومتين، وسلسلة من الأقارب المرحومين الذين جمعتهم مقبرة واحدة، مع أنهم كانوا في نزاع دائم، لا يرحم، وباتوا اليوم من المرحومين مع إضافة:" بإذنه تعالى".

وهو يغادرها متجهاً إلى خمارته، كان جبرا يتأمل متخيلاً نظيره الميت قتيبة، وكان على علم بأنّ جثة قتيبة في مقبرة الدحداح الواقعة على طريقه مشياً إلى الشارع المبلّط المتفرّع من ساحة باب توما، وأن هذا الرجل قد بات ينتمي إلى أزل الموت، ولم يكن يلتفت إلى المقبرة، وقد أدرك أن ما كان ينقصه هو مكان وزمان يجمعانه بهذا الرجل، الميت، نعم، لن أصافحه ولن أشدّ يده إلى يدي، كان يقول لنفسه، ثم:"ما يزال هذا الميت يشاطرني سُكنى مع زمزدة، ويدعوني إلى اللحاق به".

أطلّ قتيبة على حياة جبرا من كوّة في نافذة من عمر زمزدة، وليس ثمة شك في أن حرص جبرا على مشاعر زمزدة، جعلاه يمتنع عن القيام بأيّة مبارزة مع نظيره الميت، أو أن يُشكّك في حق قتيبة بالذهاب في طريق الموت، ولهذا فقد استبعد أية إجابات تتصل بقتيبة حين نهض فاتح، وسأل عن الصورة المعلّقة في خمارته، وقد جمعت قتيبة بزمزدة:

- من هو هذا الرجل الذي يشاطرني حياتي؟

تكرار السؤال دفعه؛ ليتخذ موقفاً عصبياً، لا يليق برجل، يستضيف شابين، أعياهما النوم والخوف في هذا الوقت المتأخر من الليل، مع أنهما شربا الكثير من كؤوس النبيذ، كما الكثير من زجاجات البيرة، حتى باتا يحكيان تفاصيل دقيقة عن تنظيمهما السرّي، وعن المواجهات المسلّحة، وهما على ثقة بأن نظام الحكم سيسقط أرضاً، وبأن الثورة الأممية ستنتصر، كان يُصغي إليهما متأملاً ذاكرات تتأرجح بين تاريخ الثورات المنتصرة، وثورتهما التي تبدو وكأنها تصاغ من خيال بوهيمي، يتنكر بروح فلسفية مرحة.

- قال لهما، مُشيراً إلى صورة قتيبة، إن:" هذا الرجل هو الميت الذي لم يمت.. إنه إلى الأبد".

بعد أن أجاب واضعاً حدّاً لأيّ سؤالٍ لاحق، نبههما إلى أنه بحاجة

للعيش، وقال لهما إن ثورته ستكون في أرض الحُب، الحُب وحده، وتابع مؤكّداً أن ليس ثمّة قيمة ولا معنى لاستدراج التاريخ إلى زجاجات البيرة وكؤوس النبيذ، وأعاد على مسامعهما أن الحياة تمرّ بلحظة، وبعدها تُدهشك كيف باتت اللحظة هي زمنك كلّه، ومن ثمّ؛ لا تجد نفسك أنت وزمنك إلاّ في الحفرة، وكرّر تحذيراته بأن خمّارته ستكون لبشرٍ يعيرون قيمة المتعة، أما رعاع الألم؛ فليذهبوا إلى خمّارة أخرى، ومع أنه كان بالغ الجدّيّة في كلامه، غير أنهما دندنا أغاني غريبة عنه، اكتشف - لاحقاً - أنها لفرقة ناس الغيوان المغربية، ولم يكن يجد في أغانيها أيّة فرصة للاستمتاع، ومع ذلك كان متيقناً أن الفجر سينهض من غفوته، وأنهما سيحملان قاماتهما، ويغادرا خمّارته؛ ليدعهما عائداً إلى زمزدة، وقد أعياها انتظاره، وحلّ جاد الحق جاد الله وأطفاله في خيالها، وهي من شغث بكامل طاقاتها لنسيان جاد الحق جاد الله، آملة أن يبني حياته خارج عشها.

- أطفال جاد الحق جاد الله؟

يوم هجرت زمزدة جاد الحق، وقد حملتها فرنسا إلى كرخانة الروبين، لم يكن شارباه قد نبتا بعد فوق شفته العليا، وكان وزنه لا يتجاوز ريشة طائرة، وهو الذي يلتقط غذاءه بأنفاسه، زارعاً الهواء في معدته، غير أنه كان مستقيم الخطوة، بلا حدبة، تعلو ظهره، ولم يكن له أيّة معرفة في مثلّثات النساء التي تختبئ بين سيقانهنّ سوى ذاكرة ضئيلة مشوّشة، وها هو اليوم رجلٌ ذو سلالة بيولوجية، وبطاقة عائلية، مع أنه على يقين من أن سلالته الجينية ستنقرض بموته، وربّما لهذا السبب، لم يكن يحمل أيّاً من نتوءات العاطفة تجاه ولديه، ولم يندفع إلى تعريف نفسه بـ:" أبو"، وهو الاسم الذي يحلّ محلّ أسماء الذّكور في البلاد، بدءاً من رئيس الدولة رأس الهرم إلى أسفله، كبراهين صريحة على مقدرة ذكور البلاد على الإنجاب، كما تدليلاً على صلاحية خصاهم وحيواناتها الشرهة عندما تتحوّل إلى أجنّة، بما سمح لاسم:" عز الدين الحكيم"، أن يتحوّل إلى صفة، اختُصِرَتْ بأبو أديب، وكان يقود الطبقة العاملة السورية، متفحّصاً مصانع الكونسروة ومصانع الأحذية، وأنوال السجّاد اليدوي، وكلّ ما تنتجه السواعد السمراء حسب وصفه، زارعاً عيونه النهمة في أنفاس عمّالها؛ ليصبح جاد الحق جاد الله ناطقه الصحفي، ومدبّر شؤون عقله، وكان عليه أن يقف لساعات طويلة في الممرّ المؤدي إلى غرفة عز الدين الحكيم، فيما قيادات البلاد العسكرية تحتفل بعيد الثورة، وحين تخرج متّجهة إلى

مصعد البناء، تهتز العاصمة لمواكبهم، وكان على جاد الحق جاد الله أن يُكيل الشكر والرجاء لجورجيت؛ كي تتابع رعايته، وقد باتت أقرب النساء إلى قلب عزّ الدين الحكيم، كانت تحمل بين أصابعها قصيدتين على الدوام، واحدةً لتمجيد الزعيم وحكمته، وثانيةً لما تسفيه دقّات القلب، وكان على جاد الحق جاد الله أن يكتب القصيدتين معاً.

المرأة معِدة، قال عزّ الدين الحكيم لجاد الحق جاد الله، وتابع يسأله إن كان يعاني من غازات في معدته، ودون أن يدع له فسحة للإجابة، مدّ عزّ الدين الحكيم يده؛ ليقول لجاد الحق جاد الله بخبث وشفقة:

خذ قرص الفحم هذا، قال عزّ الدين الحكيم لجاد الحق جاد الله، أمام الجنرالات الذين ما يزالون في ضيافته، وقبل أن يستكمل جاد الله مضغ قرصه، سأله عزّ الدين الحكيم، إذا ماكان قد تحسّس مفعول الفحم السّخري، واستدار إلى مجموعة الجنرالات مؤكّداً لهم، أن للفحم ما يزيد عن سِحر الرقى الإلهية التي يكتبها جدّه، وإمعاناً في التدليل على حسن حدسه، طلب من جاد الحق جاد الله أن يُخرج غازاته دفعة واحدة، وللتدليل أكثر، أمرَه بأن تكون غازاته ناطقة، ولم يكن بوسع جاد الحق جاد الله أن يبكي وسط ضحكات الجنرالات وقهقهاتهم، غير أن الواجب يستدعيه أن يفعل ما يُؤمر به، وحين فعل، تسبب بحيرة كبيرة للضباط الجنرالات، وقد تبدّت حيرتهم في سيل من الأسئلة، ربّما أكثرها دقّة ذلك السؤال الذي سأله الجنرال صافي، ومفاده:

- هل معدتك مُدرّبة على أن تأمرها، فتستجيب لأوامرك؟ أم هي تأثيرات الفحم؟ ها... أجبني.

جاد الحق جاد الله، رجا جورجيت أن تكفّ عن وصفة الفحم، غير أنّ جورجيت التي كانت تجاوزت الستين من عمرها، باتت أكثر جفافاً إزاء رجاءات جاد الحق جاد الله ورغباتها، كما تجاوزت نهمها للمال والسلطة، وقد كبُلا شبابها، ولم تستطع في دوّامة سنواتها الأخيرة، أن تستطيب أوقاتها دون أن تستنشق القليل من الهيروين الأبيض، بصحبة عزّ الدين الحكيم، ولم تزل جورجيت عقدة ممتدّة من ماضيه، حين كان مُجنّد عامل صغير في شركة أنوال مملوكة لعائلتها، وهو يتضوّر جوعاً، وينام تحت وطأة اشتهائه لها.

"أعرف، يا جورجيت، أنك شختِ، لكنني أكتشف مع كلّ لحظة أن بوسعي أن أمارس العادة السّريّة على ذاكرتكِ"، قال ذلك، على مسمع جاد

الحق جاد الله، وضحك، والتفت إلى جاد الحق جاد الله بلحظة آمرة، وهو يهم بمغادرة بيت جورجيت، وكانت نظراته تعني أن:

- اضحك.

ما إن غادر عزّ الدين الحكيم، حتى انفجرت بجاد الحق جاد الله مؤنّبة:

- تضحك، ها؟

قالت جورجيت لجاد الحق جاد الله، وكان واقفاً وبيده حبوب الفحم، وصرخات مختبئة، وحين بادر إلى الاعتذار عن فعلته، مبرزاً أن مافعله جاء بأوامر عزّ الدين الحكيم، أجابته باستخفاف بالغ:

- عزّ الدين الحكيم، ها؟ هو من أمرك أن تضحك ساخراً مني؟ إن وجبة كلبنا كانت ذات يوم أكثر تكلفة من وجبته. ثم توغدت:

- سأجعلك، لا تكف عن مضغ الفحم أبداً.

في اليوم التالي لمغادرة الشابين التروتسكيين خمارة جبرا، رحبت مدفعية المراسم بواحد وعشرين طلقة بقدوم زائر رفيع المستوى إلى سورية، والبلاد التي سمعت وابل الطلقات، عرفت بالدليل القاطع أن ضيفها سيكون العقيد معمر القذافي، وقد ارتدى بذلة عسكرية، ووشاحاً مُزيّناً بانتصارات، لا حدود لها، ولم تكن نياشينه سوى قوة، تضاف إلى قطاف عقول الغوغاء وهتافاتهم، كان يلوّح لهم بقبضته، في جو من المرح الذي لا يخلو من حس التنذر، ولم يكن جاد الحق جاد الله وعيناه على التلفاز مُشرقاً كعادته، فأقراص الفحم التي وعدته جورجيت بابتلاعها، أعاقته عن كتابة كلمة الترحيب بالرئيس الضيف، وكان عز الدين الحكيم راغباً بإلقائها خارج منصة الاحتفال وسط هتافات الطبقة العاملة المبتهجة التي تهتف لحياة القائدين معاً، وتكيل أمنياتها لخلود رئيسها حصراً، غير أن الكلمة لم تُكتب، وقد غطت غيوم الاكتئاب سماء العاصمة، ما دفع عز الدين الحكيم إلى أن يهتف لجورجيت مؤنّباً خياراتها:

- خذيه، لا حاجة لي بهكذا جحش؟ إن جاد الله هذا لا يستحق أن يكون حماراً.. إنه لم يكتب الكلمة بعد.

وما إن همت بأن تجيبه حتى قال لها غاضباً:

- إذا كان لا بد من العادة السّرّية، فمن الحلال أن تكون على الموتى، الأموات أشد إثارة منك.

في حقيقة الأمر، كان جاد الحق جاد قد كتب الكلمة، ولكن ما كتبه كان مجرّد تكرار لضرطات، وبأصوات مختلفة، صاخبة، هادئة، متقطّعة، مسترسلة.

وهو في طريقه مطروداً من حضرة عز الدين الحكيم، حاول جاد الحق جاد الله أن يتفهم الخطاب الذي وُجّه إليه من قيادة الطبقة العاملة، وحال أن فك عن الخطاب غلافه المختوم قرأ:" بموجب هذا القرار، تُنهى خدمات العامل جاد الحق جاد الله" ودون أن يتابع، استطلع الختم الأزرق، وقد

عن زوجته ياسمينة، رجاها بأن تستعيد شيئاً من مهاراتها في الخياطة، ومع كلّ زفرة من زفراته كانت ياسمينة تُذلّل آلامه مؤكّدة أن:" الله يرعانا، ولا شيء يتخطّى حدود الله"، وحين امتلأ وجهه بالرعاف النازف من أنفه، جلس كما جنين متكوّر حول نفسه، حابساً أنفاسه، وكان يُجهد نفسه في أن يوسع لجنازته مكاناً في بيته.

- لدي إسوارتان من الذهب، قالت له ياسمينة.

- الذهب؟

الفولاذ، النحاس، التنك، الحديد الصلب، مفرداتٌ بوسع مشاعره التقاطها، باستثناء الذهب، فالتقويم الصحيح لزمن جاد الحق جاد الله لم يتعرّف على هكذا معدن، غير أن ما لفتهُ، هو أنه جحش فعلاً، وللتدليل على جحشنته، استدرك أن ثمّة كنزاً ما مختبئاً بين مقتنيات عمره، وكفن يسعى إلى حتفه، نهض مردّداً:

- عزرا..

وهو يتصفّح المخطوطات التي أودعها عزرا، استعاد بحوثاً لآثاريين شديدي النباهة، خطّوا بكتاباتهم تاريخ حضاراتٍ، غرقت في محنها، ميتاتُ رجالٍ، يُطلقون نبالهم ورماحهم، ويستلّون سيوفاً من فولاذ، بنصال من ذهب، ولم يكن ثمّة ما شغله أكثر من انشغاله بخانق الذئب، ذاك المسحوق الشخري الشقي القاتل، وقد اندسّ في أنوف رجال شجعان، يستنشقونه دون أن يخطئ في قتلهم.

استعاد جاد الله ضحكات جنرالات عزّ الدين الحكيم، وكانوا يكزّرون مدائحهم لحبوب الفحم، وفاعليتها العجيبة، ويحثّون جاد الحق جاد الله على المزيد من التأكيد على جدواها، وباتوا يكزّرون دعواتهم إليه؛ ليكون واحداً من جلاّسهم واقفاً؛ ليكزّر ما بدا بالنسبة إليه إهانة أكبر ممّا يحتمل، ودون أن تنقطع زياراته لجورجيت، كان يصغي إليها، وهي تعيد التأكيد على مسامعه أن والدها وقد اقتنى ثمانين امرأة، من بينهنّ والدة عزّ الدين الحكيم، وثلّة من قريبات عزّ الدين النابغات في رسم ثنايا الأرداف على الشكل الذي يرغبه والدها، وكانت تنثر حبيبات الهيروين الناعمة؛ لتستنشق جرعة صغيرة مضافة، تتلوها بفرك أنفها، ومن بعدها؛ تصمت، أو تتداعى، أو تتحوّل إلى تلّة من حجر، دون أن تكفّ عن فرك أنفها.

إنه الهيرو، قالت لجاد الحق جاد الله مختصرة اسم النبات الشخري

القدس، وهذه بعلبك، تستأهل قصيدة عظيمة منك، أرض الأفيون، والحشيش، هيا، انهض واكتب، وكلّما تداعت أكثر تحكي طرق التوصيل العظيمة التي تجتاز بها الحدود، ووراءها سيارة مرافقة، من قوّات عسكرية، وضعت يدها على لبنان ما بعد الحرب الأهلية:

- إن هذه البودرة البيضاء تقطع حواجز، وتمز على ألف رأس من رؤوس ضباط الجمارك المليئة بالخراء؛ لتصل إلى هنا. وأشارت إلى أنفها.

فتحت راحة يدها المضمومة على ورقة القصدير، وبهدوء وحذر، أعادت ورق القصدير إلى طاولة الوسط.

ليس الأمر على هذا النحو فقط، ففي الحقيقة، كان نوّاب ووزراء ورجال أعمال تحت طلبه، وكانوا جاهزين لكلّ ما يأمرهم به عزّ الدين الحكيم، فيأتونه محفلين بالسيجار الفاخر الملفوف على أفخاذ نساء كوبيات، وويسكي معشق بإعلانات فاخرة، ونبيذ، وكونياك، وحتى العرق اللبناني الذي كان من بين حمولات السيارات التي تقطع الحدود على الخط العسكري دون أن يجرؤ أيّ من حرس الحدود وجماركها حتى على مجرّد النظر إلى ما تنقله تلك السيارات، ووراء مقاودها رجال، يقبعون خلف زجاج معتم، مشدودين إلى مقاعدهم، باعتبارهم من الشخصيات الخالدة، وبالمناسبة، سيحمل جاد الحق جاد الله بعضاً من هداياهم؛ ليوصلها إلى جورجيت، بأوامر من عزّ الدين الحكيم، الذي كان قد خصص لجاد الحق جاد الله سيارة لادا روسية الصنع، بهيكل محطم، ولكن؛ بماكينة لم تزل صالحة للعمل.

ما إن نهض صبيحة اليوم التالي متجهاً إلى البزورية، حتى كانت العاصمة قد اندفعت متفحصة احتياجات مطابخها، فالزنجبيل وزهر الليمون كما الكمّون والقرفة، نباتات نثرت عطورها على طول السوق وعرضه، وثمة امرأة كانت تبحث عن الحنّاء؛ لتعيد إلى شعرها بريقاً، محاه الزمن، وأضاعه الاستحمام بالماء المكلّس، وحين وقف جاد الحق جاد الله إلى جانبها؛ ليسأل البائع إن كان يعرف نبتة، اسمها خانق الذئب، التفتت إليه المرأة مبتسمة، وكأنما تلتقيه للمرة الألف في حياتها، طالبة منه أن يوضح لها قدرة هذه النبتة على معالجة سوء التروية، وانسداد الشرايين الدقيقة.

أجابها جاد الحق جاد الله بأنها نبتة نافعة، وألحّ على البائع قائلاً:

- كيف سيكون بوسعي الحصول عليها؟

العطارون، مشافي الفقراء والمعوزين، وبيان صحتهم، لم يقتنوا أبداً هذه النبتة، وليس بالوسع أن يتعرفوا على الجبال الشاهقة التي تبتدعها من بين صخورها، ومع ذلك، سيكون لفضول العطار أقدام تسعى، وحين تواعد جاد الحق مع العطار على توقيت عودته مجدداً، واستكمل طريقه سيراً على الأقدام باتجاه حي الأمين، وجد جاد الحق قلبه يسبقه إلى نافذة آنـا؛ ليقف مجدداً تحت نافذتها، فيما أطلّت امرأة بالغة السمنة، تتدلى بثدييها من النافذة، وتلتفت إلى الخلف شاتمةً معتقدات زوجها، متابعةً نشر غسيل ما يزال متسخاً، وثدياها يتأرجحان أمامها.

حربان اجتاحتا المنطقة، كانت الأولى حرب أكتوبر، والثانية الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ومع كلّ حرب، كانت المسافة ما بينه وبين آنـا تبتعد أكثر، لم يكن هنالك ما يكفي من الخطى للوصول إليها، ولم يكن بوسعه معرفة حقيقة ما آلت إليه مشاعرها، ولا سعة خزان ذاكرتها، غير أن صوتها ما يزال يصله، ولم يكن يعلم أنها باتت وحيدة وصامتة ما بعد موت عزرا، صمتٌ حلّ بجسدها، وكأنه قطعة مخلوقة مع ذلك الجسد، تُضاف إلى عينيها، وقلبها، ورئتيها، وأصابعها الخلاقة التي ما تزال متمردة على ذلك الصمت، وهي تضرب أصابع البيانو، وسط زبائن بارها، دون أن تلتفت إلى أيٍّ من المعاكسات التي تأتيها من يهودي عراقي، ما يزال مهووساً ببغداد ونخيلها، شاتماً دولة الوعد التي كذبت في وعدها، راجياً من آنـــا أن تعزف له أغاني منسية من غناء عراقي، مريع، ممتدّ في الحزن، ليس بالوسع أن يكون منسيّاً.

لن تطلّ آنـــا من النافذة، ولم يكن راغباً في أن يصاب بيقين غيابها، فاليقين يعني الموت، والاحتمال يعني إزاحته، والمسافة ما بين حي الأمين والقصر العدلي؛ حيث ركن سيارته اللادا، بدت أطول وأكثر مشقة مما تحمل قدماه المتعبتان وحدبته المتضخمة، وكانت السلطات قد نشرت شعاراتها الثورية فوق واجهات الأبنية، موطّدة حب الزعيم الخالد، بالإضافة إلى شعارات، ابتدعتها مخيلة جاد الحق جاد الله، وكان أكثرها فتنةً شعارٌ معلّقٌ فوق واجهة فندق صغير، يسمى فندق الاستراحة، كُتب فيه:" اليد العليا هي اليد المنتجة في دولة البعث"، حين توقف؛ ليقرأ مستعيداً شيئاً من الثقة بنفسه، تقدم منه شاب صغير السن، يرتدي بنطالاً أسوداً، وقميصاً أسوداً، محاطاً بحزام أبيض، ويرتدي حذاء أبيض، ليقول له:

- هل ترغب باستراحة؟

قال ذلك، وأشار بيده إلى غرفة السطح في الفندق، وأكد على جاد الحق جاد الله:" بنات جميلات، صغيرات السّن، لم يركبهن أحد.. نصيحة".

وهو يصعد درج الفندق باتجاه غرفة السطح، كانت روائح الخوف والسأم تنبعث مع تيار الهواء، ولم يكن الفضول ولا ضحكات الصبي يقلّلان من وطأة مخاوفه، وما إن وصل غرفة السطح، حتى أدخله الصبي إلى الغرفة؛ ليتركه في وحدة بدت أطول مما يمكن احتماله، وبعدها، دخلت البنت الأولى، بحروق فوق ساعدها الأيمن، وقد ارتدت شلحة كاشفة دون أن تخبئ شيئاً مما تبقّى من جسدها، وما إن خرجت حتى دخلت البنت الثانية، وعلى الرغم من جمال جسدها اليانع، كانت بعين واحدة، وكانت الأخرى من زجاج، ثم دخلت إليه بنتان جديدتان، كانت واحدة منهن تحمل طفلاً فوق ذراعها، وترضعه، وكانت أكثرهن جمالاً، وخدراً، وما إن هم بالخروج حتى خاطبه الصبي قائلاً:" أ لم تعجبك، ولا واحدة منهن؟".

كان الصبي شديد اللطف، وعلى غاية من اللياقة، ولم يكن يسعى إلى قسر جاد الحق جاد الله على أن يفعل ما لايشاء فعله، غير أنه وقد رأى جاد الحق جاد الله مُجهداً، قال له:

- تعال.. استرح في الصالة، سأجلب لك الشاي، قد تغير رأيك، ولا تخرج من هنا دون أن تُجرّب، ثم مد يده إلى جاد الحق جاد الله بواقٍ جنسي؛ ليقول له:

- انفخه، إن شئت، ولكن؛ حذاري أن ترتديه من رأسك.. إنه يخنق.

كان تلفزيون فندق الاستراحة يعيد بث خطبٍ لزعيم الأمة لمناسبة ذكرى انتصاراته في الحرب، وكان آلافٌ من البشر يهتفون باسمه، بناتٌ بملابس موحدة، وشبابٌ يقدمون عروضاً مدروسة على أنغام مارشات عسكرية، ومجموعةٌ كبيرة من قيادات الصف الأول في البلاد تجلس إلى جانب الزعيم في استاد العباسيين الواسع، ناظرين بعيون ذاهلة إلى زعيمهم، وكان عزّ الدين الحكيم يجلس في المقعد الرابع على يمين الرئيس، وبنظرات شغوفة، لم يرفع فيها عينيه عن زعيمه أبداً، وفيما كان صبي الفندق يتطلّع بنظرات غير مبالية إلى جاد الحق جاد الله، وجاد الحق جاد الله يُحدّق بالشاشة، دخل رجلٌ بالغ الأناقة آمراً، ناهراً الصبي، متسائلاً:

- ما الذي تفعله هنا؟

إنه وارث أسنان أمه، نعم، إنه هو، وكلّ ما تغير فيه، أن زرع سنين ذهبيين فوق طقم أسنانه، واحد في نابه الأيمن، والثاني في نابه الأيسر، وكان يرتدي بذلة فضفاضة قليلاً، ويصبغ شعره بلون أسود شديد القتامة، وقد أخذ ملقط الشعر من حاجبيه ما أخذ.

وقف جاد الحق جاد الله متسائلاً، وحين تنبه الوارث إلى جاد الحق جاد الله قال له:

- أية خدمة، يا أخ؟

- ألست أنت..

أجاب مقاطعاً: "أنا لست أنا"، ثم تصلّب أمام الشاشة متابعاً العرض الذي يجمع الأمة، وكان وارث أسنان أمه يستغرق في مشاهدة التلفاز، فيما صبي آخر من صبيان الفندق يتقدم منه؛ ليهمس له كلاماً، لم يسمعه جاد الحق جاد الله، وقد عاد مجدداً؛ ليسأله:

- أ لست...

- ومن أنت؟ أجابه الوارث.

- أنا جاد الحق جاد الله

- ابن زمزدة؟ قال له الوارث بعد أن تفرّس في وجهه.

- نعم... أنا.

ربت وارث أسنان أمه فوق كتف جاد الحق جاد الله؛ ليقول له:

- بلّغها سلامي، وقل لها إن كانت راغبة في الشغل، فلتأت، وتشتغل عندي.

ذاكرة الخزي، ستكون أكثر ضغطاً على جاد الحق جاد الله، وهو يتطلّع إلى وجه الوارث وشاربيه المقلّمين، ولكن الوارث، وقد تجاوز أيامه الخالية في بيع أوراق اليانصيب منتهية المدة، بات اليوم مالك زرائب عجول، وها هو ذا مالك لفندق الاستراحة كذلك، ولديه متسع من العلاقات مع شخصيات نافذة، وأكثر من ذلك له سنان ذهبيان، يحطان فوق نابيه الصناعيين، وثمة من يعرف أن باتت له زوجات متعددات، يزدن عن ثمانية،

- ما الذي تفعله هنا؟

إنه وارث أسنان أمه، نعم، إنه هو، وكلّ ما تغير فيه، أن زرع سنين ذهبيين فوق طقم أسنانه، واحد في نابه الأيمن، والثاني في نابه الأيسر، وكان يرتدي بذلة فضفاضة قليلاً، ويصبغ شعره بلون أسود شديد القتامة، وقد أخذ ملقط الشعر من حاجبيه ما أخذ.

وقف جاد الحق جاد الله متسائلاً، وحين تنبه الوارث إلى جاد الحق جاد الله قال له:

- أيّة خدمة، يا أخ؟

- ألست أنت..

أجاب مقاطعاً: "أنا لست أنا"، ثم تصلّب أمام الشاشة متابعاً العرض الذي يجمع الأمة، وكان وارث أسنان أمه يستغرق في مشاهدة التلفاز، فيما صبي آخر من صبيان الفندق يتقدم منه؛ ليهمس له كلاماً، لم يسمعه جاد الحق جاد الله، وقد عاد مجدداً؛ ليسأله:

- أ لست...

- ومن أنت؟ أجابه الوارث.

- أنا جاد الحق جاد الله

- ابن زمزدة؟ قال له الوارث بعد أن تفرس في وجهه.

- نعم... أنا.

ربت وارث أسنان أمه فوق كتف جاد الحق جاد الله؛ ليقول له:

- بلّغها سلامي، وقل لها إن كانت راغبة في الشغل، فلتأت، وتشتغل عندي.

ذاكرة الخزي، ستكون أكثر ضغطاً على جاد الحق جاد الله، وهو يتطلّع إلى وجه الوارث وشاربيه المقلّمين، ولكن الوارث، وقد تجاوز أيامه الخالية في بيع أوراق اليانصيب منتهية المدة، بات اليوم مالك زرائب عجول، وها هو ذا مالك لفندق الاستراحة كذلك، ولديه متسع من العلاقات مع شخصيات نافذة، وأكثر من ذلك له سنان ذهبيان، يحظان فوق نابيه الصناعيين، وثمة من يعرف أن باتت له زوجات متعددات، يزدن عن ثمانية،

بعقود زواج صورية، ويتوزعن على شقق مفروشة ما بين المزة ومساكن برزة، وبالقرب من جامع الإيمان في منطقة المزرعة، كما يرتبط بعلاقة متينة مع سائق عز الدين الحكيم الشخصي وكاتم أسراره، ولهذا فقد رفع يافطات اتحاد العقال فوق واجهة فندقه؛ ليوظد بذلك وفاء عقائدياً لرجل المرحلة المقبل، الذي تتناثر أحاديث كثيرة حول احتمال صعوده نحو القمة، بموافقةٍ من كبار جنرالات الجيش الذين لا يفوتهم يومٌ دون زيارة مكاتبه المقابلة لفندق ميرديان دمشق؛ ليجلسوا مجتمعين إلى زجاج نوافذ المكتب، مطلّين على مسابح الميريديان؛ حيث نساء عاريات، يتلألأن بملابس بخر، وهنّ يغطسن في أحواض السباحة، ثم يخرجن للاستلقاء قاطفات من الشمس ألوان بشراتهن المحترقة، وسط تنهيدات الجنرالات، وقد انضم إليهم وزير الصناعة، ذي المزاج اليساري، المشكك على الدوام في صلاحية قطاع الدولة لقيادة الدولة، والساعي على الدوام لإقناع اتحاد العقال بالكفاح ضد الخصخصة، فقطاع الدولة ليس خاسراً بماهيته، وكان الجنرالات الكبار قد أضافوا الوزير إلى مسرح الكوميديا، مؤكدين بهمساتهم أن حبوب الفحم ستكون أكثر فاعلية مع الوزير الضاحك، من فاعليتها مع جاد الحق جاد الله، فقد انتهت صلاحية جاد الحق جاد الله لصناعة الضحك، وكانت جورجيت أعادته طاوية قرار إنهاء خدمتة، بعد أن هتفت لعز الدين الحكيم، راجية من عز الدين أن يكون صدره أكثر سعة.

كان الطريق طويلاً من بوابة القصر العدلي المواجه لفندق الاستراحة إلى شكنه، ولم يكن جاد الحق جاد الله، وهو يتشبث بمقود سيارته، قادراً على التحكم بمقودها، ما أدى إلى اصطدامه بعنزة، نفرت من مرعاها في حديقة منصفة للشارع، وحين توقّف مفرملاً، نزل من السيارة، ورفعها إلى الصندوق، ووضعها به، عازماً على أن يستمر في رحلته إلى بيته؛ ليشوي العنزة، كان يردد قائلاً لزوجته ياسمينة:

- خانق الذئب، هل تعرفينه؟

لم يفتها موعد زيارة قبره، فصبيحة اليوم، ذهبت زمزدة إلى بائع الورود، وطلبت منه ترتيب ضفة ورد بألوان مختلفة، يغلب عليها الأبيض، وأضافت طالبة ربط ضفتها بشريط حرير، ثبتت فوقه حبة لؤلؤ، ومضت إلى حيث ينام قتيبة في قيلولته الخالدة، وكانت زمزدة واظبت على هذا التقليد منذ سنوات خَلَت، وفي كلّ زياراتها السنوية لقبره، كانت تحكي له وقائع سنة كاملة، ولم تكن في عامها هذا أقلّ بوحاً من سنواتها الفائتة، وقد غلبها حس اليأس من أن تُنجب لجبرا طفلاً؛ ليصبح حصناً لسلالةٍ، كان جبرا أحوج مخلوق إليها، وهو يتنفس إلى جانبها محفوفاً بسنوات عمر وضعته على حافة شيخوخة، تطرق بابه، قالت لقتيبة إن رحمها ليس قابلاً لهكذا رغبة متطلّبة، وشكت إليه الوقت، ورجته أن يتدخل في ما لا يقدر على التدخل به، علّه يحاور المستحيل، فيرضى المستحيل عنها، وحين نهضت، وقد غسلت قبر قتيبة، تابعت طريقها إلى خفارة جبرا، شاقة طريقها بين فتية يانعين، يرتدون ألواناً راقصة، ويطيرون البالونات في ساحة باب توما المفتوحة على الطريق المبلّط، وما إن حاذرت في مشيتها ملتصقة بالحائط، حتى تدرّجت قدماها ببطء وصولاً إلى باب الخفارة.

بدت زمزدة وكأنها في رحلة رجاء ووداع، وهي تتأمل الأشياء والأماكن، المارة والمتسكعين، البنات الجامحات والنساء اللامعات، وحتى الكلاب المنزلية التي عبرت من أمامها، أو عبرتها، بدت وكأنها ستراهم للمرة الأخيرة، كان الموت يُمارس فوضاه وابتزازه معاً، وكان حس الأمومة قد توطد فيها، فأعيتها رغبتها في ضم جميع المارة إلى صدرها، حتى إنها تقدمت من رجل مُسن؛ لتخبره أنها من مواليد الليلة، وأنّ شهيتها لتكون أماً قد وُلدت معها، ولم يكن بوسع الرجل العجوز سوى أن يبتسم، وقد ضاعفت ابتسامته من حفر غمازتيه المولودتين مع خديه بالغي القدم.

قالت له، دون أن تنسى التأكيد بأن جبرا يستحق أن يكون أباً.

- وحق يسوع وروح محمد، من حق جبرا أن يكون أباً.

ضاعف قسمها حفرة غمازتي الرجل العجوز الذي أجابها:

- تقسمين بالاثنين معاً؟ وكان سؤاله بمثابة تعبير عن امتنان لامرأة حائرة في دينها.

صلّب الرجل فوق صدره، ومضى يتطلّع إلى خطواتها المتأرجحة، وهي تبتعد... كان جسدها منهكاً، وكان الإعياء قد كاد لها، وكانت تتلفت كمن يستطلع الطريق، أو كمن يودّعه.

باب الخفارة، كان باباً خشبياً بعروق واضحة على مساحاته، ولم تكن الستائر الشفافة التي تحجب من في الداخل، لتحجب وجه جبرا عنها، وحين فتحت الباب، ودخلت، نظر جبرا بعينين مبتسمتين إليها، ونهض من وراء البار، وأمسك يدها، ثم أجلسها على مقعده، وهو يعرّفها بضيفيه الاثنين، ضيفيه اللّذين لم يكن يعرف اسميهما حين ناما في هذه الخفارة منذ سنوات خلت، وها هما اليوم يعرّفانه باسميهما:" فاتح وشهاب"، وحين تنبهت لضرورة مصافحتهما، قال لها:

- هذا فاتح، خرج من السجن توّاً، لقد عثر في السجن على بطانية تدفئه أكثر من بطانيتنا وبر الجمل.

ضحك فاتح، وقال لجبرا إنه ما من حبة مطر بوسعها أن تعترف بأنها سبب في طوفان جارف، واستدار إلى زمزدة ليقول لها بأن لقاءه الأول والوحيد، بزوجها كان سبباً لاستمراره على قيد الحياة، وأن هذا الرجل - مشيراً إلى جبرا - واحداً ممن يورّطوننا بالعيش، وإلاّ :"كيف بوسع رجل اندمل في حفرة لسبع سنين متوالية أن يبقى حياً؟ ها؟ أجيبيني بربّكِ، إنه هو من أجبرني على العيش، فلقد أقسمتُ أن لا أموت قبل أن آتي إليه، وأقول له وداعاً، يا جبرا، وها أنذا جئت لأودّعه، غير أنني مرغم أن أقول لك، إنني جائع، وإنني أبحث عن لقمة برغل بالحمص، وإنك أنت من سيطبخها لي، ولا أحد سواك".

لم تكن تعرف، ولا جبرا كان يعرف أن فاتح شاعرٌ يرقّص اللغة، وحين بادرها بقصيدة تحكي عن اختلاجات الولادة، تلون وجهها خجلاً، وضمها جبرا إلى صدره؛ ليقول لها، إن الشعر، والغناء، والرقص، والموسيقى، وكلّ طقوس القلب لا تصلح، إن لم تكن لها، وإن فاتح كتب قصيدته هذه إليها وحدها، وكلّ الشعراء كتبوا قصائدهم إليها أيضاً، و:

- أنت مثل الأرض، يا زمزدة.. لا، أنت الأرض.. أنت المكان.

لم تلتفت زمزدة إلى كلمة الأرض، ولم تحاول أن تتساءل عمّا يقصده

جبرا من تكرار قوله هذا، ولكنها التفتت إليه متسائلة:

- ستتعشون برغل بالحمص.. ها؟ بعد قليل، سيكون العشاء جاهزاً.

إعداد الطعام يعني العائلة، الأب، والأولاد، لهفة انتظار المائدة، ومع أبخرة آنية الطهي، كانت زمزدة تحلم بالعائلة، بالأولاد، بـ:

- الولادة؟ وهل ما تزال ممكنة؟ حبَل، إنجاب، إرضاع من ثدي غزير الإدرار، وانتظار طفل ينطق بأول حرف من عمرها سيأتي.

أعادت السؤال، وكررته مئة وألف مرة، وكانت عازمة أن تقول لجبرا اذهب، وتزوج، وأنا سأنتقي لك زوجة مُنجبة، وأعادت الكلام مئةً وألف مرة ثانية، وفي كلّ مرة، كانت تتوقّف؛ لتسند ظهرها على الحائط، كان ذلك في المشفى الفرنسي، وكانت قد أخفت عن جبرا حقيقة ورم في ثديها الأيمن، وحين توقّفت أمام الجرّاح الشهير رسمي دخل الله، أنبأها بأن العملية ستستلزم تجريفاً كاملاً، وأنها ستغدو امرأة بلا ثدي أيمن، ولم يكن عليها سوى أن تجيبه:

- لست مُرضِعاً، جزّه.

انتهت زمزدة من إعداد الطعام، ووضعت فوق المائدة صحوناً ثلاثاً، وملاعق ثلاثاً، ومناديل ثلاثةً، ووردة واحدة، ثم نزعت رداء المطبخ؛ لترتدي فستاناً موَرداً، وجففت دموعها مزيلةً لون الكحل الذي غطى خديها، ثم أعادت تزيين وجهها، وهي تتأمل عينيها بعد أن استبدلت بنظارتها القديمة واحدةً جديدة، ثم رفعت شعرها بعقصة إلى الخلف، ودبّوس يحمل وردةً بالغة الصغر، وجلست تصغي إلى أصوات الخارج، بانتظار وصول زوجها وضيفه، وحال أن سمعت طرقات خفيفة فوق الباب، نهضت بهدوء؛ لتفتح الباب، وكان فاتح يبتسم ابتسامة، لا تخلو من روح احتفالية، ثم بادر إلى التأكيد على أنه ما يزال محتفظاً بحاسة الشم بعد سنوات السجن التي تُبدّل حواسنا؛ لتأخذ منها، وتضيف عليها، و:"مع ذلك، تبقى حواسنا خمسة" قال لها، مؤكداً، أنّ حواسه الآن هي:" زُمزدة وزُمزدة وزُمزدة وزُمزدة، أما الحاسة الخامسة؛ فهي البرغل بالحمص"، ولم تكن ابتسامتها الهادئة تعني انعدام الاستجابة لفاتح، بقدر ماكانت زُمزدة منقسمة بين أخبار المشفى وبين واجب حسن الضيافة، وليس على زُمزدة أن تبوح لجبرا بأوجاعها، فخط الاتصال مع وجعها يُنذره بأن ثمة شيئاً ما تحمله الزوجة، ما دفعه إلى اللحاق بها إلى المطبخ؛ ليقول لها، إن تفريغ

الروح من آلامها يستوجب أن تبوح الروح بما تحمل، ولم تكن قادرة سوى أن تقول:

- حسناً، سأكون حزينة، إن لم تأكل صحنك بكامله.

وحين قرأت نظراته المتشككة، المتفحصة لما يختبئ وراء ابتسامتها، قالت له:

- جبرا، ما تزال شاباً ووسيماً، سأبحث لك عن زوجة.

حين عادا من المطبخ، لم يكن بوسع جبرا أن يداري ألمه، وكانت سفنه قد أضاعت المكان الذي عليها أن تلقي مرساتها فيه، وحين جلس متوجهاً بسؤال إلى فاتح، إن كان على الإنسان أن يخرج من معضلة عقله، ويتجزد من هواجس المستقبل؛ ليعيش اللحظة كما هي دون وضع شروط على حياته، أجابه فاتح بأن علينا أن نغير شروط الحياة ذاتها، وأن نغير اللحظة، فإرادتنا ليست مستقلة عن الزمن، وبدا على فاتح أنه سيأخذ السؤال نحو اتجاه آخر، ويستبدل بإرادة المتعة إرادة الحرب، وقد أكد أن شرط الوعي مقترن بشرط الظرف، وعلينا تغيير الظرف، ولهذا ذهب إلى استحضار تجارب بلا أمل، غير أنها سجلت وعياً جديداً للحياة الإنسانية، وبغبطة بالغة، تحدث عن الثورة الدائمة، مستحضراً حياة ليون تروتسكي ومنفاه، وجنح لحديث عن سجنه، وعن تلك الآمال التي زحفت عليه في وحدته، ولم يكن يبالي بصحنه الممتلئ، ما جعل زُمزدة تشير عليه بنوع من التمني أن يتابع حديثه بعد تناول طعامه، وكانت ترتفع عن دورة زمن اللحظة، وقد ذهب عقلها إلى غرفة الجراحة؛ حيث الطبيب المخدر، وطاقم التمريض يجهزون المريضة لاستئصال ثديها.

بعد مغادرة فاتح، أعاد جبرا عليها السؤال، قال لها إن لحظات حياته معها تساوي أضعاف مسيرة عمره كله، وبناء على ذلك، ليس من حقها أن تعزله عن آلامها، وكرر:

- قولي لي، احكي.. ما السر؟

ما إن استلقت إلى جانبه في الفراش، ممددة جسدها بشكل عرضاني، حتى قالت له:

- كم امرأة عرفت في حياتك كلها؟

- امرأة واحدة.

- لا.. قل لي.

- واحدة.. هي المرأة المتمددة إلى جانبي الآن، والتي تلصق رأسي برأسها مبعدة جسدها عن جسدي.

- والعشرات اللواتي كنتَ تستفرد بهنّ في خرابات الضبارة؟

- المرأة التي عرفتُها هي التي مكثت في قلبي.. الخارجات منه منسيات.

الضبارة؟ كزرت زمزدة، ولم تكن تتخيل متاهة الصفيح والجزافات، وهي تهز الحي، فيما شظايا عائلات تتناثر مع أحمالها مغادرة المكان، نحو مساحات مجهولة جديدة، سيستوطنها بشر منتهكون، يتسربون حاملين حيرتهم، آملين أن ينصهروا في أماكنهم القصية، بعد أن طردتهم العاصمة إلى أطرافها، وسط إشاعات تقول بأنهم مجرد جماعات من المحتالين، واللصوص، وأكباش الفداء؛ ليعودوا ثانيةً إلى طور الولادة، طاردين أطفالهم إلى أرصفة بوابة سينما دمشق، ورصيف ساحة المحافظة، وحوافّ نهر بردى، ويتشكلوا على هيئة صفوف من المخبرين السّزئين، وماسحي الأحذية، والمتسوّلين الضاحكين الذين ينتزعون أكمام المارّة، ويخترقون جيوبهم، ومع كلّ ولادة طفل بينهم، يولد يتيم.

لم تكن زمزدة تعرف عن مصير الحي إلاّ افتقادها لفرنسا، وتركها ابنها بالتبني لمصيره، ولم تكن لتنسى أنها كلّما خطت من أمام جبرا، تنكّس نظراتها إلى الأرض مستنجدة بالتراب راجية أن لا تقع تحت سلطانه، وهو رجل موصوف باستهلاك النساء، وها هو - الآن - يتمدّد إلى جانبها ملامساً شعرها بأصابعه، ويستدعي النوم، وكأنه سيذهب إليه مغادراً يقظة القرن العشرين، وقد حطّت عليه آلام زمزدة، وبات يعرف أنها ستكون بعد ساعات تحت مبضع جرّاحها النهم.

قبل أن يوقظها، رتّب لها قميص نوم وردياً، لونها المفضل على الدوام، ومرآتها، وغياراتها الداخلية، ومنشفتين، وفرشاة أسنان، وخفّاً من القماش، وأدوات زينتها، وحال أن فتحت عينيها، قبلها، كما لم يحدث من قبل، ثم رفعها عن الفراش؛ ليقول لها إنها ستعود إليه، وما إن استكملت ارتداء ثيابها حتى خرجا متجهين إلى المشفى الفرنسي.

في الطريق إلى المشفى، قالت له: أريد أن أراه.

- من؟

- جاد الحق جاد الله.

ثم صمتت طويلاً؛ لتقول:

- ولي طلب آخر... إذا خرجث من المشفى حية، ستأخذني إلى الروبير.

بدت وهي متطلّبة على هذا النحو، وكأنها مستجدة على التطلّب، فلم يسبق أن طلبت أياً من الطلبات التي يمكن أن تساور امرأة، وكان طلبها زيارة الروبير، بمثابة سؤال بالنسبة لجبرا أكثر مما هو صدمة، يمكن لرجل أن يتلقاها من زوجته، وهي تبدي رغبتها في زيارة كرخانة، وحين جلسا في غرفة المريض، ذهبت زمزدة في هذيان، ظهر لجبرا وكأنه رسالة مجهزة لاستقبال الموت، وكانت تحكي دون توقُف، وبمرح، مستعدة لمجابهة الصراع مع الموت بروح شابة، تومض بدعابات صبيان، وكانت تقول له إنها تعرفت على قتيبة، ومن عتبته، خرجت إلى حياة جديدة، ومن الحياة الجديدة، باتت تعرف أسرار الآلهة، وسر الإنجاز الآدمي، وأكدت لجبرا أنها تعرف اللغة الفرنسية والإنكليزية، وأنها سيدة مخملية، وأنها تقرأ اللوحات الزيتية والألوان، وأخبرته بلذة الاكتشاف، أنها تعرفت إلى ما وراء الجسد، وأنها قرأت - فيما قرأت - عشرات الروايات العالمية، وأنها تعرف أن قتيبة كان نوعاً ثالثاً، وما العيب في ذلك؟ تساءلت، ثم أردفت:" كان سقراط دميماً، وأفلاطون بالغ السمنة، وكان أرسطو مُخنثاً"، وحين توقّفت عربة نقلها إلى غرفة العمليات، قالت لجبرا، وقد امتدت يدها إلى ثديها:

- هل تُصدّق، كنتُ بنتاً بكراً حين نفر الحليب من صدري لإرضاع جاد الحق جاد الله، وكنتُ على علم بأنه قالت من أمه، وقاتلٌ لها، ولن يعيش إلا ليكون قاتلاً لنفسه والآخرين، ولهذا هجرته.. إنَّ هذا الصبي وُلِد ليكون قاتلاً، ومع ذلك أرضعته.. ربما كان ثديي يعاقبني على إرضاعه... ربما.

تساءل جبرا، عن سبب لنبوءة زمزدة، وما الذي دعاها للاعتقاد بأن جاد الحق سيكون قاتلاً، كان إرهاق الماضي قد أخذ من زمزدة ما أخذ، ومع ذلك، تمتمت كلاماً، هو نصف كلام:

- لم يكن يشبع من حليبي، كان يلتهم ثديي، وكلّما رفعتُ فمه عني، وتأملت عينيه، كنتُ أرى فيهما ما يشبه أنياب القطط.

بعد أن دخلت غرفة العمليات، خرج جبرا إلى حديقة المشفى الفرنسي، وقف هناك نُصبٍ نصفيٍ، بدا كما لو كان لكاهن طبيب شاب، وما إن توقّف أمام النصب، حتى تحرّك الصلصال في وجهه، وكان صوته القوي الجارح لا يخلو من نبرة مواساة، وما عليه إلا أن يُصغي إلى صوت الصلصال، وهو ينبئه بأن زمزدة ستعود إليه، وما عليك سوى أن تتمدد فوق العشب، قال له، وأن تغفو، أضاف، وأن تسكن في نفسك، قال الصلصال آمراً، ومن بعدها، عاد الصلصال إلى صلابته، وقد بدا أكثر صرامة من أن تلامسه أصابع جبرا، أو أن يقول له:

- تعال، نلعب لعبة لَي الأذرع؛ لنرى من سيفوز فينا، تعال.

ما إن استلقى جبرا فوق عشب حديقة المشفى، حتى وضع أذنه فوق العشب.. كان يسمع صوت العشب، وهو ينمو، وكانت حيرته بالغة حين تأكّد له، أن للعشب رائحة زُمزدة، وأن لأنفاسه سخونة أنفاسها.

دهشة زمزدة من تفاصيل غرفة العمليات والطاقم الطبي، أتاحت لها أن تستقبل المخدر برضى، لا يشوبه احتجاج، وكان الطبيب الجراح، استغرق في تجريف محيط الكتلة، بما يتجاوز ما يلزم، إلى ما ينبغي فعله، كانت تلك قاعدته في جراحة الكتل السرطانية، وهو المعروف بين الأطباء بأنه يحتاط على الدوام بتوسيع مساحة التجريف، تخوفاً من خلية فالتة هنا أو هناك، ولم يكن يعرف أي شيء عن مريضته سوى اسمها، ونوع الكتلة، ودرجتها، ولم يكن يعلم - كذلك - بأن ثقة ابتاً لها، على صلة بجورجيت، جارته في السَكَن، ولاعبة القمار التي تشارك زوجته هواجسها في لعبة البوكر، وكانت زوجته المحتالة، قد أنفقت عائدات عملياته على موائد القمار؛ لتكون خاسرة على الدوام، وإذا ما كانت للمصادفات أيما قيمة في الحياة، فلن يكون لهكذا معلومة أية قيمة على الإطلاق، بالنسبة إلى زُمزدة، ولا بالنسبة إلى مبضع جزاحها.

تلك الليلة، كانت جورجيت جالسة بمفردها، وسط ألوان عظامها، وقد نفرت من ساعديها ووجهها، وكانت أظافرها مُزرقّة، ووجهها شاحباً مسحوب اللون، وكانت غارقة في عزلة رهيبة، وجدت نفسها فيها منساقةً إلى الإيمان بيسوع المخلّص، محاطة بأضواء الشموع والرسوم المقدسة، ولم تكن قادرة على تشخيص الانهيارات البطيئة في جسدها، فالعطّارون أكثر حرصاً على الوفاء بالوعود، وكان عطّار جاد الحق جاد الله قد وفى بالوعد، وأحضر له خانق الذئب، ولم يتبق على جاد الحق سوى أن يكيل

لها مكيالين من الخانق مع مكيال من الهيروئين؛ ليجلس قبالتها متفحصاً موتها، واستمر على حاله هذا ما يزيد على ساعتين، ساعتين، وهو يتسلل إلى أنفها؛ ليقول لها:

- شمي، وكانت تشم.

كان قد غرس فيها شتلة الموت وسقاها، وكان الموت ينمو سريعاً في جسدها، فتنكمش، وكان جاد الحق يساعد الله، وهو يمسك يدها، ويأمرها بالوثوب إلى نهايتها، وحين وقف وسط شموعها وصورها المقدسة، وهي تحتضر، كان على ثقة بأن ليس ثمة مختبراً طبياً واحداً قادراً على كشف حقيقة موت جورجيت، فقد قتلها من أنفها.

قال لها في لحظة احتضارها:" هذا النوع من الخبث يلائمني تماماً، ستتحدين مع ملائكة عجائز، وستقنعينهم بفاعلية حبوب الفحم"، وما إن حاول تحريك جسدها حتى بدت متصلّبة وباردة، وبدا الفحم، وقد نما فوق عينيها؛ ليدعوها إلى موتها هاتفاً إلى مشفى الهلال الأحمر، طالباً تدخلاً إسعافياً سريعاً، إنقاذاً لروح سيدة الفحم الطيبة.

نعم، كان الموت يطلب من قسم إسعاف المشفى الحضور سريعاً، بعد أن وضع كامل أقدامه في حياة السيدة الفسجاة.

لم تتنبه فيه أيٌ من مشاعر الخوف، أو الحيطة، فلا الفضيلة ساقت نفسها إليه، ولا الرذيلة حضرت لحظة احتضارها، كان جاد الحق يتأمل تبدلات لونها، وكأنه يتابع عملية كيماوية بحتة، بوسع أيٍ من المخبريين تأملها؛ ليستكشف التغيرات الكبرى التي تنقل الإنسان من مركب الأحياء إلى طوافة الموتى، وكان يستمتع أيما استمتاع في غزوه لحقل معرفة، لم يتسنّ له من قبل أن يعبره، حقل احتضار الكائن الآدمي، وهو يزفر آخر لحظاته مع الحياة في طريقه إلى مجهول، لم يسبق أن فكك أحد شيفرته.

يا الله، قال بصوت مرتفع، ثم استدار إلى كتاب مُلقىً إلى جانب جورجيت، وكانت صفحاته مصقولة، وغلافه ساحراً، وما إن فتح الكتاب حتى كتب على صفحته الأولى:" أنت، يا فتاتي العجوز التي ماتت جائعة.. إنه الجنون.. الجنون.. هذا هو الموت، ولستُ أكنّ أيّ احترام لمشاعر الموت هذا"، ثم رمى الكتاب بعيداً عنه وعنها.

كما العادة، كانت سيارات الإسعاف تتأخر على الدوام، كما حال اللحظة، وهو يتكوّر في كرسي مشفى المجتهد، وصافرات الإسعاف تأكل أذنيه؛

ليعود حرّاس المشفى إلى ياسمينة مؤكدين عليها أن تخرج زبالتها من الساحة، وقد امتلأت الساحة بالجثث، وكانت دمشق تُقصف بالطيران الحربي والسيارات المفخخة المنسوب تفجيرها إلى تنظيم القاعدة، وجبهة النصرة، تتوزّع على كلّ المناطق، وناصيات الشوارع ومفارق الأزقّة، كانت المجزرة تتلو مجزرة؛ لتتناثر الأشلاء الآدمية، وتُبدد أية قيمة للأحياء، فيما روائح الدم تنتشر في الحروق والحلوق، وتتسرّب إلى العيون، ناشرة دمعاً جارحاً بين متفرجين بُلهاء، يهرعون حاملين جثثهم من مكان إلى مكان لاهثين وراءها في محاولات يائسة للفرار، من موت يطاردهم.

حين استفاقت زُمردة من غيبوبة المخدر بين ممرضات الطبقة الثانية من المشفى الفرنسي، تساءلت إن كان ثمة من عثر على جاد الحق جاد الله.. ضمّها جبرا إلى قلبه، وهو يقول لها:

- ستعثر عليه.

كان جسدها يتنفس، وكانت رائحة العشب الندي قد توزّعت ما بين شعرها وأنفاسها.. كان جبرا يصغي إلى همسات جسدها، كما طفل، وهو يركض وراء أمّه، وقد سبقته خطوة واحدة نحو ميعاد مجهول، يخاله الطفل أرجوحة.

وكان جاد الحق جاد الله يقف على نافذته من اتحاد العمال، يطلّ منها باتجاه مسبح فندق الميريديان؛ حيث السابحات الفاتنات من بنات الطبقات المرتفعة، يتمددن تحت مظلاتهنّ متحاشيات لهيب شمس حارقة.

مأتم جورجيت اتخذ مساراً بالغ الأهمية، فقد تقدمته أكاليل ورود من مجموع مريدي عز الدين الحكيم، ومن الوكالة الوطنية للأنباء، ومن اتحاد الكتّاب والأدباء، كما تقدمته فرقة كنسية، تعزف نشيد الموت، وعنونت جميع الصحف الحكومية على صفحتها الأولى موت الكاتبة والأديبة، كما لو أن الموت لن يُخمدها.

أخذت الجنازة مسارها بين بشر ممزقين، مترفي المظهر، وكان شبح جاد الحق جاد الله يمشي محاذياً للجنازة، وحدبته تأخذ مساحة أكبر مما كانت عليه بالأمس، ولم يكن أحد من الجنازين قد تنبه إلى إبهام الجثة المقطوع، سوى جاد الحق جاد الله نفسه، وقد مضى إلى الدفن، صامتاً، مطأطأ الرأس، حريصاً أن يتجوّل بعينيه، وهو يرتطم بأكتاف، ترتطم بأكتاف أخرى.

لم ينزّ إبهامها دماً فوق سريرها، ولم يتنبّه أحد إلى مقص العشب، وقد ألقي من نافذتها دون تحسب من ارتطامه بالرصيف، وكان زبال الحي وشاهد فجره، عثر على المقص، وأضافه إلى مقتنياته الأسبوعية التي يبيعها يوم الجمعة في سوق اللصوص، وهو ينظر باتجاه نافذة جورجيت، النافذة التي غالباً ماكان ليلها مزدحماً قبل سنوات، بضيوف، يستقلّون سيارات فاخرة، ويحدثون ضجيجاً حين يغادرون بيتها، وقد بات بيتاً شبه مهجور خلال السنتين الفائتتين، لا يصعد إليه سوى جاد الحق جاد الله، وفي أحيان أخرى، السائق الشخصي لعزّ الدين الحكيم، وكانا يهبطان نحو البوّابة الخارجية، واحد منهما محدودب، والثاني لا يعدو عن كونه ينظر باشمئزاز إلى عربة الزبالة؛ ليصعد إلى سيارته، ثم يقلع مغادراً باستخفاف.

كان بيت جورجيت كهفاً ممتلئاً بالأسرار، أمّا قطعان الزجال المرموقين؛ فقد كانوا مبعثاً لتساؤلات الجيرة والمحيط، فما من أحد يجرؤ أن يسألهم عن هوياتهم، ولا أحد يجرؤ على النظر إلى ستائر نوافذها، وهي تُغلق، فيما خدمها يروحون ويجيؤون إلى المطاعم القريبة محمّلين بصواني الطعام، ولم يكن هجرهم لبيتها سوى سؤال يتردد عند نساء الجيرة، وأزواجهن،

وكان الجميع يجيب عن تساؤلاته بتساؤلات، فمنهم من اعتقد أن راياتها نُكست ما بعد نفي رفعت الأسد عن البلاد، وبعضهم اعتقد أن مسؤولياتها انتزعت من بين يديها، وذهب بعضٌ إلى القول إن الصبايا اليانعات احتللنَ قلوب رجال المال والسلطة، ولم يبق لجورجيت الكهلة مكانٌ، فعلى الكهولة أن تخجل من نفسها، وتفسح مكاناً للصبا، وثمة من ذهب إلى الصمت بعد أن خلا بيتها من الخدم تماماً، وباتت تنشر كلاسينها بيديها، وكذلك شراشفها، وسط شماتة صريحة من نساء، يتفن إلى الفوز بما فازت به جورجيت في حياتها الطويلة الفائتة.

في مكتب عز الدين الحكيم، كان الصمت يغالب السؤال، ولم يكن على عز الدين الحكيم التكتم على حزنه، فالمرحومة كانت:" أختي، أي، والله، أختي"، قال لهم، وكان قلقاً من طول زيارات جنرالاته إليه، فما إن رحلوا حتى فتح مظروفاً، وأخرج منه إبهام جورجيت الفززق، الثخين، كان إبهامها أثخن من أن يكون إبهام امرأة، بإظفر متآكل الحواف غير مشذّب، وحين دقّق في الإبهام، قال لجاد الحق جاد الله:

- ممتاز.. لقد قطعت إبهامها؟ لماذا تقف أمامي الآن؟ هيا، انصراف.

حين انصرف جاد الحق جاد الله، تحرّك الإبهام في يد عز الدين، ليس هذا فحسب، بل بات يتضاءل ويتدرج من الزرقة إلى السواد، ولم يكن لدى عز الدين متسع من الوقت، فقد نهض عن كرسيه، واتجه إلى خزانة أموال في صدر غرفة المكتب، وانتزع مستندات بدت بالغة الأهمية، وبعدها، طبع بصمة الإبهام فوق رزمة من الأوراق متنقلاً من مستند إلى آخر، وكان يرتجف، ويبرد، وما إن انتهى من وضع بصمة إبهام جورجيت فوق مجموعة من مستندات ملكية، آلت إليه بعد موتها، حتى اتجه إلى الحمام، وهو يتقيأ، مكث بعدها أسبوعين متصلين في الفراش، كان خلالهما يداوم على طلب حضور جاد الحق جاد الله، ولم يكن جاد الحق جاد الله ليجلس مسترخياً أمام عز الدين الحكيم، غير أنه كان يحاول إزالة الغمامة عن سرير معلّمه بنقل آخر النكات المتداولة إليه.

اضحك، يا سيدي، قال جاد الله لعز الدين متوهماً بأن حدود الفوارق قد زالت ما بين القاتلين، فشراكة القتل جزافة تزيل الفوارق ما بين الشريكين.

ولم يكن عز الدين الحكيم قادراً على الضحك، غير أن الخطأ القاتل الذي وقع فيه جاد الحق جاد الله، وكان رفيقاً للصمت طوال حياته، هو أن

حوّل حش الشراكة هذا إلى لهجة مترفّعه في الكلام:

- ماذا فعلت بإبهامها، يا رفيق؟

نهض عزّ الدين الحكيم من فراشه، متجهاً إلى المرحاض، وكان جاد الحق جاد الله يمشي وراءه، وقد حمل أوراق التجفيف، وما إن طال مكوث عزّ الدين الحكيم في الحمام حتى وضع جاد الحق جاد الله أذنه فوق الباب، وهو يصغي إلى أصوات الداخل، متيقناً أن لحبوب الفحم آثارها في إراحة معدة المعلم عزّ الدين.

وهو يغسل يديه، التفت عزّ الدين الحكيم إلى جاد الحق جاد الله هامساً:

- من يشتغل معي لابد وأن يكون بلا عين، ولا أذن، ولا فم، أ ليس كذلك، يا جاد؟

- نعم، ياسيدي.. أنا الصيني.. القرد الصيني.. التمثال الذي حدثتك عنه.

- أنت لست صينياً، أنت إبليس، أجابه عزّ الدين الحكيم.

بضحكة ماكرة، أجاب جاد الحق جاد الله:

- نستطيع أن نكتم هذا السّر.. سرّك في بير.

- ماذا؟ سرّي؟ في بير؟

أجاب عزّ الدين الحكيم بعينين خائبتين، غاضبتين، ولم يطل وقوفه وراء المرآة، وهو يتأمل وجهه، وقد شحب قليلاً، حتى التفت إلى جاد الحق:

- أنت شجاع، ها، ومجرم، قالها ضاحكاً. ثم تابع:

- لم أكن أظنّ أنك على هذا القدر من الشجاعة، أ كنت تكرهها إلى هذا الحدّ حتى قطعت إبهامها؟

- لا، يارفيق، أنا لا أكره أحداً، أما عن قطع إبهام ميت، فإنه لا يعدو أن يكون قطع لا شيء، نعم، هو قطع لا شيء من لا شيء، قطعة عدم سلبناها من العدم، فأعادت لك ملكية عقارية ضائعة، أو أوشكت أن تضيع.

- ولكنك قتلتها.

- لا، ياسيدي، أنا أنقذتُها من الاستمرار على قيد الحياة. هذا كلّ ما في الأمر.

- نعم؟

- نعم، ياسيدي، لقد نصبت لموت فخاً، واستدرجته إليها.

- ما رأيك بأن أنصب لموتك فخاً، وأستدرجه إليك؟

- أراهن، يا سيدي، أن موت كائن مثلي لن يثير أية جلبة.. أنا الرجل الذي ليس له من يبكيه.

بعد أن قرأ في عيني عزّ الدين ما ينم عن الرضى، قال جاد الحق:

- أظنّ أنها بصقتْ في موتها على ما لم تبصم عليه في حياتها، أ ليس كذلك، يارفيق؟

- عظيم، ها أنت تعرف عني الكثير، أجابه عز الدين.

فضّل عزّ الدين الحكيم صبيحتها أن يغادر فراشه إلى حمام ساونا الميريديان، وقد استعاد أصحابه من الجنرالات وسط حاشية من فاركي الظهر، ومقلّمي آظافر القدم، ومرافقين سعداء، يلهون بابتساماته، وكان جاد الحق قد تمدّد في فراشه، وياسمينة تنظر إليه تلك النظرة التي يخشاها؛ ليلتفت إليها مؤكداً أنها:" أمورٌ تافهة، لاتستحق الذّكر"، ومن ثم؛ جلس، وقد تضاعف حجم حدبته، وهو على يقين من أن عزّ الدين الحكيم قادر على تنفيذ أوامره بتعذيب وإعدام خصومه و(من خصاهم)، كما كان يقول، وأن قوة الطغاة في قوة سرّهم، وما إعلانه عن جرمه الشائن وحقيقة معرفته بسرّ عزّ الدين الحكيم، سوى زلّة وهم، تفتح عليه أفواه الموت، وكل ما كان عليه فعله، هو أن يلبي نداء الواجب، وأن يستجيب للأوامر، وهو مغمض العينين والعقل والذاكرة، وكان عليه أن ينسى فقط. غير أنه لم ينس، وما إن التفت إلى ياسمينة حتى قال لها:

- أنتِ أقلعتِ عن الخياطة ها؟ كان عليكِ أن تقضي لساني منذ أن سمعتِني أنطق.

لعلّ إدراكه لعواقب رفع الكلفة مع عزّ الدين الحكيم، دفعه لكلّ هذا الخوف، فتضاعفت حدبته، ولم تكن كتابته لمقالة واسعة، عنونها بـ:" أمتنا.. موضع حسد العالم كلّه"، لتثنيه عن التوجه إلى الميريديان. وقف أمام مدخل الساونا معتقداً أن عزّ الدين الحكيم ما يزال يستحم وسط

زغاريد حاشيته، وكمن يبتلع دواء مزاً، جلس القرفصاء أمام بوابة الفندق؛ ليأتي أحد خدم الفندق، وينبهه:

- ما الذي تفعله هنا، يا أخ؟ قال له.

حين نهض واتجه إلى البوابة الخارجية للفندق، رأى نساء باذخات الطول، ينزلن من سيارة فارهة، وكنّ عارضات استعراض في فرقة ساحر ألباني، يحرق الأوراق النقدية بعينيه الحازمتين، ويلوي مسامير الفولاذ بنظرة واحدة، وكانت إحدى فرق السيرك تلك، قدمت لعز الدين الحكيم عروضاً خاصة مثيرة للدهشة والضحك معاً، ولم يكن ساحر الفرقة، ليتقبل الغمزات الجنسية التي يطلقها عز الدين الحكيم وشبانه عليه وعلى بناته العارضات، كان ساحر الفرقة يجهد؛ ليكون خارج سلطان الدولة المضيفة، وهو يحرق أوراق المناديل التي تحط على موائد ضيوف العرض الفزعين، ولم يكن بوسع واحد منهم أن يتكلّم اللغة الإنكليزية، أو أية لغة، باستثناء اللغة العربية التي تجمع فيما تجمع كلمات من مثل:" الخديعة، الخيانة، التآمر على أمن الدولة" بالإضافة إلى حزمة من الكلمات البذيئة التي تطال الأمهات، وما إن دخل أعضاء الفرقة الفندق مخترقين البوابة الدائرية، حتى اتجه جاد الحق إلى ورقة مهملة ملقاة فوق الرصيف؛ ليحدق فيها، مستدرجاً طاقاته المختبئة، عازماً أن يحرق الورقة بعينيه، كما يفعل ساحر الفرقة، غير أن الورقة تدحرجت من أمامه، وهربت إلى مكنسة عامل النظافة، التقط عامل النظافة الورقة برفق، ونزعها عن الأرض؛ ليعيدها إلى الحاوية.

ليس جميع البشر متساوين، قال لنفسه، ثم استعاد يقينه بأنه واحدة من الموروثات الهرمة في تاريخ النوع، وعمق يقينه بأنه ما إن يموت حتى تنقرض سلالته الجينية، ما ضاعف إحساسه بالوجع والخيبة، ولم تكن الورقة الزاحفة إلى الحاوية سوى إعلان صريح يقول له، لا تحاول مجدداً، ولم يكن بقادر على الحركة، ولا على نقل أقدامه إلى حيث لا يعرف، كلّ ماكان عليه أن يفعله، هو التدقيق في أرقام السيارات الواقفة أمام بوابة الفندق، فيما زوار الفندق يدخلون محدثين جلبة، ويخترقون زمنه، وهم يطلقون ضحكات مرحة، وعطورهم ترفع قيمة حواسه الخمس، بما فيها حاسة الشم؛ ليستعيد لحظات بالغة المخاطرة، كان يقول فيها لجورجيت، شمّي، إنه هيرو بيور، ثم يمد راحته حاملاً البياض الكريستالي الخلاّق، كما يقول لها، ولم تكن جورجيت لتميز ما بين خانق الذئب، والهيرو المقطوف من أفيون حقول بعلبك، وكانت تذبل، مسترخية، تحك أنفها، وتزقزق

تدريجياً؛ لتكون موضع ثقة الموت.

بعد اختفائه المفاجئ، بدا العثور على جاد الحق أمراً صعباً، ولم يكن اتحاد العقال، يعرف مكاناً محدداً له، فقد بات الفراش الوحيد الذي يتبينه، هو الأرض العارية في حديقة الجاحظ، وقد أضفت عليه الشمس الذهبية مرحاً وسط أنبوب مياه معطل، فيما شبان عز الدين الحكيم يتدافعون إلى مكتبه، قائلين:

- لم نعثر عليه، يا معلم.

كذلك كان حال جبرا، فقد أطالت زمزدة مكوثها في غرفة جراحة الثدي، وما إن نهضت حتى سألت، وكان جبرا إلى جانبها:

- هل عثرت عليه؟

- لا.. لأنني لم أبحث عنه.

أجابها، وهو يدخل ملعقة مربى التوت في فمها، ووعدها أنه سيبحث عنه، غير أنه لم يكن ليعرف حقيقة مشاعر جاد الحق إزاء مجموع البشر الذين صادفهم، كما لم يكن يعرف حقيقة موقف جاد الحق من الأمومة، ومن العدالة، ومن السلالات البشرية، وكان جاد في وحدته، يرى أن موت النوع سيتسبب براحة لنوعنا والأنواع الأخرى، كما كان شديد الانزعاج من المقابر التي تجمع أشلاء، لا لزوم لها، وكان ممتلئاً بسؤال الرحلة التي تبدأ من حفرة الأم إلى حفرة القبر، وما كان يزيده انزعاجاً، هو سندات تمليك القبور، تماماً كما سندات ملكية البيوت، ولطالما سخر من الاندفاع وراء رغبة عز الدين الحكيم في قطع إبهام جورجيت، من أجل تثبيت ملكية، لا تعدو أن تتبخر ما بعد موته.

وهو يقف متأملاً تمثال الجاحظ في الحديقة التي تحمل اسم المتأمل الزنديق، تمنى جاد الحق، لو يعبث نحات ما، بقطعة من الرخام، ثم يشيد نصباً لرجل طويل القامة، بحدبة، تعلو ظهره، وجسد نحيل، وأنف بالغ الطول، ثم يكتب تحت منحوتته:

- جاد الحق كان هنا.. بلّغوا جورجيت اعتذاره.

إنه رجل أحمق، كان يهمس لنفسه واصفاً عز الدين الحكيم، وكان يتابع:" السلطة، والمال، والعائلة، ثالوث الخرف البشري"، ثم:

- ثالوث البشرية التي ستذهب إلى العدم.

كان يكزر كلمة العدم، وحدها البشرية عدم، أمّا الرخام؛ فـ لا.. وكان يكزر كلمة (عدم)، ويستسيغ إيقاعها.

لم يكن يعرف معنى لسؤال ياسمينة:

- أ لن تبني لنفسك بيتاً؟

كان يغفل سؤالها، وهو يستحضر اللحظات الأخيرة من حياة جورجيت، حين كانت تتنشق هواء الغرفة، طاردةً هباب السجائر من صحون، امتلأت على آخرها؛ لتعيد الهباب بعد زفرات متحشرجة ممتلئة بمقاومة الموت، ومعاندة نهاية الرحلة، وكان وهو يقف أمامها بحدبته وعينيه المتأملتين يُكزر سؤاله إن كان للجهد البشري قيمة في مغالبة موت، لابد سيأتي، ثم يهمس في أذنها:" لا تحاولي، إنّ الموت كفرزة إبرة"، ومن ثم؛ يعيد فمه إلى أذنها الثانية؛ ليقول لها:" لن نلتقي ثانية"، ثم يستدير إلى الأذن الأولى طالباً منها أن تأخذ معها حديقتها وصالتها الفخمة إلى حيث ستمضي، ولا شك بأنها كانت تصغي بعينيها الصفراوين اللتين ما إن فتحتهما على الآخر، حتى تحجرتا، وباتتا مثيرتين للفزع والضحك معاً، وحين عاد إلى الجلوس قبالتها، ذكرها بأنها كانت موعودة بأن تكون ملكة العاصمة، وأشفق على سذاجتها، ومع كلّ نظرة إلى عينيها، كان يتلكأ في الوصول إلى بؤبؤيها خوفاً من أن يرى صورته فيهما، فقد بات دائم الحذر من أن يرافق الموتى في رحلتهم، وكان على يقين من أنّ آخر ما يراه الميت، يأخذه إلى جواره في رحلته، ولم يكن ليشاء أن تُعرض صورته في متحف العدم، ولهذا فقبل أن يتجه إلى الهاتف لإخبار قسم إسعاف الهلال الأحمر بما آلت إليه الميتة، رفع برنسها عن فخذيها، ومسح صورته من حدقتي عينيها بلطف راجياً منها أن تتفهم طبيعة موقفه.

نواة الفكرة شغلت جاد الحق طويلاً، وبات كلّما نظر إلى عيني واحد من الأحياء، يرى فيه حياً في طريقه إلى الموت، أو كما شاء أن يصفه:" الحياة موت كامن فينا"، تماماً كما الخشب نارٌ كامنة، وكما عزّ الدين الحكيم ميتٌ كامنٌ، ولم يكن بعد استبطانه لفكرته هذه يعرف سبباً لخوفه من عزّ الدين الحكيم، فما إن عاد بعد اختفائه إلى اتحاد العقال ليقف أمام عزّ الدين الحكيم، حتى تضاعفت حدبته، فبدا متسولاً، يرجو لنفسه مزيداً من الوقت، وكان عزّ الدين الحكيم خبيراً بفن يحيط به، ودائم التفهم لهواجسهم، لهذا أوعز لجاد الحق أن ينسى خناق الذئب، وأن ينسى جورجيت، وأن يكف عن التأرجح في ذكريات الماضي، كلّ الماضي، وأن

يتنبه إلى رائحة البارود القوية التي تحيط بالبلد.

كان زعيم البلاد يحتضر، وانتشرت أشباحه تروح وتجيء في مبنى اتحاد العقال، وممزاته، وسط همهمات تترصد دخول جنرالات البلاد، خفية تارة، وعلناً تارةً أخرى، وفي كلّ حالاتهم، كانوا يستشعرون الوقت، كما لم يقع على كاهلهم من قبل، وغابت عن جلساتهم قهقهات الأمس، ونكات الساونا، وبدا فزاكو الظهر أكثر غزلة ووحدة، فيما كان على عز الدين الحكيم وحفنة جنرالاته ترتيب وراثة البلاد، والاستعداد لزعامتها، وكان على عزّ الدين الحكيم أن يعزل نفسه عن الكثير من الصور، وقد وقف فيها وراء الزعيم الموشك على الرحيل، وقد تسربت أخبار القصر مشيرة إلى أن أطباء الزعيم يرجونه تذوق الطعام عبثاً، ولم تلبث أخبار القصر أن تناثرت مؤكّدة الموت السريري للزعيم؛ ليحلّ الصمت فوق مساءات العاصمة، وينسحب البشر إلى بيوتهم، هامسين بغموض، متسمرين أمام المعجزة، فيما انتشرت أكياس الرمل على مفارق المدينة، وورءاها الحرّاس يقفون جاهزين بعتادهم الكامل وراء الرشاشات وأكياس الرمل؛ لتنام العاصمة تحت كابوس، لم تعثر على وسيلة لإخراجه من وسائدها.

كان عزّ الدين الحكيم يقف تحت صورة الزعيم متأملاً، وظهره إلى جاد الحق، وكان يتكلّم موجهاً كلامه إلى جاد الحق قائلاً:

- أنت نذل، يا جاد الحق، لقد أطلقتَ عليه جميع الصفات، ولم تُبق صفةً للزعيم الجديد، ثم يستدير إلى صورة الزعيم، ويقول له:

- لقد امتصصتَ كلّ الألقاب، يا سيدي، حتى لم تُبق لمن سيأتي من بعدك لقباً واحداً.

ولم يكد عزّ الدين يستكمل مخاطبة الصورة، حتى بادره جاد الحق بالقول:

- قريحة الشّعر ما تزال، يا رفيق، إنّ الشعر جاهز؛ ليحمل أطناناً من الألقاب.

قال جاد الحق ذلك متأملاً سبابة يده اليمنى وإصبعه الوسطى، وقد نفرت من كلتيهما كتلتان ضخمتان، بسبب ضغط أقلام البيك، ذات الحبر الناشف، ثم استدار مغادراً سيده، متجها إلى ممز المبنى، ويداه خلف ظهره، ما زاد من ارتفاع حدبته.

لم تكن زمزدة تعرف سبباً لكلّ هذا الصمت في البلد، وكان يأسها بلغ ذروته في التعرّف على مكان جاد الحق، أما عن جبرا؛ فهو لم يف بوعدين كان قطعهما على نفسه، أولهما العثور على جاد الحق، وثانيهما زيارة يأخذها فيها إلى كرخانة الروبين، ولم يكد جبرا يقترب منها، وهو يضمّ جسدها الغضّ إلى صدره، حتى بكت، وكانت أدركت أنها فقدت ثديها، وباتت نصف امرأة، غير أنكِ امرأةٌ، يا زمزدة، قال لها جبرا، ملوّحاً بحبٍّ، بدا كما لو أنه رايةٌ ترفرف فوق فضائها، وقبل أن يرفعها عن صدره، قال لها أنت تميمة الحبّ، وحارسته إلى الأبد، وأنت مشهد البدء الذي لن يتوقّف، وها أنت اليوم:"المرأة التي لا تُغتصب"، وأنت:"المرأة التي لا ترتجف خوفاً من أحد"، ولهذا بوسعنا التوجّه إلى الروبين، إن شئتِ، ثم:"هيا بنا، نبحث في المدينة عن زهر الياسمين الذي تعشقينه، هيا".

وهما يتجوّلان تحت شجر الياسمين المتدلي من شرفات حي المهاجرين، كان جبرا ينثر زهر الياسمين فوق رأس زمزدة، وكان بوسع متتبع الأثر، أن يلحق بهما؛ حيث يتناثر الزهر، أبيض، خماسياً، مائلاً على كتفه، غير أنهما ما إن انحدرا باتجاه ساحة الأمويين، حتى بات الزهر يذبل في يده، ودون أدنى شك، بدت البلاد، وكأنها مقبلة على طوفان، لن يتوقّف، غير أن جميع التوقّعات، وقد ذهبت إلى موت الرئيس، كانت تساقطت، حركةٌ ضاجةٌ في مبنى التلفزيون الرسمي، خرجت بعد محصلة حوارات عن بيان، قال فيه مذيع النشرة:

- أيها المواطنون... انتظروا خطاباً تاريخياً للسيد الرئيس... خطاباً يُوجّه إلى الأمة.

في نهاية الخطاب، بدا الرئيس مجهداً، فانتابت عزّ الدين الحكيم ومجموعة الجنرالات حالة من الوجوم القاتل، ولم يكن أيٌ منهم ليجرؤ على النطق أو التعليق بكلمة، وما إن تحرّك عزّ الدين الحكيم باتجاه إخفاض صوت التلفاز حتى قال لنفسه:

- ليس من موت، بوسعه خطف روح هذا الرجل.

بعد صمت لم يطُل، ارتفعت أصوات مكبرات الصوت في المدينة، وكانت أغاني علي حليحل تتنقل من مكان إلى آخر فوق ظهور سيارات، تعبر الشوارع، وتخترق الأزقّة، فيما بدأ جمهور واسع من سكان المدينة يتوافد إلى ساحاتها.

سيخطر على بال الكثيرين ممن تملوا موت الزعيم الخروج إلى ذات الساحات؛ ليشبكوا أيديهم بأيدٍ، لا يعرفونها، ثم يسجلوا رقصات، تعلو فيها الأجساد وتهبط، مكلّلين بتعزقاتهم وفرحتهم، ولم يكن جاد الحق يعرف سوى أنّ:

- الزعيم لم يمت.

كان واثقاً من معرفته هذه، فالطبيعة سحبت قراراتها، وما الله سوى شاهد، يتفرّج على ما سيحصل، وكان عليه أن يستنبط الكثير من الأسباب الطبية التي تجعل من الزعيم شخصية خالدة، كما كان عليه أن يستنبط من اللغة ما يجعلها تنحني أمام خلود الزعيم، وبما يجعله يتسرّب كما اليقين إلى قلب عزّ الدين الحكيم بعد أن اهتزّت مكانته، وأوشك أن يخرج من قلب الرجل إلى الأبد أيضاً.

لم يكن بمقدور جاد الحق أن ينتظم في صفوف الراقصين، أقلّه لأسباب تتصل بحدبته، غير أن وقفته المطوّلة أمام حلقات الرقص، ومراقبته كما عينٍ ساهرة، أفردت له متسعاً من الرؤى، كان يرتبها كما لو كان يربطها بعرى الأيام المقبلة، وكان يدفن أفكاره تحت بلاطة رأسه؛ لينتزع البلاطة كلّما احتاج إلى فكرة مبتكرة، غير أن ثقة ألسنة وشث بعزّ الدين الحكيم ومجموعة جنرالاته، ولم يكن الزعيم ليحتمل ما يتسرّب إليه من أخبار اجتماعات وحوارات ووشوشات تدور في مكتب عزّ الدين الحكيم، وجميعها متصلٌ باستعدادات سابقة لدفن الرئيس، مع رغبات جامحة في تزيين قبره ما أمكن، ووسط الهمسات، كان عزّ الدين الحكيم أحد المدنيين المرشحين للصعود نحو قصر الرئاسة، بتوافق كبار جنرالات الجيش وقوات النخبة، ما كشف عنه لاحقاً على صورة اعتقالات واسعة، شملت رتباً عالية، واستثنته من قائمة المعتقلين، مع تزامن خلاّق للترويج لصورة الزعيم الشاب، الوارث الجديد لمكانة والده، وكان الزعيم المقبل يتجوّل في ملتقيات الشباب ومقاهيهم، ويفتح نوافذ العاصمة على ابتكارات الاتصالات، وينتزع من والده ذلك الغموض، وقد حطّ فوق ستائر قصره، كما لو أنّ القصر متحف مهجور، يسكنه شبح.

ظهور الزعيم بخطابٍ متلفزٍ، أجهض كلّ توقّعات الموت، ولم يكن بوسع السكان أن يتخيلونه عارياً فوق محفّة مخصصة لغسيل الموتى، وسط أيادٍ تتدحرج مستطلعة جسده المسجى، مغمض العينين، يابساً كما خشبة.

كان على جاد الحق، أن يزيح من رأسه صورة الزعيم الميت؛ ليحلّ

مكانها رئيساً أكثر حكمة وحيوية وإجلالاً، لهذا عاد ثانية إلى قلمه البيك؛ لينعت الموت بصفات شديدة القتامة، مؤكّداً على أن الموت لا يطال الخلود، ولا يجرؤ على الاقتراب من رفعته، على العكس من يقينه الدائم بأن الانسان ليس أكثر من رحلة إلى العدم.

ملعونٌ من يتطاول بعنقه إلى الأعلى، قال عزّ الدين الحكيم مخاطباً جاد الحق كمن يخاطب نفسه، ولم يكن يعير أدنى التفاتة إلى جاد الحق، فقد بات جاد واحد من مفردات جسد عزّ الدين الحكيم، تماماً كما يده، أو فمه، أو قدمه، وحين غادرا معاً الممز الطويل لاتحاد العقال، هبوطاً نحو سيارة عزّ الدين الحكيم، سأل عزّ الدين جاد الحق، كما لو كان يعرفه لأول مرّة:

- هل تملك بيتاً؟

- لا، يا سيدي.

- أما تزال تسكن بيتاً بالأجرة؟

- نعم، يا سيدي.

- إذنْ؛ ذكّرني غداً... سيكون لك بيتٌ في الضاحية العقالية. وبعد صمت قصير، تابع عزّ الدين:

- وزوجتك؟

قاطعه جاد الحق، وكأنما يحمي قلبه بصدره:

- لا.. ليست بالأجرة، يا سيدي.. إنها زوجتي.

اطمأنت ياسمينة على نوم جاد الحق فجر اليوم، وتسلّلت إلى فراشه من بين كتب قديمة متكوّمة حول سريره، كما لو كانت كتبه وسائده، واستدلت على مناماته من تعابير تتموّج فوق وجهه، ثم وقفت مشدودة إليه عابئة بتوقّعاتها. كان جاد الحق يعبر وسط قطيع من الحمير القبرصية، بيضاء عالية القامة، وقد اعتلى عز الدين الحكيم أكبر هذه الحمير حجماً، ملوّحاً بيده مودّعاً المبنى الضخم لاتحاد العمال، وفي الخلفية، ظهر الفندق الفرنسي الكبير، ويافطته المكتوبة بالأزرق: (Le Meridian).

- أوف.. حميرٌ قبرصية؟ تساءلت ياسمينة حال أن فتح عينيه. وتابعت، تسأله:

- ما أدراك أنها قبرصية؟

بعد أن نهض جاد الحق من سريره، قال لياسمينة إن انهيارات ضخمة ستصيب البلاد، فرحيل الحمير يعني شقاءً أبدياً، سنشهده، ولابد أن البلاد ستتعرض لمحنة، ستطالها لسنوات قادمات، لايعرف مقدارها، ولكنه كرّر القول بأن قافلة الحمير قد تجاوزت العشرات، ما يعني أن عقوداً من زمنٍ موحش، سيصيبنا.

كان وهو يحكي يتأمل عينيها بعد زمن طويل لم يُتَح له فيه أن يتأملهما، بدا لجاد الحق أنه نسي عيني ياسمينة؛ ليكتشف على نحو صادم أن عينيها قد قُطفتا، وفقدتا بريقهما.

- سنحصل على بيت من اتحاد العمال قال لها.

- ولكننا في بيتنا.

- إنه مستأجر، أجابها.

دعنا في بيتنا المُستأجر، أجابته ياسمينة، وهي تُبعد قدميه الملتصقتين ويديه المتصالبتين من فوق صدره.

كان لياسمينة حدس عنزة، وتواضع دجاجة، ولم تعد ترغب في إضافة أية ممتلكات إلى حياتهما المشتركة، باستثناء إصلاح ماكينة خياطتها، ورتق جوربيه، ولم تكن تتذمر من طول إبهام قدمه الأيمن، والنمو السريع لإظفره الذي غالباً ما يؤدي إلى ثقب جوربه، وقد باتت إبرتها عاجزة عن رتقه. ولم تكن ثقافتها لتعينها على تفهم تلك الخصوصية التي تمنحها الملكية للمالك، فالوطن لا يعدو عن كونه وثائق ملكية، بالنسبة إلى مجاميع السكان، والزوج كذلك ملكية، يرسمه شيخ أو محكمة، وكذا هو حال الحب والعواطف الراقصة. وحدها الأمومة تنجو من تعسف وثائق الممتلكات، وتخضع حانية رأسها إلى استرسال النوع وخفقات الرئة وشقاوة أطفال يمزقون قلب الأم؛ لتكون عبدة لهم.. كانت لياسمينة شهوة واحدة، تضاف إلى اشتهائين أساسيين في حياتها، وهما.. شهوتها الدائمة لمضاجعة جاد الحق جاد الله، وشهوة إصلاح ماكينة خياطتها، أما الشهوة الثالثة، وقد بدت كأنها الشهوة المستحيلة؛ فكانت قد طلبتها صراحة من جاد الحق جاد الله:

- هذان ولدانا.. أشتهي أن أراك تقبلهما وتضمهما إلى صدرك، أو تسأل عنهما.. لا أريد أن أمتلك بيتاً.

وهو يقف أمام طاولة عز الدين الحكيم على هيئة متسول، أبلغ عز الدين الحكيم رسالة ياسمينة قائلاً:

- أرغب أن أبقى في بيتي.

تأكد له، أن سيده بات أكثر من مجرد سيد، فقد كان عز الدين الحكيم قد بوغت بمزاج أسود مع شائعة موت الرئيس السابقة، واكتشاف خديعتها، ولكنه استعاد مزاج المتعة هذه اللحظة، وكان تذكر أنه حجز حمام ساونا الميريديان لسنة كاملة، وعليه أن يستعيد مقلمي أظافر قدميه، وفاركي كتفيه وفقرات ظهره، ومنذ اللحظة فصاعداً، ستجد مجموعة كبيرة من القيادات العقالية مصحوبين بوزير الصناعة، وهم يتسابقون إلى المشاركة باحتفالات استحمام السيد، ليكون جاد الحق أكثرهم بؤساً، فيما تتنافس القيادات العقالية على الركض لتقديم وشاح الاستحمام إلى السيد، ويخلطون ما بين استحمام واستحمام بيوتاً في الضاحية العقالية، وقد خلعت مُسبقاً، بمعمارية متشابهة، جعلت صفوف المباني وهياكلها، متطابقة كما التوائم السيامية، ومزروعة صفوفاً صفوفاً، وقد أحدث الإنشائيون على جدرانها لوحات، ترسم رئيس البلاد بزيه

العسكري، ونظارته السوداء تغطي وجهه مانحة انطباعاً بغموض ما، لا يلبث أن ينفرج حالما تنتقل إلى صور ولوحات أخرى، وقد نزعت نظاراته السوداء عن عينيه الصغيرتين ووجهه المبتسم، غير أنه وعلى الرغم من محاولاته الدؤوبة في استعادة تقاليد حياته الفائتة، بدا عز الدين الحكيم عاجزاً عن تحصيل متعه السابقة على شائعة موت الرئيس، ولم يكن يجد مفرّاً من الهمس لظلّه أنه سئم ألعاب الساونا، وسئم مرافقيه وحاشيته، كما سئم وزير الصناعة اليساري الذي يطوي ظهره، كما لوكانت فقراته من لدائن بالغة المرونة، بما يجعل السيد الوزير قابلاً لأن يُطوى في حقيبة سفر، و:

- لقد فاتني قطار صعود القصر الرئاسي، إن من ينتظر موت الزعيم لن يكون زعيماً أبداً.

قال ذلك لجاد الحق، وهو يتابع النظر إلى طول جاد الحق وحدبته، وكرّر أسئلة من الأمس تتصل بتبديل سكن جاد الحق، كما تبديل سيارته اللادا إلى سيارة بيجو ٥٠٤ جديدة، ولوى عنقه نحو جاد الحق هامساً:

- خذها، بعتر، الحياة لا تستحق أكثر من بيجو ٥٠٤، ومسكناً في الضاحية العمالية وموت الزعيم.

لم يكن جاد الحق يعرف سبباً لاعتقاده بأن عز الدين الحكيم بات واحداً من أطياف الماضي، فنفور شرايينه وازرقاقها، كما طفو النقاط البنية فوق جلده، والمساحات البيضاء التي بدأت تنتشر على شكل خطوط في بؤبؤي عينيه السوداوين، جعلته احتمال ميت، وفق ما كان يعتقد جاد الحق، ولم تكن حمامات الساونا لتغير شيئاً من ألوان عز الدين الحكيم التي بدأت تميل إلى الشيخوخة، كما ألوان اللوحة العريضة الضخمة المعلقة فوق بوابة اتحاد العمال، وقد رسمها واحد من رسامي جيل الخمسينيات، وأظهر في خلفيتها آلات تعمل، وعمالاً متعرّقين وفي الخلفية، زعيمٌ يرفع كفه ملوحاً لجماهير، تبتهج فرحاً، وكان هذا حال تمثال الصلصال القريب من اتحاد العمال، وقد أطلق عليه اسم:" الكادح"؛ ليشيخ مبنى الاتحاد بمجمله مع شيخوخة السيد عز الدين الحكيم، ويبقى التمثال كادحاً كما حاله منذ منتصف القرن العشرين إلى يوم عز الدين الحكيم هذا، وقد بات سئماً.. الممرات، ألوان الجدران، اللوحات المستولى عليها من معارض رسامين وغاليرهات لعروض الرسوم الزيتية، بلاط المبنى، وكذلك العاملون فيه، وقد تحول الجميع إلى عجائز، يصعدون

سلالم الطوابق الخمسة، لاهثين، تاركين مصعد المبنى شاغراً لبقايا عزّ الدين الحكيم، وهو يغادر مبكراً، ووراءه جاد الحق، حاملاً حزمة من الورق والجرائد التالفة، وفي المصعد، سيكرّر عزّ الدين الحكيم على مسامع جاد الحق حكاية موت أمه الغاضب، وهي تكيل له مزيجاً من الدعاء طالبة من الله أن يعثره بخصيتيه.

نعم... إنها أمي، أشباحها.. قال عزّ الدين لجاد الحق، ثم تابع، وهو يُفرد له صفحات من حكايا غضب الأمهات وآثارها على مصائر أولادهن، وقد تذكّر بحزن بالغ منعه لأمه من أخذ حوض أسماك الزينة الذهبية إلى بيتها في جبال الساحل السوري، وهي تتابع قولها راجية بأن هذه الأسماك ستؤنس وحدتها.

الأمهات؟ كرّر جاد الحق لنفسه، ولم يكن يعلم شيئاً عن مصير زُمزدة، ولا عمّا آلت إليه أحوال أمه بالتبنّي، غير أن حقيقةً واحدة كانت تنتشله من مخاوفه، وهي حقيقة أنه لم يقتنِ أسماك زينة في حياته، ولم تكن زمرّدة لتطلب منه شيئاً منها.

كانت زُمرّدة، وقد ضمّت عنقها إلى صدرها، قد ابتدأت بابتكار حياة جديدة برفقة جبرا الذي تفرّغ لوقت آخر، لم يكن يعنيه منه شيئاً سوى تأمل زُمرّدة، وهي ترفع نظارتها الطبية عن عينيها؛ لتكشف أخاديد صغيرة في جفنيها، ومسحة من ظلّ أزرق تحت عينيها، ومن ثمّ؛ تستدير طالبة من جبرا أن يُخفض صوت الموسيقى قليلاً، هامسة، أن:

- درجة واحدة، يا جبرا.. أخفضها درجة واحدة.

بدا طلبها، وكأنها تسعى إلى فتح بوابات كلام مؤجّل، فطيلة السنوات الفائتة من عيشها المشترك مع جبرا، كانت تُحبّ البيت، وتحلم بأطفال، يملؤون حياة جبرا، أما هي؛ فليست منشغلة لا بالولادة ولا بإعادة إرضاع أيّ من القادمين إلى الكرة الأرضية، وكانت قبل ليلة واحدة من اليوم، استقبلت بنتاً خادمة، أحدثت جلبة في بيتها، كانت البنت على درجة من الجمال، ومتانة الجسد، يسمح لزُمرّدة أن ترشح هذه البنت؛ لتكون زوجة ثانية لجبرا، ولم تكن تتذمّر، أو تبدي أي نوع من الحرص على أن تبقى زوجة جبرا الوحيدة، في عالم إسلامي، يبيح أربع زوجات للرجل، ولهذا أفاضت دموعها، وهي تكرّر:

- تزوّجها، يا جبرا.. إن طفلاً منك يساوي الدنيا.. سيكون ابن جبرا..

افهم.

قبل أن يربت جبرا على كتف البنت، وهو يطلب منها مغادرة بيته، لملم دمعات زمزدة، ثم جمع رأسها فوق صدره، وقال لها:

- لقد أخطأتِ في اللحظة الأخيرة.. لا تتصرفي ضد يد الله، يا زمزدة.

- يد الله؟

بدا جبرا، وكأنما قد تحول إلى رجل آخر، فلم تكن زمزدة قد سمعته يوماً يستغفر الله، أو يقترب من ذكره، أو يطلب رحمته، وهو وإن لم يكن من المجدفين، غير أنه لم يكن من المؤمنين أيضاً، وبدقة أكثر، لم يكن سؤال الله شاغلاً من مشاغله، فقد باتت حياته ممتلئة بزمزدة وحدها، فيما باتت زمزدة أكثر انشغالاً بجسدها منذ أن فقدت ثديها؛ لتهجر العالم، وتسكن جسدها فقط، متصفحة كتاب دموعها الصامت، الذي تتدحرج فصوله فوق وجهها، وهي تجفف عينيها بيدها العذراء، وتستعين على البوح بالنعاس، لتستعرض في فراشها صفاً من القديسين الذين تحن اشتياقاً إليهم، وكانت، وهي تتمدد إلى جانب جبرا، وتهمس له:

- هل تعرف المكان الذي دفنت فيه فرنسا؟

وما إن تعود إلى صحوها حتى تسأله بصوت ناعس:

- أ تظن أنها صعدت إلى الجنة؟ ثم:

- إذا ما قرأتُ الفاتحة على روحها، هل سيكون لذلك عند الله أي معنى؟

طلبت من جبرا أن يقرأ الفاتحة، وكررت على مسمعه، بسم الله الرحمن الرحيم، ثم ذهبت إلى غطاء ليلها، وهي تلف راحتيها حول صدرها مراعية أن لا تمتد يد جبرا إلى جرحها، وكان يهمس في أذنها:

- زمزدة، صلّي لها، ليس ثمة إله، لا يستجيب إلى دعاء مرسل منك.. إذا كان الله موجوداً، فلن يسمع صوتاً أعذب من صوتك.

عذراء وشهيدة، على هذا النحو، بات يراها جبرا، وكانت مخاوفه من افتقاد زمزدة تزيد إحساسه بالوحدة، وكان يشتاق إليها، وهو يسرق أنفاس نومها، وحين سمع وقع أصابع على باب شقته، نهض كمن يودع سرير روحه، وحال أن فتح باب الشقة، ظهر فاتح أمامه متخفياً، وكان يتجلبب بمعطف فضفاض ضخم؛ ليقول له:

- أنا قادم للاحتماء بك هذه الليلة، هل تستقبلني؟

حال أن جلس فاتح، سأل إن كانت زُمزدة نائمة، ودون أن يسمع إجابة من جبرا تمتم قائلاً:

- أكاد أختنق، ما إن تضيق بي الدنيا حتى أشعر وكأنني بحاجة للالتجاء إليها.

كوابيس السجون وأمراضه طاردت فاتح كما طاردت جيلاً كاملاً من اليسار السوري، وما لفت جبرا هو أن تكون زُمزدة ملجأ لسجينين خارجين تواً من المعتقل، وحين نهضت واتجهت إلى حيث يقف جبرا، ويجلس فاتح، كشفت غطاء رأسها، لتظهر برأس حليق تماماً، وكانت تابرت على هذا التقليد منذ أن ابتدأت جرعاتها الكيماوية، واستمرّت على هذا الحال مانعة شعرها من أن ينمو؛ ليتأرجح متبعثراً فوق كتفيها، أو بجديلة، أو معقوصاً إلى الخلف؛ ليظهر جلال عنقها ونضارته، وها هي تبدو في هيئتها الجديدة، مساحة لحلم في الماضي، أو للتأمل فيما يؤول إليه ريش أجنحة الملائكة، وفي الحالين، بدت لهباً عظيماً، يحطّ فوق ليل رجلين، أولهما يداري شيخوخته، والثاني يغادر شبابه، ولكن؛ بعناد وحذر.

أخبرها فاتح، أن البلد على وشك أن تحترق، وكان موت الرئيس قد بات حقيقة، والنشرة الرسمية للتلفزيون الرسمي كما وكالة الأنباء الوطنية، أفرجتا عن صعود روح الرئيس عبر خبر مقتضب، يؤكد حزن الأمة كلّها، ولم يكن من رجل واحد في البلاد قادر على التنبؤ بما ستؤول إليه المرحلة اللاحقة، وفوق قاسيون عشرات الصواريخ الموجهة إلى العاصمة، فيما القراءات تتراشق هامسة؛ لتغطي وشوشاتها آيات قرآنية، تجتاح الإذاعة الرسمية، كما الشاشة الوطنية، وبدت العاصمة جُملة مقتطعة من اللغة، وكلّ ما عدا المقرئين الشيوخ أصيب بالبكم والخرس.

قال فاتح، وراحته تغطي عينيه، إن ثمة وارثاً للرئاسة، وأكد أن توافقات دولية كبرى رشحت ابن الرئيس؛ ليحلّ مكان والده، مسبوقاً بحملة وطنية كبرى مفرداتها:"الرئيس الشاب، الطبيب، والمتحضر"، صفات صفعت جيل الأب الآتي من مساحيق الحناء، وأقلام الحمرة الفاقعة، وأطنان كحل العيون الأسود، ولفحات الدبكات الشعبية، والفقر المدقع، وقد أثمر ثروات هائلة، طالت أعناق شعب بأكمله، وكان فاتح على يقين من الإذعان الشعبي الهائل لتقبل صيغة الوارث، ما بعد سنوات، زُرعت فيها البلاد بالسجون، بما أحال البلاد إلى سجن بلا حدود، وكانت زُمزدة تصغي،

باذلة جهداً كبيراً في الانضمام إلى حشود الكلمات التي تنهار شلالاً من فم فاتح، وهو يداعب الصور الأكثر خشونة من حياة البلاد، بنكات بذيئة، تطال الابن ووالده الراحل، وكانت زمزدة تتذمر من نكاته، وهي تفترض أن مُجزد ملامسة الموتى هو تدنيس للحياة بأكملها.

- الموتى للموت، وليسوا لنا، قالت لفاتح.

أجابها فاتح:

- لقد كان قاتلاً.. لقد أحال حياتي إلى مقبرة.

- كان؟ من تقصد؟ الذي تحكي عنه الآن ليس الذي كان.. الذي كان، كان يتنفس ويغضب ويُحب ويكره.. الذي تحكي عنه الآن هو التراب.. لا تحاول السخرية من التراب، يا فاتح.

وقالت بحزن إن الموتى متساوون، فليس ثمة ميت شاهق وآخر أقصر من ظله، واستبعدت أية ضحكة تنم عن قبولها بما يقوله فاتح، وطلبت منه أن يقترح عشاء الليلة، وحين مضت إلى المطبخ، كان أمراً سخيفاً أن يُفكر فاتح بالاعتذار إليها، فالنكات السوداء لا يُعتذر عنها، والسجن ليس سوى هذه النكتة السوداء وقد أكل معظم سني شبابه، بل إن مُجرد ذكر السجن بات مرتبطاً بالزعيم الراحل، وقد كان سكان البلاد مطالبين بتقديس اسمه، ما دعاهم إلى رفض تصديق خبر موته، أو تصور الزعيم مُسجى في نعش، يتجول بين بيوتهم ملوحاً بيده نحو رحلته الأخيرة وسط دموع جافة وعيون بلهاء، تنظر إلى عربة حربية، تقلّ الجثة، ومن ثم؛ تُقلع مُحملة على طائرة مروحية باتجاه قبر، سيحط في مسجد ضخم، صيغ ليكون مزاراً مقبلاً لسكان آمنوا بالسر الإلهي لزعيمهم، حتى بات بالنسبة إليهم، الخالد الذي لا يطاله النسيان، ولا يخضع لإصابات الذاكرة، ومع أن فاتح لم يكن قرأ أياً من برنامج الدفن وحيثياته، غير أنه سرعان ما أخفى شماتته، مفضلاً الإصغاء إلى زمزدة التي رفعت همساتها لتقول له، بأن السمك ملفوف بورق السيلوفان، يمكن أن يساوي السمك المشوي على مواقد الفحم، طالبة منه أن يُهدئ جوعه ريثما ينضج السمك، وكان فاتح صامتاً، يتأمل ملامح جبرا، ولم يكن جبرا يُخفي إعجابه بما قالته زمزدة، فالتفت إلى فاتح؛ ليقول له:

- أنا لا أعرف مهنة جدي، ومع ذلك، أظن أن مهنته اليوم هي: "ميت"، وكذلك الرئيس، مهنته اليوم: "ميت".

لملم فاتح بعضه، وعلى طقطقات صحن فارغ، بات يطرق ويحكي:

- إذا كان الأمر كذلك، فلهذا معنى واحد، هو أن التاريخ ميت.

- ومن قال غير ذلك؟ نعم، إنه كذلك؟ أجابه جبرا.

- إذن؛ ما الذي يدعو أعظم الناس للوقوف في صفوف المؤرخين؟

- هؤلاء ليسوا أعظم الناس.. هؤلاء جرذان مقابر.

- أنت تشتم المؤرخين؟

- أشتمهم، نعم.

- تصوّر أن تكون بلا ذاكرة.

- أهب ذاكرتي للأحياء فقط.

- وما قيمة زنوبيا ملكة تدمر في هكذا حال؟

- إذا كانت حية، فهي عظيمة تشبه زمزدة، وإذا كانت ميتة، فإنها ميتة، وتتساوى مع كلّ الموتى.

كانت درجة أصواتهما ارتفعت، وكانت زمزدة تصغي، ولم تكن تبارح في تلك اللحظة مشيتها في الضبارة، وهي تقطع الزقاق مروراً أمام جبرا، وهي تمسك بيد صبيها جاد الحق، الذي يلحق بها صامتاً، مأخوذاً؛ ليقف، وهو يتلفت مصوّباً نظراته إلى وجه جبرا، ونظراته تشي بأنه سيقول شيئاً، ثم يبقى على صمته؛ ليتابع خطواته وراء زمزدة دون أن يقول لها ما تُخبئه عيناه الصغيرتان وشفتاه الكبيرتان وجبينه المقطّب.

بات جاد الحق جاد الله الليلة، كما جميع السكان بانتظار الجنازة الصباحية للزعيم، وحين كان صباح العاصمة، لم يكن عز الدين الحكيم مرئياً بين السائرين وراء النعش، وهو يجوب ساحة الأمويين الدمشقية، فيما كان وراء النعش، أبناء الرئيس، وأشقاؤه، وصهر العائلة الوحيد، وكانت الشاشة الوطنية تبث مشهد الجنازة وسط موسيقى غير مؤثرة، وصوت مذيع يحاول أن يصف مشهداً، ليس فيه ما يحفز على الوصف، باستثناء عجلات مركبة حربية، تتقدم الموكب، أما على الطرف الآخر من المدينة؛ فقد مضى السكان، كأن لا شيء حدث، فلا البزورية أقفلت أبوابها، ولا دكاكين الحلاقة أقلعت عن استقبال زبائنها، وكان جاد الحق يجهد نفسه، وهو ينتظر مُزيّن الشعر أن ينهي له حفّ شاربيه وذقنه، لتعلو حدبته أكثر

من أي يوم مضى، وعيناه على الشاشة الوطنية المثبتة في صالون الحلاقة تبثّ نعش الرئيس، وهو ينتقل بين الأحياء نحو آخر ذكرى له بينهم.

كان مزيّن الشعر يتابع حفّ ذقن جاد الحق وعينه على الشاشة، ولم يكن منتبهاً أنه قد أعاد تمرير موس الحلاقة للمرة الثالثة فوق مساحة واحدة من وجه جاد الحق، ولم يكن جاد الحق - بدوره - قد تنبه لهذا، وفيما يشبه صوت القصب، نفخ الحلاق شعيرات متناثرة فوق ظهر جاد الحق؛ ليقول له:

- نعيماً.

بقي جاد الحق فوق الكرسي، وبقي مُزيّن الشعر واقفاً إلى جانبه، وكانت نظراتهما مثبتة على الشاشة، فيما كانت مرآة الصالون العريضة الضخمة تكشف حيرة وجهيهما، وهما يشكّلان خطّين متوازيين كخطوط الأرض المحروثة، ما من شيء كسر توازيهما هذا، سوى قول جاد الله، وبصوت مهموس:

- إنك ترتكب حماقة، أيها الرئيس.

- ماذا؟ سأله الحلاق.

- نعم، إن موته حماقة، ما كان عليه أن يفعل ذلك.

- ولكنها إرادة الله، قال له الحلاق.

- كان على الرئيس أن لا يتقبلها.

كان جاد الحق يحكي بملامح وجهٍ، بدا القلق عليه، كما لو كان يكتب نهايته، وحين سأله مُزيّن الشعر إن كان حزيناً على موت الرئيس، أجابه جاد الحق:

- لا.. لقد اعتدتُ على موته.

رائحة الموت اندست في لحم وروح جاد الحق منذ أن أطلقت جورجيت أنفاسها الأخيرة، فالضحية تُطارد القاتل حيثما اتجه، وكان هذا أعظم سرّ في حياة جاد الحق جاد الله، وقد لفّه هذا السّر منذ دفنها في كفن روحه الميتة، وكان عازماً أن لا يمزّق أكفان سرّه لنفسه، غير أن ما حدث في ساحة مشفى المجتهد، كان أقرب إلى تمزيق الكفن، وإطلاق

أسراره على هيئة تقيؤ أصاب جاد الحق جاد الله، وكانت جورجيت تتجول في دمه، فاتحة عينيها على آخرهما، مطلقة عتاباً من أنفاس تتقطع، وعيناها ما تزالان كما كانتا لحظة إطلاق روحها، والكحل الثقيل ينساب فوق خديها ووجهها.

إنها العادة، وقد استعادت كامل لياقتها في تلك اللحظة، وكان يتلوى فوق كرسيه المدولب، وكان اعتاد أنه كلّما استحضر ميتة جورجيت وتفاصيل مقتلها، يقفل عينيه عنها؛ كي لا تراه، وهكذا فعل، وساعات احتضاره تقترب من وجهه، وهو يفترس نفسه.

- من قال إن الدم يطارد القاتل؟ إنها العادة.. هكذا كان يقنع نفسه.

العادة؟ إنها السجن الأكبر، الأكثر قوة في تجريف الروح الإنسانية، وفي رسم ملامحها، هي أكثر سطوة من سكاكين القاتل، ومن حراب الموت، وكانت العادة نحتت جاد الحق على نحو شبه آلي:

- استيقاظ في الساعة السابعة صباحاً.

- موجبات المرحاض والاستحمام وتجفيف شعر الرأس بالمنشفة.

- ثلاثة سجائر طويلة من التبغ الوطني، يكسر رأسها؛ لينتقص من طولها.

- فنجان قهوة.

- ارتداء ملابسه.

- الاتجاه إلى سيارة اللادا قبل منحه بيجو ٥٠٤، وقد كرّر عاداته مع السيارة الجديدة؛ حيث يقوم بفحص الريديتير وزيت المحرك وإزالة الغبار عن النافذة الأمامية.

- الصعود وراء المقود، وتحمية السيارة، ومن ثم؛ الإنطلاق، وهو يثبت جسده، كما حجر وراء المقود.

- الصعود إلى مكتبه في الطبقة الرابعة من اتحاد العمال.

- انتظار أخبار عز الدين الحكيم، وعينه على النافذة، وهو يحدق في ستائر فندق الميريديان؛ حيث ستأخذ سائحة حمامها الشمسي، وتكشف عن جسدها.

- كتابة مقالة الأسبوع وكلّ أسبوع، ومع كلّ أسبوع جديد سيكبر نتوء إصبعه الوسطى، بفعل ضغط قلم البيك على إصبعه.

كان صبيحة ذاك اليوم قد عنون مقالته بـ:" يا سيدي، ابق معنا"، ولم يكن لينتظر أن يحتفل أيّ من القرّاء بمقالته، تماماً كما مجموع مقالاته السابقة التي لم تلفت أحداً، ولم يكن لديه من تراثه المكتوب، سوى أشعار ودراسات ومقالات خفيفة موقّعة باسم جورجيت، وما تزال مقالاتها وقصائدها تحتلّ رفوف مكتبات العاصمة، وتشكّل مصدراً من مصادر الأدب النسوي، وقد احتلّت جورجيت صدارته.

كان جاد الحق متيقناً من كونه:"أديب نسوي"، نعم، هكذا كان يقينه، ولم يكن يتذمر من هذه الحقيقة، أو يبدي أيّ رغبة بالكشف عنها، كلّ ما كان عليه فعله، هو العودة إلى اتحاد العفال؛ حيث الممرات الفارغة، والمكاتب الفارغة، والبوّابة الخالية من الحراسات التقليدية الصارمة، والمصعد المجهز لأن يَقلّ طالبيه نزولاً وهبوطاً، صعد جاد الحق وحده في المصعد، يطلب الطبقة الرابعة، وما إن وصل حتى عاد إلى الطبقة الأرضية، وهكذا أمضى يوماً كاملاً، وسط صعود وهبوط مستمتعاً أيّما استمتاع بأنه قد فك رباط العادة عن ذاكرته، وفي آخر نزول، فتح المصعد أبوابه، وخرج جاد الحق، تاركاً سيارة اللادا؛ ليستقلّ تاكسي أجرة، ويتجه إلى بيته؛ حيث ياسمينة وطفلاه اللذين باتا شابين كبيرين، لم يتسنّ له يوماً أن يسأل أيّاً منهما إن كان ابنه.

يا الله، قال جاد الحق لنفسه، ثم مكث يصيغ كتاب استقالته:

- سيدي رئيس اتحاد العفال:" حين يكبو الحصان عليكم أن تقتلوه، واسمح لي - يا سيدي - أن أقول لك، كان بوسعي أن أكون حصاناً، ولم أكن، فلا تقتلوني، لا أريد الموت، يا سيدي".

كتب بيان استقالته، وطوى الورقة، ثم أودعها على شكل لفافة في جيبه، وحين تقدمت ياسمينة منه؛ لتسأله إن كان جاهزاً لتناول الغداء، أجابها:

- سنغير كلّ مواعيدنا.. أجل بدءاً من اليوم..سنغير كلّ مواعيدنا.

في السابعة صباحاً، استيقظ جاد الحق، واتجه إلى موجبات المرحاض، ثم استحم، وجفّف شعره، وبعدها دخّن ثلاث لفافات من التبوغ الوطنية دون أن ينسى تقصيرها، وشرب فنجان قهوة، ومن ثم؛ ارتدى ملابسه، واتجه إلى سيارة البيجو؛ ليكتشف أنه تركها في كاراج اتحاد العقال العرب، وحين لم يعثر عليها، سخّن حلمه دون أن يهوي، ومضى، وهو يترنّح باحثاً عن تاكسي، تقلّه.

حين توقّفت تاكسي عابرة، سأله السائق وجهته.

"إلى حيث"، قال جاد الحق، ثم صمت، وصعد التاكسي، فيما بدا السائق مُلحّاً في معرفة الوجهة التي عليه أن يَقلّ زبونه إليها، وحين أدرك جاد الحق جاد الله أنه لا يعرف الوجهة التي سيتجه إليها، قال للسائق:" إلى حيث ألتقي ببشر، لا أعرفهم"، وما إن أقلع السائق حتى توقّف؛ ليقول لجاد الحق:

- انظر إلى وجهي، هل تعرفني؟

- لا..

- إذن؛ ها أنذا أوصلتك إلى بشر، لا تعرفهم.

- لماذا المدينة فارغة؟ سأله جاد الحق.

- ألا تعرف؟ اليوم موعد دفن السيد الرئيس.

- الكلّ راح؛ ليدفنه؟

- لا.. الكلّ يترقّب دفنه.

- وهل كانوا يرغبون أن يبقى بينهم؟

- ميتاً؟ بالطبع، لا؟

- وهل يعرف هو إلى أين سيذهب اليوم؟

- أقول لك إنه ميت، كيف سيتسنى له أن يعرف؟ أجابه السائق بلهجة مشفقة.

- ما المشكلة؟ ها أنذا حي، ولا أعرف إلى أي وجهة سأتجه؟

المدافن هي الوطن الأخير.. النهائي.. إنها الوقت الخاص، ردّد جاد الله بعد نزوله من التاكسي.

- الوقت؟ إنه الوحش الأكبر في هذا الكوكب، فها أنت تولد من امرأة ميتة، وترضع من بنت بِكر، وتموت في اللحظة المناسبة، وتُصاب بالحيرة حين تُسأل أين ستدفن؟ وحين يُطلَب منك أن تقوم وحيداً بنزهة سريعة، يُنزلك سائق التاكسي.

مضى جاد الحق يُكرّر كلاماً مسموعاً، غير أن درجة ارتفاعه لا تصل إلى حدٍّ، يخترق فيه البوابات والنوافذ المُغلقة في هذا اليوم من أيام العاصمة، لم تكن المدينة تهمس، وباستثناء رايات سوداء حطّت على نوافذ متناثرة مُغلقة، كانت الحياة معدومة في الأزقّة التي يخطوها جاد الحق جاد الله، وهو يُجازف مصغياً إلى وقع أقدامه، يخبطها فوق الإسفلت اللزج الأسود، مُصوّباً إيقاعاتها، كما لو كان يعزف مارشاً عسكرياً.

لم يكن يعرف أو يتوقّع، أنه سيقف تحت نافذة آنـا، وأن عشرات العائلات من سوريين وفلسطينيين، انتقلت إلى حي الأمين، كما أن فروعاً ومفارز استخبارية متعددة، باتت تحرس هذا الحي بعين راصدة، وكانت تطلّ من نافذة آنـا صبية، ظهرت آثار ندبة عميقة في جبينها، وحين طال انتظاره واقفاً تحت النافذة، وهو يتطلّع إلى الصبية ذات الندبة، وقد استحلبت بصاقها، ورمته باتجاه جاد الحق.

لم يكن ليلتقط معنى رسالتها الفموية تلك، كلّ ما كان قادراً على تفهمه هو رفضه مُجرّد القبول بأن آنـا ليست هنا، وأنها غادرته؛ ليمكث تحت يُتم جديد وحدبة أكبر من حدبة الولادة، ملفوفاً بالذعر، والاحتقار، والعزلة، وهو يعاند قساوات لا تُوصَف، و:" لكنها ستعود"، قال مخاطباً نفسه، ومضى يحف جسده بجدران، تساقطت طينتها، وكانت آنـا تسير إلى جانبه طالبة منه ملامسة أحجار جدران الأزقّة، وهي تُدقّق في التفاصيل الصغيرة للنقوش الفيهفة التي تحط فوق أحجار الجامع الأموي، ومن ثم؛ في القناطر الشاهقة لأبنية في ساحة المرجة؛ ليميز بعد أن يعبرها ما بين شبابيكها، بطرزها المعمارية المختلفة.

هنا، عمارة فرنسية، وهذه عمارة عثمانية، وكانت آتا مسحورة بالعمارة المملوكية التي تختفي وسط قوادين، يدقّقون في وجوه العابرين، ويحيطون أنفسهم بكتمان شديد عن الإعلان عن مهنتهم، وهي ذات الساحة التي صعد جاد الحق إلى واحد من فنادقها من قبل؛ ليعثر على وارث أسنان أمه، وقد حمل طقم أسنان جديداً، وبات يملك ثروة، لا يُستهان بها، وحين قرّر جاد الحق معاودة الصعود إلى فندق الاستراحة، كان الوارث يجلس، وعكّازه بيده، وكان قد صبغ شعر رأسه بصبغة سوداء، وكذلك شعر صدره.

كانت أصابعه شديدة القتامة، لامعةً، وبدت عيناه مع تقدم العمر مطفأتين، زائغتين، أشبه أن تكونا عينين من زجاج، تعلوهما غمامة موت يقترب، فيما صبي الفندق يعلّق صورة جديدة، لرئيس البلاد الجديد، وقد أحاط إطارها بالورود الاصطناعية، مبشراً بزعيم جديد سيحكم البلاد لعقد قادم، لابد وأنه العقد الذي انتهى، وحط أشلاءه مع صافرات سيارات الإسعاف التي تدخل مشفى المجتهد الآن، في هذه اللحظة المختلطة بخلجات الموت، وجاد الحق ملقى فوق كرسيه النقّال وسط زوجته وولديه، والكثير من الأوصال المقطّعة وخثرات الدم العالقة فوق ثياب المسعفين، وقد تحولوا إلى عيون جاحظة إثر ليالي السهر الطويلة؛ حيث عمّت الاشتباكات مختلف مناطق العاصمة وأريافها، وباتت المسألة السورية أكثر تعقيداً من احتوائها، فقد انتقلت من تظاهرات عابرة وخاطفة، إلى لعبة سلاح مفتوحة على ممرات شائكة، تنتهي - على الغالب - باحتمالات حرب أهلية واسعة، وسط وساطات سلاحف دبلوماسية عارية وميتة، يقودها الأخضر الإبراهيمي، بتكليف من جامعة الدول العربية، وهيئة الأمم المتحدة؛ لتتحول البلاد إلى لعبة أمم، تتنافس على إلحاق سورية بالتجربة الأفغانية، أو تلك التجربة الصومالية، أو إحالتها إلى تجربة جديدة، لابد وأن تعثر على مصطلح، يختزل وضعها بعد أن تضج المقابر بساكنيها، من أموات وطأ الموت أعتابهم حين كانوا يرجون الله عمراً جديداً، ينبعث من نهايات طوفان جارف، اجتاح بطون ولأداتهم.

حين دخل جاد الحق، ووقف بمواجهة وارث أسنان أمه، التفت إليه الوارث، ودون بذل أي عناء في معرفته، سأله:

- إيه، جاد.. أهلاً.. ما هي أخبار زفزدة؟ سأل بصوت ميت، ثم كشف عن ضحكة باردة؛ ليتابع دون انتظار إجابة من جاد الحق:

- سيكون لنا رئيس جديد للبلاد، يا جاد، ليته لم يكن طبيب عيون، ليته كان طبيب أمراض تناسلية.

قال لجاد، ثم أشار له أن يجلس، وحين جلس جاد بمواجهته، سأل وارث أسنان أمه إن كان الرئيس الجديد محارباً كما أبيه، وأضاف دون تردد:

- إنه مثل أبيه، أي والله، مثله.

لم يكن أيٌ من السوريين قد غادر فكرته الراسخة في كون الرئيس الجديد هو ابن الرئيس الراحل، ولم يكن يخطر على بال السكّان استبطان فكرة أن الابن سيتحول إلى الرئيس، مرفقاً بحزمة من الألقاب، صاغتها اللغة الجديدة لمهلّلين جُدد، وفي الوقت ذاته، كان سكان البلاد قابلين بفن فيهم القحبة سيرين، التي شقت باب غرفتها؛ لتطلّ على اجتماع جاد الحق جاد الله مع وارث أسنان أمه، وتلف خصلة شعر من غرّتها على إصبعها، وتقول ضاحكة:

- إذا ما كان الدكتور رئيساً جديداً للبلاد، فإنه سيفتح البلاد.. نعم، إنه منفتح، وسيجلب لنا الكثير من الزبائن الذين يدفعون بالعملات الصعبة.

قالت ذلك، وأطلقت ضحكة ساعلة، أعقبتها بالقول:

- يا الله، سأنفتح ثانية.. إن وعداً كهذا يتطلّب مني أن أتوقّع ألف مرّة ومرّة.

قالت ذلك، وفركت عينيها من سهر مزمن؛ لتكشف عن كدمات زرقاء فوق كتفها، ومن ثم؛ لتؤكد لجاد الحق أن لديها زبوناً:"لايملّ من العضّ والقروصة"، وأنه:" مغرم بأفلام البورنو"، وأنه:"لا يأتي إلى هذا الفندق إلاّ بعد أن يحشو دماغه بأفكار سوداء عن المرأة الجروة"، وأنه:" يطالبني بأن أنبح، وأنا أنبح"، ثم:

- هل أنبح لك؟

سألت جاد الحق، وفرقعت ضحكة مرتفعة، ثم استدارت؛ لتغادرهما، وما إن اختفت، حتى أشار وارث أسنان أمه لجاد الحق، إشارات تُنبئ عن اختلال عقلي أصاب هذه البنت، وقد وصفها بالقحبة؛ ليعود مجدداً لسؤاله عن زمّردة.

- كلّ البنات اللواتي اشتغلن معي أصبحن لوردات.. هذه البنت هبلاء، لا

تعرف الطريق إلى فمها.

قال وارث أسنان أمه لجاد الحق، ولم يعدم وسيلة للتأكيد بأنه لا يعرف كيف يُؤنث مفردة اللورد، وما إذا كان ممكناً أن يُسمي البنت:"لوردة"، وأضاف:

- أنت أديب وكاتب ما؟ لم لا تُؤنث هذا الاسم لي؟ ثم:

- أنثه، كلّ مؤنث يفيدنا أكثر من كلّ مذكّر.

هزّ وارث أسنان أمه كتف جاد الحق بعصاه، وبعد قليل، أشار إلى حدبة جاد الحق متسائلاً:

- أ لم تلاحظ أن حدبتك تكبر؟ يوه، لقد بث حدبة، تحمل رجلاً، قال لجاد.

قبل أن يتململ جاد عازماً على المغادرة، سأل الوارث، بهدوء، وبما يشبه الواثق:

- صاحبك عزّ الدين الحكيم خرج من الحكم، ها؟ الرئيس الجديد سيقشطهم جميعاً، لن يُبقي على أحد من هؤلاء التيوس، الزبالة، سيكون له موسم جديد وفاكهة جديدة، جيل من الشباب سيأتي معه إلى الحكم، هيا، تعال، اشتغل عندي، لا أظنّ أنك تصلح لتشتغل في حقوله، لقد بث ثوراً هرماً.

لم يتسنّ لأحد معرفة حقيقة ميتة الرئيس الأب، ولا حقيقة مرضه، ولم يكن أحد يجرؤ أن يسأل، بمن في ذلك غاسل الموتى، الذي دخل حجرة غسيل الموتى؛ ليجد الرئيس متمدداً، وحال أن وقف أمام جثمانه، همس في أذن الرئيس الفسجى:" أ تسمح لي، ياسيدي، أن أضع قطنة في فتحتي أنفك، وفتحتي أذنيك؟"، ثم تفخص عينيه، وأحكم إغلاقهما خوفاً من أن تراه الجثة، ومضى يفرك بليفته جسد الرئيس النحيل، المتغضّن، وجلده المتشقّق الأزرق، وما إن انتهى من دوامة إزالة الصابون عن جسد الفسجى حتى قال معتذراً:

- أقسم، يا سيدي، أنني تشرّفت بأن أصاحبك لهذه الساعة، فرصة سعيدة، يا سيدي.

كان ذلك قبل الإعلان الرسمي عن موت الرئيس، وكان الخبر وصل أنف وارث أسنان أمه، وهو رجل بات من الواضح أنه يعرف ما لا تعرفه أجهزة

استخبارات محترفة، فقد تسلى له بعد خدمات عريقة في استقدام الساقطات من المغرب ولبنان ومصر وتونس وسورية، أن يُحاط برعاية معلوماتية هائلة، بما جعله أشذ اطلاعاً على كواليس البلد وأسراره، وبما جعله يعرف باليقين ما لم يعرفه سوى رجال النخبة، ومن جملة ما كان يعرف، أن توافقاً قد صيغ ما بين نوّاب الرئيس الراحل، وقادة عسكريين، أفضى إلى اختيار الابن؛ ليحلّ مكان والده، في صفقة، ربما جنّبت البلاد ويلات التنافس على السلطة، مع معلومات مضافة، تشير إلى أن اختيار الابن، جاء بوصفه الحلقة الضعيفة بين متنافسين، بوسعهم إدارة ابن الرئيس، وهو ثمرة لم تنضج، والكلّ يراهن على إنضاجها؛ لتكون في صحنه.

قال وارث أسنان أمه، وخلع طقم أسنانه؛ ليعيده إلى فكه ثانية، وتابع ضاحكاً:

- نعم، ها ها ها.. سينضجون الولد في مطابخهم؟ والله، سيأكلهم. ثم عدّل جلسته كما لو سيتلو حكمة:

- كل الثمار تزرعها؛ لتحصدها سوى الإنسان، تزرعه؛ ليحصدك، إنّ هذا الرجل سيحصد زارعيه.

منذ أن دخل جاد الحق إلى فندق وارث أسنان أمه، لاحظ الثاني نظرات جاد المستغربة، وكان عليه أن يُفصّل أكثر في سرّ التطورات الهائلة التي وقعت عليه، والتي يستغربها جاد، فالرجل يحكي في السياسة، وينقّب في تفاصيل ما ستشهده البلاد، ويقول بلغة العارف:

- إنّها صيغة متوافق عليها دولياً، لقد توافق بيل كلينتون مع الرئيس الراحل عليها.

وبعدها:

- أنت لا تصدّقني، ها؟ إنني من الرجال الذين يستحمّون بالشمبانيا، ويدلقون الويسكي من النوافذ، إن فرق رقص لا تحلم لا أنت ولا سواك حتى بمشاهدتها ترقص فوق سريري عارية.. أنا من يفهم بالسياسة.

لم يتسنّ لأحد من سكان حي الضبارة فيما سبق، أن يعرف شيئاً عن سلالة الوارث هذا، وجلّ ما يعرفونه، لم يكن يكفي لكتابة بطاقة تعريف صغيرة، لا تحمل كنيته، غير أن تطورات شديدة الغرابة، طرأت على حياته

منذ سبعينيات القرن الفائت وصولاً إلى مطلع القرن الواحد والعشرين، فالخدمات الجنسية التي قدمها لرجال مهمين، فتحت أذنيه على طريق واسعة لالتقاط أسرار وخفايا البلد، بما مكنه من أن يعرف شيئاً من كلّ شيء، ومن هذا الشيء، يفتح ثقوباً في أفواه محدثيه للانتقال إلى كلّ شيء، فأصبح أرشيفاً مغلقاً، مطوقاً بأسمال الأمس، وهو الرجل الذي لم يواجه حرجاً ولو لمرة واحدة، في دخول مطعم الفرسان، متجولاً بين صفوف الطبقة الراقية، شارحاً لسيداتها أشكال المتع الصينية، وهو مروّجاً لتلك الأكياس الوافدة إلى البلاد، والتي لا تلبث أن تعيد حس البكارة لنساء أهرمهن الزواج المبكر، وكنّ دائمات الغيرة من نسائه اللواتي يمتهنّ جنس الأجرة، ويتنقلن بين شقق العاصمة، ويُحدثنَ بلبلة في صفوف رجال، ملّوا زوجاتهم، ويسافرن إذا ما اقتضت الضرورة إلى بلدان الخليج العربي، ويستمتعن بقاعدة، تعلّمنها من وارث أسنان أمه:

- الرجل كرة معلّقة بمطاطة.. لا تقذفيه إلاّ ليعود إليك، ولكنْ؛ احرصي على ركله.. الرجل هو كرة اليويو.. لا تنسي.. إنه يويو.

كان هذا مايردده على مسامعهن، ودون ريب، فإن كلاماً كهذا كان سمعه من فرنسا، وهو يندلق مصغياً إلى سخرياتها المرة، وكانت النساء المصغيات إلى حكمته، قد أتقنّ الصنعة، وهو من أبقى على الدميمات منهنّ في هذا الفندق، فيما وزع وارثات السلالات الجميلة على فنادق العاصمة ذات النجوم الخمس، محتلات المقاعد الوارفة في ديسكو فندق شيراتون؛ حيث تتبدل شراشفهن، ويحظين بالمناديل الورقية المعطرة، بعد أن بات وارث أسنان أمه من كبار موزدي النساء إلى ليالي العاصمة، ما جعله واحداً من شياطينها، بفارق أن سلساً بولياً أصابه، جعله دائم النهوض والتوجه إلى المراحيض، ولم يكن في لحظات حزينة من الاسترخاء، ليمنع نفسه من التبوّل في ملابسه، وهذا ما حدث معه أكثر من مرة، ربما أكثرها متعة تلك التي أحدث فيها جلبة هائلة في واحدة من الفيلات الضخمة، وكان يصرخ بصوت مرتفع:

- لقد بللت نفسي من الضحك.. برئك، أعد نكتتك، يا سيدي.

كان ذلك في حفل، اقتصر على أصدقاء وبنات، في فيلا من مزرعة بمحاذاة الجسر الخامس من طريق مطار دمشق الدولي؛ حيث استمز ضابط استخبارات كبير يحكي نكات بذيئة، عاجزة، شائخة، وكان على وارث أسنان أمه أن يُثبت بما يقطع الشك باليقين أن للرجل سحنة

تُضحك.

- اضحك.

أشار وارث أسنان أفه لجاد الحق، وقد وخزه بعصاه ثانية؛ ليقول له بلغة حكيمة هادئة، لا يحكيها سوى الموتى:" الطريقة الوحيدة الرائعة لتبديل حياتنا هي أن نضحك"، وكانت شاشة التلفاز تبث ما بعد التراتيل والآيات القرآنية مجموعة من اللقاءات التلفزيونية مع نساء مفجوعات، يبكين الرئيس الراحل، فيما آلاف الرجال الباكين يستقبلون طائرة الرئيس التي جاءت بالجثة، وها هو الرئيس الشاب، يلقي خطاب آل الفقيد، ملتفاً بمعطف فضفاض أسود، والرياح تؤرجح ورق الخطاب من بين يديه، مُحاطاً بحراسات مشدّدة، مُذبة، ورجال باكين، معظمهم من أئمة المساجد، ورجال دين من سنة، وشيعة، وعلويين، ودروز، ورجال كهنوت من مختلف المذاهب المسيحية، وكانت برقيات التعزية تهطل محمّلة بورود صغيرة، بألوان، لا لون لها، منثورة فوق سماء، فقدت لونها.

اضحك، كرّر وارث أسنان أفه القول لجاد الحق، نعم، لاشيء لا يُضحِك، كلّ شيء يُمكنه أن يحمل روحاً مرحة، إن أحببتَ، وإذا لم تكن تعرف أن هذه هي حقيقة الحياة البشرية، فأنت رجل جاهل، ولن يفيدك شيء بعدها، إنني ومنذ عرفتُ طريق الضحك، لم أعد أسلك طريقاً غيره، قال لجاد الحق، ثم لكزه بعصاه للمرّة الثالثة، مُنبهاً، وهو يتابع القول إن كلّ هؤلاء الباكين، ليسوا سوى ثمرة من ثمار الكذبة، فالبكاء، هو الكذبة بعينها، ولو لم يكن كذلك، لما اتخذته البشرية طريقاً لها منذ أول ميتة، أعلنت فوق هذا الكوكب، و:" ثم تصوّر لو غرقت سفينة نوح، أ ليس مُضحكاً أن يموت الحمير، مع الجمال، مع البشر، ولا أدري ما كان ذلك الطائر الناجي.. صحيح.. إنه الهدهد؟! أ لم يكن يضحك عليهم، وهم يغرقون مع أشيائهم؟ حتى إنني أسمع صوته، ما يزال يضحك إلى اللحظة، إن سلالته سلالة ضاحكة، وسأكون أنا الطير الناجي من سفينتكم، إنّ قليلاً من القوادة، وكثيراً من الضحك، يكفيك لتعيش حياتك كاملة".

لم يكد وارث أسنان أفه يقف عند استخلاصه هذا حتى وقف، وهو يسدد عكازه إلى وجه الرئيس المرتقب: " إنه نتيجة التكاثر، انظر إلى قسماته، عينان صغيرتان، أذنان مربعتان، ورقبة طويلة، ولا أشك بأنه سيقود سفينتنا إلى الغرق، نعم، سيقودها إلى الغرق، وسأكون وحدي الطير الذي سينجو، وسأكون ذكرَ الهدهد.. أنا ذكرُ الهدهد، وأنت الحمار الغارق

في أحزانك وحوافرك، ياجاد الحق.. اضحك، يا رجل".

في الليلة نفسها، وعندما جلس جاد الحق إلى مائدة العشاء مع وارث أسنان أمه، تثاءب وارث أسنان أمه، ثم صمت، وكان مفتوح العينين بملئهما، وكان مبتسماً، وما الشحوب الذي ظهر فوق وجهه سوى جملة من نض الضحك الطويل الذي عاشه الرجل، وحين تطلّع إليه جاد الحق مُتفحصاً، انتابه شكٌ بأن الرجل قد مات فعلاً، ودون أن يمدّ يده إليه ليحرّكه، وقف وهو يتأمله بعينين راجيتين أنْ: " لا تمت"، ولم تكد القحبة سيرين تدخل عليهما، حتى وقفت تصرخ:

- إنه ميت، هذه المرّة، إنه ميت، في كلّ مرّة، كان يكذب علينا.. هذه المرّة هو لا يكذب.

وما إن هزّته حتى انقلب عن الكرسي، وتساقط مع وقوعه الفك الأعلى من طقم أسنانه، وبرز خارج فمه، ليتعالى صراخ سيرين القحبة، وتلتئم مجموعة من صبيان الفندق، وبنات الغرف المختبئات في رطوبة أسرّتهنّ، ويخرجن على هيئة نذابات، يرفعنَ أصواتهنّ مولولات، ومع تعالي صرخاتهنّ الموجوعة، كان المارّة في شارع النصر المواجه للقصر العدلي، يظنّون بأن النذابات إنما يندبن الرئيس الراحل، ويمزّقن ثيابهنّ واقفات على شرفات الفندق، ويلوّحن بكلاسينهنّ، ورافعات أثدائهنّ، مودّعات أعظم رئيس شهدتْه الأمّة، فيما كان جاد الحق ينزل درج الفندق مثقلاً بحدبته.

بهدوء وتأمّل كان ينزل، وكان يعبث بروحه؛ لكي يواتيها الضحك، دون أن ينجز سوى استحالة أن يضحك، وهاهو يجز قامته متّجهاً ثانية إلى حيث يقاسي قلبه، وهو يتلمس جدراناً، شاء أن يعتقد بأن أصابع أنـا لامستها، شاقاً طريقه نحو باب الجابية، هناك؛ حيث الكرخانة الأولى التي عرفت السيدة فرنسا، وفيها كان عليه أن يُبطئ خطوته، ويتطلّع إلى نوافذ مُغلقة، وأبواب خشبية مُتآكلة، بمغاليق معدنية صدئة، وما إن جلس على الرصيف المواجه لنافذة، أزالت الأيدي العابثة خشبها، الا وجاءه شاب بالغ الوسامة؛ ليقول له:

- انهض، يا عمّنا.. هل تحتاج إلى مساعدة؟

بدا الشاب سؤالاً يمشي على قدمين، كما سهمين يشقّان طريقهما في الشارع الموصل ما بين باب الجابية وحي الأمين، وحين باتا هو وجاد

الحق في منتصف الساحة، سأل جاد الله الشابّ راجياً منه إجابة:

- هل ستعود أنّا؟

- هل تتفضل بإخباري من هي أنّا؟

- إنها معلّمتي، سبابتها هي حرف الألف.

- ماذا؟

- صدّقني، سبابتها حرف الألف، وأنفاسها حرف الهاء، وهي أجمل عازفة بيانو.

- هنا بيتي، هل تتفضل بزيارتي.

- قبل ذلك، تعال، نذهب سويّة إلى آنـا.

- هذا يعني أنك تعرف مكانها.

- بالتأكيد.

- إذن؛ هي موجودة، وليست غائبة؛ لتعود.

- هي غائبة، ولكنها موجودة، وأنتَ.. هل عرفتَ بنتاً مثل آنـا؟

- مثلها؟ مثلها؟

- كان عليك أن تعرف، تعلّم أن تعثر على آنـا، وحين تجدها، عليك أن لا تضيعها.

يقولون إن الحرب تجعل المرء يعيش مع المهجور، ولقد مرّت ثلاثة حروب على غيابها، حرب الـ ٦٧ وحرب ٧٣ واجتياح بيروت ٨٢، وحرب ٢٠٠٦، عداك عن الحروب الصغرى، وكلّ خوفي أن تكون من البنات اللواتي ينتظمن في الجيش الإسرائيلي. إن مجرّد ذهابها إلى الجيش، ولو بصفة عازفة بيانو، سيعرّضها للقتل، نعم، الأمر سيكون كذلك، ولكن؛ ما يجعلني أكثر اطمئناناً، أنه من الصعب على الجندي أن ينقل - بالإضافة إلى عتاده الحربي - جهاز بيانو، فهو آلة ثقيلة الوزن، ولن يكون بوسع الجندي أن يحمل بيانو مع عتاده الحربي، لو كانت عازفة فلوت أو ناي أو طبلة، لكنتُ أكثر قلقاً ممّا أنا عليه الآن.

كان جاد الحق يهذي، ولابدّ أن الشابّ الذي لم يسأله اسمه بعد، كان

على دراية من أن كلاماً كهذا ليس إلا كلام هاذٍ، يمشي بحدبة ضخمة، وقدماه تترنحان تحته، وكان الشاب يبطئ خطواته آملاً في أن يستوعب التفاصيل الصغيرة للرجل الغريب الذي قلّما تُصادفه في أزقّة عاصمة، تركض حاملة أولادها على أكتافها في مزيج من رأفة وملل.

قال له الشاب، تعال إلى بيتي، وأعدك بأن نُحضِر آنـا إلينا، وأعدك أن نشرب الشاي على جمر نشارة الخشب، هل توافقني؟

نشارة الخشب؟

عنوان بدا أقرب ما يكون إلى عالم السمفوني، مثل كسارة البندق، أو بحيرة البجع، أو العاصفة، إذن:

- خذني معك.

ما تزال ياسمينة سيدة صبورة، غير أنه لم يكن بمقدورها أن تنتظر أكثر عن ما يزيد عن ستين سنة؛ ليلتفت جاد الحق إليها. كما يلتفت الأزاوج إلى زوجاتهم، أو محض ذكر إلى أنثى. ففي الوقت الذي كانت يدها تسند رأسه وكرسيه المتحرك، وهي تحيطه برعايتها في ساحة مشفى المجتهد، كان منشغلاً بامرأة أخرى، بل بمجموع نساء، ومن دون شك، كانت تقرأ خواطره وهواجسه، وتعرف حقيقة ما تدحرجه ذاكرة زوجها في هذه اللحظة التي تستلزم استشعار الخطر، وكانت المدفعية تدك ضواحي العاصمة برشقات، لا تملّ، فيما الاشتباكات بالرصاص الحي إلى الجوار من مشفى المجتهد ما تزال مستمرة، وإن كانت تتوقّف؛ ليحل مكانها سكون مفاجئ مقلق.

في هذا التوقيت؛ حيث يطول الصمت أكثر من المتوقّع، وما يزال جاد الحق فوق كرسيه المتحرك، وهو يتطلّع نحو السماء الغائمة، وكان الوقت قارب الفجر شرق المتوسط، حدثت انفجارات، كما زلزال رجّ كرسيه المتحرك؛ لتختلط الغيوم بسخام صواريخ اسرائيلية دكّت مرابض صواريخ سورية، ومركزاً للأبحاث الحربية في جبل قاسيون المطلّ على العاصمة، وسط تكبيرات صفقت للقصف، باعتباره بهجة لفصائل معارضة مسلّحة، حلّت الصواريخ الإسرائيلية مكان سواطيرها، وقد تركت مئات الرؤوس المقطوعة المتأرجحة فوق رماح وهتافات إسلاميين وافدين من ظلام التاريخ ومجاهيله وغته قامته.. نعم، كانت البلاد تتأرجح ما بين مسارين اثنين، لم يبدُ أن ثمة ثالث لهما:

- بين الصاروخ والساطور.

وكانت أعناق شباب البلاد تتطاير في حمى الدم الهالك ما بينهما.

لم تكن ياسمينة لتهتزّ مع اهتزازات المكان والنوافذ والعساكر المتأهبين وراء متاريسهم، فاكتشافها لحقيقة ذاكرة زوجها كان يؤرجحها بين أن تستكين كما هزة هرمة، أو أن تنكأ جراحها المتراكمة، وتدفع كرسيه بعيداً عنها؛ ليصطدم بأي شيء، يواجهه، ولتكن النتائج مزيداً من تكسير عظام رجل، طالما أعمل خبرته في تكسير عظامه غير آبه بنتائج ما سيحصل،

غير أن ترددها، لم يخلُ دون أن تتخذ موقفاً وسطاً بين الخيارين، ما جعلها تدفع الكرسي المتحرك بقوة؛ لتفلت مقبضه من يدها، وكان وهو يهتز في كرسيه دون أن يقع، لا يكلّ من استعادة تفاصيل حياته، وكأنما يربط ذاكرته بخيط من الفولاذ؛ ليجزها إليه حالما يستدعي الذاكرة.

نعم، هذا ما حصل في ساحة مشفى المجتهد، وليس بالأمر اليسير التحقق من ذلك، غير أن جاد الحق، أطلق بما يشبه الهذيان اسم عزرا، وكان يعلم أن مخطوطات عزرا ذهبت إلى غير مكانها، فاليهودي الطيب، لم يكن يعرف كيف بوسعه أن يمنح أمانته لمن يجب عليه أن يحمل الأمانة، كما الرجال الجديرين بالثقة، وهذا بالضبط ما كان جاد الحق يدركه، وما كان صعباً عليه، هو أن يتجاوز إدراكه هذا مخضباً بعقدة ذنب وتبكيت نفس شاخت، وكان عليه أن يرفع روحه من كساحها، فحين نطق أمام عز الدين الحكيم ليقول إنه مؤتمن على مخطوطات ذات قيمة، لا تثمن، وكان ذلك في ثمانينات القرن الفائت، قال له عز الدين الحكيم آمراً بأن يُحضِرها، وما إن نبش جاد الحق الغطاء عن مخطوطات عزرا؛ ليحملها ملفوفة إلى عز الدين الحكيم، حتى سارع الثاني إلى منحها للشخصية الأبرز في البلاد، ليقول له:

- سيدي العقيد، إنني أحمل لك ثروة هائلة.

كان السيد العقيد، يجوب البلاد طولاً وعرضاً، وخلفه مفارز هائلة من سرايا الدفاع المحصنة ضد الموت والسؤال، ولم يكن على العقيد، الشخص الثاني في إدارة البلاد، بعد أخيه الرئيس، سوى الحفر في جدران سورية، ومغاورها، ومدافنها، ومع كلّ حفرة، كانت معاول منقبي الآثار، تُفتت رؤوس سادة، حكموا روما، وبيزنطا، ووصلوا إلى سورية؛ ليحفظوا فيها ذواكرهم في جماجم بمحاذاة جرار الذهب.

- المعلّم مبسوط منك، قال له عز الدين الحكيم.

ولم يكن جاد الحق يعلم ماذا يعني بقوله مبسوط منك، ولم يكن يبحث عن هكذا جائزة. كلّ ما كان يبحث عنه في سريرته، هو أن يتساق فقط، بعينين مذهولتين، وفم يتمتم، وضحكة تتعقد البلاهة، وبعض من جلسات إلى حافة مائدة مع فاركي ظهر عز الدين الحكيم ومقلّمي أظافره؛ ليأكل بشهية منقطعة، ويلقي رذاذ فمه فوق المائدة، ولم يكن الساخرون منه يُبطلون حركة أفواههم الماضغة لرقائق اللحم، مع جرعات من بقايا ويسكي؛ لينهض جاد الحق مترنّحاً إلى حمامات الميريديان، ويُفرغ معدته

في المفاصل وفوق الجدران، وفي إحدى المرّات على ظهر ظاهر النائب في البرلمان، ومندوب الطبقة العاملة الذي استعار عنوان فيلم شهير، وحطّه فوق طاولة مكتبه: "الطبقة العاملة تدخل الجنّة".

- ما هذا؟ ما الذي فعلته بي؟ قال له ظاهر، وصفعه.

لم يكن عزّ الدين الحكيم يسمح بمثل هذه التصرّفات الجائرة، وليس من السهل على رجل بحجمه ومكانته، أن يسمح لأيّ كان بإهانة جاد الحق، وقد غدا ظلّه، ولهذا وعندما جمعهما في مكتبة في الليلة ذاتها، طلب من جاد الحق أن يعود ثانية إلى التقيؤ في وجه ظاهر النائب، وليس فوق ظهره، ولم تكن معدة جاد الحق لتسعفه، ما أغضب السيد عزّ الدين الحكيم، فكزّر:

- تقيأ فوق وجهه، يا جحش.. تقيأ، واستعذ كرامتك.

بكى جاد الحق، وحين نهض عزّ الدين الحكيم ليهزّ جاد الحق بكلّ قواه، استسلمت معدة جاد إلى يد عزّ الدين الحكيم، ونفث قيأه في وجه النائب ظاهر، ثم أمرهما عزّ الدين الحكيم أن يتعانقا، فليس هنالك مكانٌ لتتحوّل الطبقة العاملة إلى طبقة ناقمة، وليس ثمّة ما هو أعذب من التسامح، قال لهما بمسحة رسولية:

- ولكن؛ بعد أن يصل كلّ ذي حقّ إلى حقّه.

ما بدا ممكناً والكرسي يتدحرج في ساحة مشفى المجتهد، أن غثياناً شديداً أصاب جاد الحق، وكانت معدته على وشك أن تقفز من بين أضلاعه، ولم يكن من السهل على ياسمينة أن تتقبل آلام زوجها برضى، وبدت، وهي تحضنه، وكأنها تودّع عمراً سيأتي، نعم، سيأتي، قالت لنفسها، وكأنها على يقين من أن لحظات حياته الأخيرة ستكون اعترافاً، يُطلقه جاد الحق بملء حنجرته، اعترافاً، يُعلن لها أنك: "سيدتي، وياسمينة عمري، وها أنذا سأكون إلى جانبك، وستكونين معي في قبري ملتفّة بكفني؛ لأبوح لك من تحت كفننا أسراراً، لم أقلها فوق سريرنا يوماً"، وما لم يقله: "إنني نهاية سلالة جينية، يا ياسمينة.. سلالة ستنقرض، ولهذا كنتُ أجوب الحياة؛ لأنها لن تحدث لي سوى مرّة واحدة، وهي مرّة لا تكفيني، فأنا رجل أستهلك المئة سنة بيوم واحد، وكان عليّ أن أستطلع جسدي حبّة حبّة.. امرأة امرأة.. حجراً حجراً، وكان عليّ أن أقلب جوف حياتي؛ لأرى كلّ تفاصيل خرائطي الجينية، ولم يكن لديّ متسع من الوقت لأحكي.. إن فمي قطعة

زائدةً بي، لا يتعدّى كونه مُجزد ممرّ للهواء، يعبر رئتي، وقد امتلأتا بسخام مُدن خربة"، و:" لو كنتُ أعلم أنني حي كما كنتِ تظنين، لكنتُ سألتكِ إذا ما كان الطمث ضرورياً لمشاعر امرأة؛ كي تكون على يقين من كونها امرأة" و:" هذه حدبتي أحملها فوق ظهري، ومن الفضيلة أن أقول لك ما هو أكثر... إنّ مُجزد حدبة في ظهر رجل، تجعله رجلاً مختلفاً، متفرّداً، رجلاً لا ينتمي إلى فصيلة مُدلّكي الظهور ومُقلّمي الأظافر، وليس ثمّة واحد مثلي صالحٌ، ليكون فارك ظهر، أو مقلّم أظافر، وانظري، السيناتور ظاهر يقلّم أظافر المعلّم، ويفرك له ظهره، أبو قيس رجل المهمّات الأكثر سرّية، يُقلّم أظافر عزّ الدين الحكيم، ويفرُك له إليتيه، وما تحت بطنه، الجنرالات الكبار يأتون إلى عزّ الدين الحكيم للاطمئنان عن ظهره، وما دون ظهره، وليس من جنرالٍ واحدٍ إلاّ ويعتقد أن لظهر عزّ الدين الحكيم قيماً استراتيجية كبرى، وها أنذا فوق كرسيي المتحرّك، وكلّ ما عليك فعله هو أن تركلي الكرسي أكثر، علّه يتدحرج إلى آخرتي، وما أخافه، هو أنه ليست لي آخرة، كما كلّ البشر، إنني البداية، بداية نهاية نسل ينقرض".

قالت ياسمينة بلهجة حزينة، إن الكرسي أفلت من يدها رغماً عنها، ولم تكد تستكمل اعتذارها، وزفرات دموعها، حتى عاد حرّاس المشفى لحثها بتأدّب على مغادرة الساحة، فـ:

- يا خالة، إن وقفتك هنا مع هذا الكرسي، تعيق سيارات الإسعاف من دخول المشفى.

- لم نعثر على تاكسي في هذا الفجر، إن أولادي ذهبوا للعثور على تاكسي، وحال عودتهم سنغادر، صدقني.

أولادي؟ تساءل جاد الحق، وكان على يقين بأن الحبل والولادة، عمليتان لا تزيدان عن كونهما حادثاً بيولوجياً، وكان ممتلئاً باعتقاده هذا، إلى درجة أنه ثابر - ولنصف قرن من عمره - على قراءة أبي العلاء المعرّي، مُعتقداً أن روح النبوّة لم تغادر شيخ المعرّة، ومن غادره، هم البشر البيولوجيون، الذين عبروا الشيخ بخلايا كسولة مترنّحة، فقدت بصيرتها، كما فقد الشيخ بصره، وكان جاد الحق مؤمناً أيّما إيمانٍ بأنه في الطريق إلى إيهام نفسه، بأن ليلة المضاجعة القصوى مع ياسمينة، لم تكن كافية لتحبيل امرأة، وكان يرجو في قرارة نفسه أن يكون الولد الثاني ابناً لعابر سبيلٍ، كما الصبي الأوّل الذي جاءه مكوّراً في رحم ياسمينة ما قبل زواجه منها عندما كانت بنتاً تخدم في بيوت مرفّهي العاصمة، بنتاً تسرق له سمكة

مشوية، وقطع حلوى، وتفرد أصابع قدميها، وهي واقفة أمامه؛ لتقول له:

- فرنسا تكرهني.

في حقيقة الأمر، وهذا ما لم يدركه أحد من جيل فرنسا، أنها امرأة لم تكن لتتيح لقلبها أن يعترف بالكراهية، غير أنها ملّت أزقّة حي الضبارة، وكانت تجئ إلى شرفة في الطبقة الأولى من بيوت حي المالكي الأكثر صبا من بقية أحياء المدينة الهرمة، وكانت كلّما توقّفت عند حديقة الجاحظ، تنظر إلى الأعلى، فلا تعثر على أيٍ من سكان الأبنية فاتحاً نافذته؛ ليجلس على الشرفة ما جعلها أكثر اعتقاداً بأن موتى هذا الحي، سطوا على منازل الأحياء فيها، وهي امرأة حية، تستدرج في ثناياها ملايين السنين من رغبات إنسان منسية، وكانت تستطلع بعين نفّاذة ما يختبئ خلف النوافذ المغلقة، متعقدة اصطياد رجل واحد من سكان هذه الأبنية؛ لتغمز، وتقول له:

- سأبسطك.

حدث ذلك، فحين كان شيخ السوق، وهو أحد أثرياء سوق الحميدية، يُصحح عمامته، ويخرج من بوابة بالغة الترف، غمزت له، ولم يتوان الشيخ عن طلبها قائلاً:

- عندي في المخزن.

- لا.. قالت له.

وأكّدت:

- في بيتك، وفوق سرير زوجتك.

- أخاف أن تعود من بلودان على حين غرة.. إنها شيطانة.

- وأنا إبليس المؤنث.

كلّ شيء بدا مرتباً.. ثريات السقف المتدلّية بدت ثقيلة ووازنة، المفروشات المستوردة من معارض السلطان سليم الأول.. السجاد الفارسي... اللوحات المكتوبة بماء وخيط الذهب:" وبالوالدين احساناً"، صحون القيشاني المعروضة، كما لو كانت سجينة خزانة خشب الجوز بعروقه المعشقة العاشقة، وكان شيخ السوق يخلع بنطاله؛ ليظهر من تحت بنطاله كلسونٌ فضفاضٌ، يصل إلى كاحليه، ويفضح نحول جسده.

حين وقف أمامها، وهو يرفع كلسونه؛ ليعاود الكلسون الانحدار للأسفل، قالت له:

- لن أنام معك.

- ماذا؟

- أنت أحوج إلى صابونة مني.. هيا، حاول أن تستخدم يدك، يدك اليمنى ها؟ اليد اليسرى ملعونة ونجسة.

لم يخرج من ذهوله حتى فتحت باب الشرفة، وخرجت إليها، وما إن تنبه حتى ركبه الارتباك والتوتر؛ ليقفز، وهو ينقر فوق زجاج باب الشرفة هامساً، عاضاً أصابعه بأسنانه:

- عودي.. ما الذي أخرجك إلى الشرفة؟

استمتعت فرنسا أيما استمتاع لمجرد أن تدلّت بعنقها من درابزين الشرفة، وبدت كما لو أنها حققت نصراً مظفراً على المكان السؤال، وقد ضغط رئتيها منذ أن عبرت هذا المكان لأول مرة، وكادت أن تنسى نافذتها في كرخانة باب الجابية؛ حيث تمد يدها حاملة طشت ماء ملوثاً ببقايا اغتسالها؛ لترميه فوق عابر، يتلفت نحوها مصالباً سبابتيه؛ ليصفر لها صفيراً متقطعاً، يشي باستخفاف بالغ بفتنتها.

- إذن؛ ها هي شرفاتكم؟ قالت له، ثم:

- ادخلي، أرجوكِ.

رجاها بصوت باكٍ، وما إن كرر رجاءاته، حتى اقتربت من الباب المفتوح نصف فتحة، وقالت له:

- من عندي الشراميط، ومن عندك الشرفة، موافق؟ تعال، نقايض.

قبل أن تغادره، وقد أملت عليه استخدام يده اليمنى، فازت بسبحة، حباتها من الحجر الكريم، وبكمشة من الأوراق المالية، وبثلاثة كلاسين من كلاسين زوجته، وبمنفضة سجائر من أفخر أنواع الكريستال التشيكي، كما اقتنصت صحن قيشاني مكسوراً من حافته، وساعة جيب من الفضة، أما هو؛ فكان كما جرو يخاف النباح خوفاً من افتضاح أمره، وكانت تسير متمهلة الخطوة، تتحرك ببطء وغنج، وهو يرجوها مغادرة المكان فوراً، و:

- اطلبي ما تشائين، مخازني كلّها تحت تصرفكِ.. فقط اخرجي من

بيتي.

الله، يا فرنسا.. همس جاد الحق، ولم تكد ياسمينة تقرّب أذنها من فمه حتى قال لها:

- لا تدعيني أموت قبلك.. أرجوك، موتي قبلي.

- ها.. ما الذي تقوله؟

- لأحكي لك.. يووه، كثيرة هي الأسرار التي لن تعرفيها، إذا لم تكوني ميتة.

- احك لي الآن، وأنا حية.

- لا.. لا يجدر برجل محترم أن يودع سرّه عند الأحياء.. إن الحكمة تقتضي أن تودع أسرارك عند الموتى.. فقط الموتى.

- عن أية أسرار تحكي؟

من العبث، أن يحدثها عمّا آلت إليه غنائم فرنسا، فما إن عادت فرنسا من بيت الرجل، حتى نثرت غنائمها فوق حي الضبارة.. منفضة السجائر خصصتها لخمارة جبرا، وصحن القيشاني باعته لوارث أسنان أمه، وساعة الجيب منحتها هدية لهوزان، وكافأها بأن ضم راحتيه على هيئة صَدَفَة بحرية، وراح يعزف بفمه، وبدا حي الضبارة أكثر ابتهاجاً من سابق عمره، وأمضى الحي ليلة قمرية مضاءة بالضحكات، والسعال، وقرقوصات رجال ونساء يحتفلن بغنائم فرنسا. ولم يكد جبرا يتكئ على بوابة خمارته، حتى تسللت إحدى بنات الحي إلى قلب الخمارة؛ لتقول له:

- جبرا.. ضمّني.. بالله عليك، ضمّني.

كانت خمارة جبرا فارغة من زبائنها، ولم تكد البنت تكمل طلبها، حتى رفع فستانها؛ ليضمها، وها هو جبرا اليوم، ينسى متعمداً أن يَعزل ذاكرة الماضي كلّه، وقد سكن إلى زمزدة؛ ليقول لها:

- سنغلبه معاً، إن كتلة مصابة، هي خلاصة جنون الجسد، هي مجرّد كتلة جُثث، ومن حقّها أن تكون كذلك، كذا أنا رجل مجنون بك.

قال لها ذلك، ثم ضمّها راكعاً، وفمه يلتصق ببطنها، وكان يحكي كما يحتضر، ويكزز:

- أنا مجنون بك.

لم يكن يسمع ضجيج الخارج، وقد ذهبت العاصمة إلى الفوز بجرأة نادرة، هي خلاصة سنوات من محاكم الجرائم المتصلة بأمن الدولة، أو أخرى متعلّقة بتداول ونشر الأخبار الكاذبة، كانت السجون تغض برجال، اختفت أخبارهم ومصائرهم، فبعد رحيل رجل القبضة الفولاذية؛ ليحلّ ابنه مكانه، عقم ابنه هجر الأرياف، والاستيلاء على ممتلكات السكّان، وحثّ أخواله وسلالاتهم على التقاط الصور التذكارية، ونشرها فوق شاخصات طرقية، تتهامس قائلة:

- أيها المواطنون.. أنتم ملك لنا.

عبر جاد الحق ساحة حي الأمين، وهو يجز حدبته وراء الشاب الذي تعرف إليه قبل سنوات خلت. سأل جاد الحق الشاب إن كان متزوجاً، ثم سأله سؤالاً لاحقاً:

- ما اسمك؟

- نسيتَ؟ أنا أوس، لقد سبق، وأجبتك.

أجابه الشاب، وسرّع خطوته، ولم يكن جاد الحق قادراً على اللحاق به، وحين توقف أوس؛ ليحتضن قطة فالتة، ويركلها، متابعاً سيره، كان جاد الحق يتابع السير وراءه، ولكن؛ بخطوات مُجهدة.

لم تكن الساعة تتجاوز الغروب، وكان على جاد الحق أن يُبدد مخاوفه من قدوم الليل، فقد باتت تراوده - ومنذ مقتل جورجيت - كوابيس بائسة، يهوي فيها من أماكن شاهقة؛ ليصحو من نومه فزعاً، ويحيل مناماته إلى سوء تفاهم ما بينه وبين نفسه، ومع توالي منام السقوط من الشاهق المرتفع، بات جاد الحق يعتقد أن الليل مجرد نذير شؤم، يملؤه خوفاً وسوء مزاج.

على الرغم من أنه أقنع نفسه بأن موت جورجيت خلاص لها، وعلى الرغم من قناعته بأن الإنسان مجرد آلة كيميائية تُصنع من العدم؛ لتلتحق بالعدم، غير أن عينيها كانتا تطاردانه مفتوحتين على صورته حتى بعد أن مسح صورته من محجريها ببرنسها.

كانت فرائصه ترتعد خوفاً من أن تأخذه بعينيها إلى حتفه.. لم يكن هنالك كائن خارج معادلة الكيمياء، بالنسبة إليه، سوى آلـا، فهي من عطر وضوء، كما كان يعتقد، ولكنه كان يصاب بالخيبة وموت الرجاء كلما فكر بأنها هجرته، وهاجرت، كانت صورتها تنغرز في عمق أعماقه كشوكة؛ لتدفعه إلى القفز من مكانه، ومعانقة صورتها، ثم لا يلبث ضوؤها أن يغيب عن عينيه، ثم يعود إليهما؛ ليسدل جفنيه ثانيةً.

حال أن وصل أزقة حي الأمين المتعرجة سائراً خلف أوس، وأقدامه

تنزاح أمامه وحدبته تلتصق في ظهره، شعر بأنه في رحلة جديدة، يسعى فيها إلى العيش مع أحلامه.. أحلامه فقط، كان يحلم بوجه آنـا، وقد غسله الضوء وفوقه شمس قوية شرسة، وكان يعتقد أنه مادام قادراً على الحلم بآنـا، فلهذا معنى واحد، هو أنه يملك غده.

- غده؟

كان يقامر في هذه اللحظات بالانسلاخ نحو توحد نهائي، كاحتجاج ذاتي ضد نفسه السائبة، ففي الوحدة وحدها يمتلك أحلامه، وان كانت أحلاماً تتأرجح ما بين عرائس الخبّ اليانع، وقد صاغها في آنـا، وبين العدم، وقد استلقى إلى جانب جورجيت في قبرها.. كان يمهد سبيله لأحكام سليمة، يمضي بها إلى بقية حياته.

في هذا الزقاق، رسم وجهها ألف مرة، وكان يحاكيها معترفاً لها بعاره، وكان يمتلك شجاعة أن يقول لها:

- إذا ما وقعت الحرب بيننا وبين إسرائيل، فلن أطلق رصاصة واحدة.

ثم يبزر كلامه بمخاوفه في أن تخطئ الرصاصات هدفها، وتصيبها، ثم كان يكزر بصوت مرتفع، رصين، لا يخلو من الحزن، اعتذاره منها على أحلام، تطال أنوثتها، ومن بعد اعتذاره، كان يكزر قائلاً:

- على المرء أن يسعى إلى أحلامه، إن امتلاك الحلم لا يتطلّب سوى رجل يحلم.

البوابات المغلقة في الحي اليهودي، حوّلته إلى فريسة خبْث، يعشش في أزقّة الحي ونوافذه، تخيله ذاك أغلق باب حلمه نهائياً، ثم توقّف، وهو ينظر إلى أوس؛ ليقول متسائلاً:

- هل وصلنا؟

- هنا، هذا بيتي. أجابه أوس.

شرائح ملوّنة من القصب، طرّزتها أيد خبيرة؛ لتكون لوحات جدارية، وسلالٌ مختلفة الأحجام، وأطباق مدوّرة، وفي الزوايا أحواض أصبغة أرجوانية، خضراء، حمراء، زرقاء، صفراء، وفي المساحات الفالتة من اللون أكياس برغل وحمّص وسكّر وشاي، وعبوات حليب أطفال مختلفة، وحفّاضات أطفال أيضاً، وصندوق أدوية، ومواد إسعافية للحالات العاجلة.

كان سكن أوس غرفة صغيرة، حوّلتها تظاهرات دمشق إلى ورشة إغاثة للمتظاهرين، ولم تكن الإصابات تتجاوز حدوداً قالت عنها صحفية فرنسية ضيفة على الورشة، إنها بداية لحرب دامية، وكانت بنتٌ متخرّجةٌ من مدرسة اللاييك تُترجم لها، وما إن دخل جاد الحق حتى أحسّ بثقل حدبته على كتفيه وظهره.

رحّبت البنت المترجمة بجاد الحق، ونقلت احترام الصحفية الفرنسية للرجل العجوز الجالس أمامها، وقد ضمّ ركبتيه براحتيه؛ ليبدو كما الكرة، وحين سألته إن كان بوسعه أن يعطيها أية فكرة عمّا يجري في البلاد، أجابها بأن:" أسوأ ما يمكن أن تتعرض له مدينة هو هجرة آنـا منها"، ثم تمتم قائلاً بأن آنـا، كانت حافظة طهر المدينة، وطلب من الصحفية الفرنسية أن تبحث معه عن آنـا مؤكّداً لها، أنه لم يتخلّ عن المخطوطات عمداً، وأن مجمل ما حدث، لا يتعدّى لحظة، تخلّت فيها إرادته عنه، وأن إرادته مجزد كائن لاه، لن يلبث أن يعود إليه ذات يوم، وأنه ما يزال يستحثّ إرادته على الوقوف على قدميها، فـ:" الإرادة تحبو، كما طفل، فما إن تصفّق لها حتى تركض نحوك، وتلقي بجسدها فوق صدرك"، ثم حكى لها عن رهاب المكان المغلق، وقد أحاط بحياة عزّ الدين الحكيم، وقال لها إنه:" بات يستحم في صالة منزله بين الخدم"، و:" إن وساوس البرزخ تنتابه حين يكون بمفرده"، وإن عزّ الدين الحكيم قد:" أصيب بالعمى السيكولوجي ما بعد تنحيته من منصبه"، وإنه:" بات يهذي ويعوي ويطالب باستعادة إبهام جورجيت المدفونة؛ ليكشف عن جريمة، ارتكبها ظلّه"، وكان جاد الحق يحاول أن يقول له:

- بالله عليك، أن تنسى، يا سيدي، إن إصبع الفيت ميّتة هي الأخرى، وإن المآثر الكبرى تتطلّب من رجل مثلك أن ينسى.

كان عزّ الدين الحكيم يسير نحو ترداد اسم الله طالباً من الله المغفرة، ومع كلّ مخاطبة لله، كان جاد يؤكّد له، أن الحاجة إلى الخلاص يمكن أن تُطلَب بصوت أكثر هدوءاً، فأذن الله أشدّ حساسية من كل لواقط الصوت التي انتشرت في البيوت والفنادق طيلة سنوات من عمر البلاد؛ لتطارد ثلّة من المسؤولين الكبار، ومن بينهم جنرالات كبار، ووزراء تكنوقراط، ورجال من قيادات الحزب الحاكم؛ ليكونوا تحت سمع وبصرالدولة، وكان الرئيس الراحل يستمتع أيّما استمتاع بإنفاق وقت واسع للفرجة، خصوصاً على ذاك الشريط المسجّل بالصوت والصورة، لوزير العدل الماجن، وقد غرس رأسه بين ساقي امرأة؛ ليبلّل ذقنه الحليقة بها، كاشفاً عن عجز جنسي، يتطلب

معجزة لانتشاله منه، وكان الرئيس الراحل أكثر حرصاً على إبقاء وزارة العدل تحت جناح وزيرها، فيما كان الوزير يردد لعز الدين الحكيم قائلاً:

- سيدي، إنّ جاد الحق هذا لعنة.. إنه شيطان بحدبة.

وحين سأل الوزير جاد الحق، بحضرة عز الدين الحكيم، عن السبب وراء شكله الرثّ، وملابسه الخشنة، وشعره الأشعث، أجابه جاد الحق كمن يتوسل الإجابة:

- إنني بوهيمي، يا سيدي.

كانت إجابة جاد عن سؤال الوزير قد حملت اختلاطات كبرى، ما دعا السيد الوزير، للفت انتباه عز الدين الحكيم قائلاً:

- وهل يصح أن تشتغل بهيمةٌ عندك، يا سيدي؟

حاول جاد، أن يُصحح للسيد الوزير مشيراً إلى الفارق ما بين بوهيمي وبهيمي، غير أن السيد الوزير، اعتقد أنّ من العبث أن يشتغل المرء على إسقاط حرف الواو؛ ليغير المعنى، فاللغة هي اللغة، وعلى الطبقة العاملة أن تكون حريصة على ترشيد كلامها، ليس لدينا وقت لنجلس ونفسر للعقال البهائم الفارق ما بين بوهيمي وبهيمي، وقد أثر كلام السيد الوزير في عز الدين الحكيم أشدّ التأثير ما دعاه إلى معاقبة جاد الحق بأن أمره:

- هيا، اذهب إلى المغاسل، ورطّب شعرك بالماء، وصفّفه كما يجدر برجل محترم.

ما إن استكمل جاد الحق تصفيف شعره، حتى بدا أنفه أثقل من حدبته، فليس من اليسير على رجل وُلِد من أمّ ميتة أن يصفّف شعره، وكلّ الحقائق الإنسانية كانت تواظب على التأكيد بأن الأم حصراً، هي مُدرّبة الطفل على اكتشاف أن المكان الأكثر جدارة بإيلائه وقتاً فهماً هو رأسه، ما يعني أن الطفل يُولَد ليولَد المشط معه، غير أن زمزدة - وكانت أماً بالإرضاع والتبني - لم تكن تعرف عن حقائق الأمومة ما يزيد عن مراقبة القمر، والإصغاء إلى نداءات زهرة الحشيش، واستطلاع تدبيها، وقد نفر الحليب منهما مع أنها ما تزال بنتاً بكراً، ما أدى إلى انفلات حياة جاد الحق خارج أقانيم الشّعر المصفّف، وبما جعله لا يتنبه إلى حدبته، وقد تشكّلت فوق ظهره ببطء، كما الزمن، وها هو قد تخطّى العقد السابع دون أن يتنبه إلى هشاشة عظامه التي باتت كما الخبز الفحلي، لا تلبث أن تتكسر حال

لمسها.

من العبث، بل من الجنون أن يُبقي جاد الحق على جبيرة فخذه، فحين تُقرّر العظام البشرية أن تخرج من مستودع الجسد، فعلى حاملها أن يدعها تذهب لمصيرها، وكان جاد، على قناعة بأنه ليس سوى حارس لعظامه، وأنه لا يزيد عن كونه مؤتمناً عليها، وحين قرّر نزع الجبيرة عنها، وما يزال في ساحة مشفى المجتهد، صرخت به ياسمينة طالبة أن لا يفعل.

بدت ياسمينة حارسةً لجاد الحق جاد الله، وكان جاد قد تخلّى عن حراسة عظامه، ولم يكن راغباً، ولا قادراً على الاشمئزاز من حارسته، مادامت دوافعها إيجابية، غير أن الحنين لآنـا كان شاغله الأوحد، ولم تكن آنـا تعلم شيئاً عن مصيره، وقد هجرته صبياً، فانشغالاتها في دُور العَجَزة، بعد أن وهبت نفسها لهم ما بعد شيخوختها، ضاعف من حرصها على تجديد شبابها حتى يخال لمن يعرفها أنها لم تتجاوز العقد السادس بعد، كانت تعيش مانحة من هم في جيلها أو أصغر منها قليلاً كامل رعايتها، وكان عَجَزة الدار أناس، وصلوا إسرائيل، وانتظموا في الهاجاناه، وارتين عقائد موسى الفقاتل، مُحبطين حتى اشتهاء الموت، معزولين ما بين ثكنتين فاضحتين، ثكنة الذاكرة، وثكنة المأوى، زاحفين صوب نهاية أعمارهم.

كانت تعزف لهم ألحاناً وأغاني راقصة، متخلّيةً عن كلاسيكيات الموسيقى التي عزفتها طيلة حياتها، وكانوا يرقصون... نعم، كان بوسع آنـا أن تُرقّص الجثث، وتكحل عيون الموتى، كانوا يهيمون بها عشقاً، ما جعل مأوى العجزة مساحة لغراميات، لا حدود لها، ولم تكن لتمانع في أن تمنح كلّ رجل من رجال المأوى إحساساً بأنه الفارس الأول، ما جعل مجموع عجائز المأوى فرساناً، وقد محوا انتظار الموت من ذواكرهم، راقصين في مساحات واسعة، مهلّلين لأقدام، بدا كما لو أنها نبتت من جديد في أجسادهم، وكانت كتبت بلغتين، العربية والعبرية، جملة مختصرة، علّقتها يافطة في نادي العجزة، والجملة تقول:" الحياة لا يُملّ منها".

لم يكن جاد الحق يحضر في بالها كما يمكن للمرء أن يتوقّع، غير أن ما حدث فعلياً كان غير ذلك، ففي استطلاع أجرته مجلّة إنكليزية حول اليهود الإسرائيليين المتحدّرين من أصول عربية، مغربية، وعراقية، وسورية، أطلّت آنـا، وقد زرعت لؤلؤتين في أذنيها، ورفعت شعرها كما

كتلة ثلج فوق رأسها، ثم نزعت نظارتيها عن عينيها؛ لتقول، إنها تركت في دمشق صبياً فائق الذكاء والعبقرية، وإنها تحنّ إليه كما تحنّ إلى حي الأمين، وأزقّته الضيقة، ونوافذ بيوته الرطبة، وتذكّرت - فيما تذكّرت - صقيع يديها، ومعلّمة مادّة الديانة الاسلامية، وهي تُخرجها من الفصل في جوّ عاصف مُثلج، دون أن تتذمّر من هذه القطعة في ذاكرتها، فالبنات اللواتي كنّ في فصلها كنّ يخرجنّ إليها معزّيات؛ ليفركنّ يديها؛ لتتدفأ، مؤكّدات لها أن أجمل الفساتين هي تلك التي ترتديها آنـا، وأنهنّ راغبات في استعارة مجلّتها الممتلئة بآخر صيحات الموضة، كما كنّ يغمزن من وسامة أبيها عزرا، ولم تُخفِ آنـا رغبتها في العودة إلى دمشق؛ لتُدفن في مدافنها، متمنّية أن تتوقّف الحروب إلى الأبد، ومع استرسالها في حديث الحرب والسّلم، كانت تحضن رجلاً عجوزاً محارباً، قالت إن البندقية هي أسوأ ما حمله في الذاكرة، لتؤكّد أن دوّامة الحروب، وقد طالت، خلقت متشابهين على ضفّتيها، وختمت كلامها بإرسال قبلة إلى شاب، تظن أنه ما يزال على قيد الحياة، وأشارت إلى أنه من أبدع المصوّرين الفوتوغرافيين في بلاده، ما يدفع للاعتقاد بأن قبلتها طارت إلى جوزيف تارزيان، وقد بات اليوم مجهول الإقامة بعد تحوّل استوديو جوزيف إلى مخزن للألبسة الأوروبية المستعملة، ولم يكن جاد الحق على علم بما نشرته المجلّة، ولو كان يعلم، ربّما كان بوسعه أن يقف على قدميه ثانية؛ ليغادر كرسيه المتحرك، مودّعاً ياسمينة، قائلاً لها:

- ياسمينة، لديّ عمر آخر، دعيني، أذهب إليه.

كما يمثل صراع الموت استمتاعاً لمتفرّجين على الحلبة، ثمّة استمتاع عظيم، تُحصّله المرأة حين تحتجّ على رجل، وخذ مثالاً: ياسمينة الصامتة منذ تزوّجت جاد الحق جاد الله.

بعد عقود ستّة من زواجهما، وبعد أن بات جاد على كرسي متحرّك، وبين ناقلات موتى وجنود هارعين في الشوارع، يطلقون رشاشات بنادقهم، نظرت إلى جاد بريبة وحذر، وبدت كما لو كانت نجاراً، يحمل المنشار والخيط، وهي تستدرج حياتها معه، وبكلمات مقتضبة، سريعة، قالت له:

- إن أسوأ ما في عمري أنني كنتُ زوجتك.

- حقاً؟ أجابها، وهو يزيح ذاكرته كمن يقتلع شظية من قلبه.

- نعم، لو كان بوسعي أن أدعكِ في ساحة المشفى هنا، وأغادركِ، لفعلتُ.

- لماذا؟

- لا لشيء، لأنك أكلتَ عمري.

- وهل من عمر جديد، تذهبين إليه؟

- إن أية مقبرة أشرف من البقاء إلى جانبك.. ليس من العدل أن أحملك وحدبتك معاً.

ما إن أشار بيده إلى ياسمينة حتى غادرته فعلاً، وكأنها كانت بانتظار إشارة، وما إن خرجت من بوابة المشفى، وهي تجز شيخوختها وفجر المدينة يخبو فيها، حتى تلفّت جاد الحق جاد الله إلى الساحة الممتلئة بالمصابين والمواطنين المنتظرين سحب موتاهم من علب المشفى، وكان يقلّب المكان باحثاً عن موتى، يعرفهم؛ ليؤنسوا وحدته، لم يكن يرغب في الاستسلام والذهاب إلى الموت بمفرده، فالوطن بالنسبة له، هو حيث يُدفن إلى جانب أناس، يعرفهم، أو يمتون إليه بصلة قُربى، ولم يكن يخال أنه سيعود إلى جلباب صمته الذي تدثر به طيلة حياته الماضية، وما عليه فعله اللحظة، هو أن يجهز نفسه لموت آخر، بعد أن بات فاقد الحيلة على تجهيز نفسه لحياة أخرى، وفي موته الجديد، كان جاد الحق عازماً أن يحكي ويحكي، دون أن يصمت، ولو للحظة واحدة، كما كان عازماً أن لايكون ميتاً بحدبة، كما حاله حياً بحدبة، ومنذ هذا اليوم، قرّر جاد الحق جاد الله أنه لن يعود للاستسلام إلى كفادات الخيال التي يستبدلها بالوقائع الصارمة، وما على الموتى القابعين إلى جواره سوى تحمل بصاقه في وجوههم، وهو يُكرّر على مسامعهم أنه الرجل المتفرّد برضاعة حليب بنت بكر، كما أنه المتفرد في الانزلاق من رحم امرأة ميتة، ما يعطيه حقوقاً، تتجاوز حقوق الموتى الآخرين القابعين في هذه المقبرة، وقد نزلوا من رحم حي، ورضعوا من أثداء أمهات أحياء، وحين أدرك أنه لم يتعرّف على أيٍ من هؤلاء الموتى المرميين فوق محفّات خشبية، تنزلق من أيدي حامليها بعبثية أيام الحرب وشتات أحيائها، بات وحده، متيقناً من موته وحيداً فوق هذا الكرسي.

كان يظن، أن كرسيه سيتدحرج شاقاً طريقه من مشفى المجتهد باتجاه باب مصلّى، عابراً حي الأمين، متجاوزاً هذا الحي نحو باب شرقي، ومن

باب شرقي، سيستمز كرسيه متدحرجاً وصولاً إلى مقبرة شرقي باب توما؛ حيث آلاف الموتى ينامون مسترخين، بعيون مطفأة، وأجساد متيبسة، وإلى جوارهم مئات البشر الذين ينامون في الحديقة المجاورة، إثر التهجير القسري الذي مارسته حرب الأزقّة، متنافسين على أماكن شاغرة، وبدا جاد الحق كمَنْ يُعلن يأسه من معاودة التوقُّف تحت نافذة آنـا؛ ليقول لها إنه ذاهب إلى الموت، وأن لا عودة ثانية له، وإن كلّ البشر يعودون من فتحات في خرائطهم الجينية، باستثنائه هو، فسلالته الجينية هرمة، وليس لها مع الكون موعدٌ آخر، كما حال بقية البشر الذين ينتمون إلى خرائط جينية شابة واعدة.

- حدث ذلك، نعم.

ما إن عادت ياسمينة، وقد أعادت النظر في قرارها، حتى وجدته مُتيبساً على كرسيه المدولب، وكان ولداه الشابان واقفين إلى جانب أمهما بأذرع متصالبة، بعد أن بلغ تذمرهم حداً عظيماً، لا لموت جاد الحق جاد الله، وإنما لسبب آخر تماماً:

- لقد أعياهما البحث عن تاكسي.